المجلس الأعلى للثقافة

أحمد زكريا الشلق

طه حسين

جدل الفكر و السياسة

إهـــــداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

طه حسين
جدل الفكر والسياسة

أحمد زكريا الشلّق



٢٠٠٨

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

اسم الكتاب : طه حسين (جدل الفكر والسياسة)

اسم المؤلف : أحمد زكريا الشلق

الطبعة الأولى – القاهرة ٢٠٠٨م . المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠ ص – ١٧ × ٢٤ سم

١ – طه حسين – جدل الفكر والسياسة

(أ) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٩١٨٠

الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 726 - 5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084

المحتويات

تقديم

لايزال طه حسين حيًا بيننا بما كتب ونشر فى حياته، وبما ننشره بعد رحيله ، وبما نقرأه ونفسره، ونستكشف مراميه وأبعاده، وبما نوافقه عليه ونتعلم منه، أو نختلف معه ونتركه.. لقد صار تراث الرجل جزءًا أصيلاً من ثقافة هذا الوطن وضميره. وفى يقينى أن أحداً لا يستطيع أن يكتب شيئًا عن عميد الأدب العربى، إلا أن يكون قد قرأ كل ما كتبه وتمثله فى أناة وصبر، وتأثر به بدرجة أو أخرى.

لقد قضيت فى صحبة ما كتبه العميد نحو عشرين عامًا، بدأت عندما اقترحت على الزملاء بالجامعة عام ١٩٨٧ أن أعد محاضرة عن موقف طه حسين من الغرب والتغريب، فبدأت منذئذ فى قراءة مؤلفاته التى لم أكن قد قرأتها، وإعادة قراءة ماسبق لى أن قرأته، وحينذاك انفتح أمامى عالم سحرى من الثقافة، يعج بالأفكار ونقدها، ويفيض بأبحاث الأدب وإبداعه، ويظهر مفاتن اللغة وطلاوتها.. ولفت نظرى أن هناك عشرات من الكتب لطه حسين «جمعت» مقالاته التى نشرها بالصحف والمجلات عبر عقود عديدة. لم يلتفت إليها غير الدارسين المعنيين بكل ماكتب، والتى تتناول قضايا فكرية أكثر بكثير مما قاله فى كتبه «المؤلفة» المشهورة.

ومضيت فى هذه الصحبة حتى عهدت إلى اللجنة العلمية بمركز تاريخ مصر المعاصر ومقررها الأستاذ الدكتور يونان لبيب (بدار الكتب والوثائق القومية) أن أراجع وأعد للنشر مجموعتين من مقالات طه حسين السياسية، لتنشرا ضمن خطة المركز لنشر مقالات العميد السياسية تحت إشراف الأستاذ الدكتور رؤوف عباس،

كما كان من حظي أن شاركت صديقي الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس هيئة دار الكتب والوثائق القومية، فى تحقيق ودراسة ونشر جزأين يضمان أوراق طه حسين ومراسلاتها نشرتهما دار الكتب المصرية.

وقد توفر لى من صحبة كتابات عميد الأدب العربى خلال هذين العقدين ماحفزنى على نشر هـــذه الــدراسات التى ضمها هذا الكتاب الذى اخترت له عنوان « طـه حسـين: جدل السياسة والفكر» على اعتبار أنها تتناول ملامح من مسيرة طه حسين السياسية والفكرية. محاولة تبين رؤاه واتجاهاته من خلال كتاباته ومواقفه العملية، وكيف اصطدمت السياسة بمواقفه الفكرية، وكيف واجه أزمة السياسة مع العقل وحرية الفكر.

وسيرى القارئ أن الفصول الثلاثة الأولى تتناول، فى خط تاريخى متواصل، طه حسين سياسياً، منذ أن بدأ يتشكل وعيه العام مع نهاية العقد الأول من القرن الماضى، وحتى أصبحت له مواقف وأدوار مشهودة، كاتباً وإدارياً ووزيراً...أما الفصلان الرابع والخامس، فقد اختص أحدهما بدراسة موقف العميد من الغرب، وكيف تأثر بنموذجه الحضارى؟ وإلى أى مدى؟، بينما تناول الفصل الأخير، وهو يتصل بسابقه، دراسة لموقف العميد من مسألة الهوية والوجهة الحضارية التى ينبغى لمصر أن تتجه إليها، وذلك من خلال قراءة مختلفة لكتابه الخطير «مستقبل الثقافة فى مصر»، وأخيراً أرجو أن يجد القارئ شيئاً من الفائدة والمتعة التى وجدتها فى صحبة طه حسين.

والله المستعان

أحمد زكريا الشلّق

القاهرة ـ يونيو ٢٠٠٧

الفصل الأول

طه حسين والسياسة المصرية
من البحث عن دور إلى معسكر الصفوة

«وكذلك غرق صاحبنا في السياسة إلى أذنيه، وكان جديراً أن يفرغ للعلم والتعليم، وألا يفكر إلا في طلابه وكتبه، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة بالقياس إلى بعض أبنائها إثمًا لا يغتفر، ولا تمحى آثاره. وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جبنًا ونفاقًا. المهم أنه غرق في السياسة أو احترق بنارها.. وعلى كثرة مالقى من أهوال السياسة ... لم ينكر من سيرته شيئًا، ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله..».

(الأيام، الجزء الثالث)

نود في البداية التأكيد على حقيقة مؤداها أنه ليس ثمة انفصال بين الأدب ـ بشتى فنونه – والسياسة، وأن الأدب الحق لا يخلو من مضمون سياسي، سواء أتى هذا المضمون ظاهراً أو مضمراً، مرئيًا أو غير مرئي، وسواء قصد الأديب ذلك أو لم يقصده، وإذا كان الأدب يمثل موقفًا من الحياة الإنسانية، فليس بوسع الأديب إلا أن يكون له موقف سياسي، بمعنى من المعاني.. وعلى ذلك يبدو أمراً طبيعيًا، إن لم يكن ضروريًا، ونحن نحفل ونهتم بما كتب عميد الأدب العربي، أن نولي اهتمامًا خاصًا لما تضمنته هذه الكتابات من رؤى وآراء ومواقف سياسية، ولعل نقاد الأدب ومؤرخو الفكر قد أسهموا في ذلك بنصيب، لكنه يبقى دون ما هو منتظر.

وإذا كان "طه حسين" قد انخرط فى الاشتغال بالسياسة، من باب الكتابة، خلال أوائل الثلاثينات من القرن الماضى، وجعل يكتب «المقالات السياسية» فى الصحف الحزبية، على نحو غير معهود منه، فإنه ترك لنا تراثًا هائلاً من المقالات، يقدر بالمئات، لذلك فإنه من باب أولى، بل من الضرورى، أن يهتم بدراستها المشتغلون بالتاريخ وبالعلوم السياسية، لدراسة « الجانب السياسى» من طه حسين، ذلك الجانب الذى لم يلق العناية الكافية[1]، ربما لعدم توفر نشر هذا التراث، أو لطغيان الجوانب الفكرية والأدبية من حياة "طه حسين" على هذا الجانب أو ذاك.

وقد شارك "طه حسين" بمقالاته السياسية خلال فترة جد حيوية وخصبة من نضال مصر السياسى والاجتماعى من أجل نيل حريتها واستقلالها، ومن أجل إقامة حكم دستورى وحياة ديمقراطية سليمة، وهى فترة الثلاثينات، ولما كان "طه حسين" خلال الفترة السابقة على توقيع معاهدة (١٩٣٦) بين مصر وبريطانيا، قد شمَّر عن ساعديه وشرع يخوض، بقلمه، معركة الوطن حين أنشأ يكتب المقالات السياسية الطوال، واليومية تقريبًا، وفى افتتاحيات الصحف التى نشر بها، وهى صحف الأحرار الدستوريين ثم الوفد، والتى نشرها بشكل مكثف وفريد لم يعهده قراؤه، بعد أن غرق فى السياسة حتى أذنيه، فكان يعمل - حسب تعبير قرينته - فى صحيفة "كوكب الشرق" «كما يعمل محكوم عليه بالأشغال الشاقة[2]»، فخاض معركة الوطن ضد الاحتلال والنفوذ الأجنبى، وضد دكتاتورية نظام إسماعيل صدقى واستبداده، واستطاع شحذ كل أسلحته الماضية بدأب شديد إلى أن سقط هذا النظام. وقبل أن نتحدث عن دور "طه حسين" فى نضال مصر السياسى والاجتماعى خلال هذه الفترة، نرى أن نلقى مزيداً من الضوء على مغزى اهتمام طه حسين بالصحافة والأحزاب وبالتطورات السياسية لنستطيع فهم أصول هذا الدور وجذوره منذ تفتح وعيه السياسى مع بدايات القرن الماضى.

ـ ١ ـ

عندما تشكل وعى "طه حسين" العام مع نهاية العقد الأول من القرن العشرين، وبدأ ينشر أشعاره ومقالاته فى الصحف المصرية منذ عام (١٩٠٨)، حيث كان يتحسس لنفسه موضع قدم فى الحياة الثقافية والسياسية، كان قد اقترب من العشرين من عمره (ولد١٨٨٩) فى الوقت الذى كانت مصر تشهد فيه طوراً جديداً من أطوار حركتها الوطنية، قوامه موجة شابة تفتح وعيها على واقع الاحتلال البريطانى الجاثم على صدر الوطن، ومن ثم كان عليها عبء مقاومته والنضال ضده. وفى ظل هذه الظروف بدأت تظهر الصالونات الأدبية والمنتديات الثقافية، وتصدر الصحف الوطنية الجديدة التى تعبر عن مشاعر الجيل الجديد، فى الوقت الذى كان فيه خديوى البلاد الشاب (عباس حلمى) يسعى هو الآخر ليكون حاكمًا حقيقيًا لمصر متحديًا دكتاتورية اللورد كرومر المعتمد السياسى البريطانى. وفى ظل هذه التطورات بدأت تبرز قيادات وطنية وفكرية شابة جديدة، بعضها يؤلف الجمعيات السرية والوطنية، لتحرير مصر، وبعضها يمارس الكتابة والخطابة، وينظم المظاهرات لبعث الروح الوطنية لمقاومة الوجود الإنجليزى.

ومع نضوج تيار الحركة الوطنية الجديد فى أوائل القرن العشرين ـ وهى فترة نضوج لـ "طه حسين" ـ وتعرضه لظروف تاريخية أدت إلى بروز اتجاهين رئيسيين فيه: أولهما اتجاه مصطفى كامل ومحمد فريد وعبدالعزيز جاويش وغيرهم من الذين أسسوا الحزب الوطنى المصرى، وثانيهما اتجاه جماعة الإمام محمد عبده وتلاميذه، والذين نطق باسمهم أحمد لطفى السيد وأنداده ممن ألفوا حزب الأمة.. ولم يكن بوسع أحد من المثقفين والكُتَّاب والمهتمين بشئون الوطن حينئذ إلا أن يتحسس موقع أقدامه من هذه الحركة السياسية الوطنية والحزبية، فأين كان "طه حسين" من هذا كله؟ خصوصاً وأن وعيه العام وبداية نضجه الثقافى والسياسى كان يتخلق فى رحم هذه المرحلة.

نحن نعلم من سيرته الفذة «الأيام» أنه حتى عام (١٩٠٨) كان لايزال يدرس فى الأزهر، وأن ضجره بأساليب الدراسة وموضوعاتها فيه قد بلغ مداه، وأنه منذ ذلك العام بدأ يكتشف نوعًا آخر من التعليم مع افتتاح الجامعة المصرية، شغف به حبًا، وبدأ يختلف إلى دروسه بحرص شديد، فصار موزعًا بين نوعين من التعليم، ميالاً إلى النوع الجديد بحكم انفتاح فكره وتحرر آفاقه وطموحاته التى لا تحد.. وفى الفترة نفسها كان جيله يتوزع بين اتجاهى الحركة الوطنية وحزبيها (الوطنى والأمة)، وربما بدأ طه هو الآخر يتوزع بأفكاره وعواطفه بين الحزبين، فصارا يتجاذبانه للكتابة فى صحفهما، والأحزاب المصرية فى هذه المرحلة كانت تصدر صحفًا تلعب دورًا تثقيفيًا ووطنيًا مهمًا، كما كان أغلب السياسيين من المثقفين والكتّاب، بل والمفكرين، فكان ثمة اندماج واضح بين السياسة والثقافة، وكانت الصحف السياسية تمثل أوعية حاضنة لإنضاج المثقفين والكتاب، تنشر لهم وتشجعهم وتستكتبهم وتفرد صفحاتها لمعاركهم، أيًا كانت انتماءاتهم السياسة، وبغض النظر عن مدى انتمائهم لهذا الحزب أو ذاك، ممن تنطق الصحف بلسانها؛ فالثقافة غالبًا ما كانت تسمو فوق الروح الحزبية الضيقة.

ولأن "طه حسين" بدأ حياته الفكرية عام (١٩٠٨) باعتباره رجلاً من رجال الأدب والفكر قبل أن يكون رجلاً من رجال السياسة والأحزاب[٣]، فكان أمرًا طبيعيًا، فى ظل المناخ السابق، أن يتنقل بين صحف الحزبين الكبيرين، ينشر فيها أشعاره ومقالاته، بل كان يستوحى من زعماء الحزبين الكثير من أفكاره وطرائقه وأساليبه فى الكتابة.

وقد وصف لنا "طه حسين" كيف كان يلقى لطفى السيد فى صحيفة «الجريدة» الناطقة بلسان حزب الأمة، عدة مرات كل أسبوع، وأنه كان يلقى عنده من شيوخ المطربشين وشبابهم قومًا كثيرين، وأن أحاديثهم كانت تفتح له أبوابًا من العلم والمعرفة لم تكن تخطر بباله، كما أنه اتصل كذلك بالشيخ عبدالعزيز جاويش، أحد قادة الحزب الوطنى وكبار كُتَّابه، وأن طه كان يكثر الاختلاف إليه والاستماع له فى الفترة نفسها التى أخذ يجرب فيها قلمه فى الكتابة.. حتى لقد صار موزعًا بين مذهبين من مذاهب

الكتابة فى ذلك الوقت، أحدهما مذهب الاعتدال والقصد، ذلك الذى كأن لطفى السيد يدعو إليه، وهو أسلوب حزب الأمة، والآخر مذهب الغلو والإسراف، الذى كان الشيخ جاويش يحرضه عليه، وهو أسلوب الحزب الوطنى، «وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً، فإذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة، وإذا غلا نشر فى صحف الحزب الوطنى»(٤).

وقد يفهم مما سبق أن "طه حسين" لم ينضم لأحد الحزبين، ولم يكن ذلك ملزماً له بأية حال، وأنه كان يبحث عن وسيلة لنشر كتاباته، وأن صحف الحزبين اتسعت له. ولذلك ليس بوسعنا أن نقرر انضمامه لأيهما، خصوصاً وأن كتاباته كانت أدبية، ولاتتصل بالمواقف السياسية لهذا الحزب أو ذاك، كما أن اسمه لم يرد فى تنظيمات أو عضوية أى من الحزبين، كما أن دارسى الحزبين لم يشيروا إلى أى دور سياسى أو حزبى له، فما كان ينتمى اجتماعياً أو سياسياً لحزب الأمة، وما كان ينتمى فكرياً أو سياسياً للحزب الوطنى، وكان حسبه أن يجد بغيته فى صحف الحزبين، وأن يسترشد بتوجيه كبار الكُتَّاب فيهما.

ويدخل فى هذا الإطار من العلاقات أن "طه حسين" فى فترة تعليمه الأزهرى الأولى حضر درسين من دروس الإمام محمد عبده، وكان معجباً بطريقته وأسلوبه، ولاحظ أن الذين بكوه عند وفاته بإخلاص لم يكونوا من ذوى العمائم، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش، وأضاف أنه وجد بنفسه ميلاً خفياً إلى أن يقترب من هؤلاء وأن يتصل ببيئاتهم بعض الاتصال.(٥) ولم يكن أصحاب الطرابيش هؤلاء إلا شيعة الإمام وتلاميذه الذين برز منهم جماعة المثقفين ثقافة أوربية حديثة، حيث تعرف على لطفى السيد وأعجب به، وطفق يتردد على صحيفة «الجريدة»، حتى أنشأ يجرب قلمه فى الكتابة فيها متناولاً موضوعات أدبية واجتماعية، وكان لطفى السيد يشجعه كثيرا، وقد تنبأ له أن موضعه فى مصر سيكون موضع (ڤولتير) فى فرنسا، وقد قال له ذات مرة إنه سيكون كأبى العلاء(٦)، وقد نشر "طه حسين" أول قصيدة شعرية له فى صحيفة "الجريدة"، وكانت فى رثاء حسن باشا عبد الرازق وكيل حزب الأمة(٧).

غير أن حزب الأمة قد مر بأزمة داخلية أثرت على مجمل نشاطه خلال صراع الخديوى معه ومحاولته البطش بالحزب، بعد سياسة الوفاق التي حدثت بين الخديو (عباس حلمى) والمعتمد السياسى البريطانى «جورست»، الأمر الذى كان نكبة على الحزبين الكبيرين، وخلال عام (١٩٠٩) أتت حملة الخديوى ثمارها فتوالت الاستقالات من الحزب، وأغرى بعض الشركاء فى شركة «الجريدة» برفع دعوى للمطالبة بتصفيتها[٨]، وربما كان ذلك وراء إيثار "طه حسين" أن يميل إلى صحف الحزب الوطنى، خصوصاً أنه كان على علاقة طيبة بالشيخ جاويش منذ عام (١٩٠٨)، أى فى الفترة نفسها التى كان ينشر فيها فى «الجريدة» بتشجيع وإغراء من رئيس تحريرها لطفى السيد.

وكان الشيخ عبدالعزيز جاويش قد تولى رئاسة تحرير كبرى صحف الحزب الوطنى «اللواء» منذ مايو (١٩٠٨)، واستمر فى وظيفته حتى رحيله إلى الآستانة عام (١٩١٢)، وقد بدأت الصلة بينه وبين "طه حسين" عندما كان هذا يختلف إلى مجلسه فيسمع حديثًا لينًا عذبًا، لكن الفتى كان يرى وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفًا وأى عنف إذا ذكرت السياسة أو ذكر الأزهر وشيوخه.. وكان بغضه لسعد زغلول معروف يتحدث به الناس، كما أنه ألقى فى رُوع طه فكرة السفر إلى أوربا، ويعترف طه حسين كذلك أن فضله عليه تجاوز هذا عندما عرفه إلى جماهير الناس، وجعله ينشد الشعر أمامهم فى بعض المناسبات العامة شأن الشعراء المعروفين.. وقد ذكر "طه حسين" كذلك أن جاويش هو الذى علمه الكتابة فى المجلات، عندما أنشأ مجلة «الهداية» وأشركه فى تحريرها، وكان له الفضل فيما تعلم من إعداد الصحف وتنسيق ماينشر فيها من فصول.. كما شرع يتعلم الفرنسية فى مدرسة مسائية قرب الأزهر، كان للشيخ جاويش يد فى إنشائها[٩].

وهكذا وجد "طه حسين" فى صحف الحزب الوطنى العديدة، والتى كانت أكثر شهرة ورواجًا، متسعًا لمقالاته وأشعاره، بإغراء من الشيخ جاويش الذى تميزت شخصيته بحدة وجدت صداها فى نفس طه حسين، فكتب فى صحف مصر الفتاة

والشعب والعلم ومجلة الهداية خلال عامي (١٩٠٩-١٩١٠)، وكان من الطبيعي أن تظهر بعض أفكاره السياسية خلال ذلك، وبخاصة في شعره الوطني، الذي حاول فيه أن يعبر عن آماله وآمال وطنه في الاستقلال والحرية والمطالبة بالدستور والحكم النيابي، وكانت هذه هي مطالب الحركة الوطنية المصرية؛ ففي قصائده هنّأ جاويش بمناسبة خروجه من السجن، وطالب الخديوي بالدستور، وهاجم مشروع مدّ امتياز قناة السويس، كما نشر قصيدة وطنية بمجلة الهداية في ديسمبر (١٩١٠) بمناسبة العام الهجري الجديد جاء في مطلعها:

كُنْ أَنْتَ بَعْدَ أَخِيكَ خَيْرَ هِلاَلِ وأَضِئْ لِمصْرَ سَبِيْلَ الاسْتِقْلاَلِ

وعلى الرغم من ذلك لم ينقطع "طه حسين" عن نشر بعض قصائده في صحيفة حزب الأمة خلال الفترة نفسها، والفترة التالية (١٩١٠ - ١٩١٣) كما كانت علاقته بـ "لطفي السيد" تزداد توطُّداً، فضلاً عن أن الآمال السياسية التي وردت بقصائده المنشورة بصحف الحزب الوطني لم تكن تعبيراً عن آمال الحزب الوطني وحده، وإنما كانت تعبر عن آمال الجماهير العريضة من المصريين. ويلاحظ أن "طه حسين" في قصائده السياسية لم يكن متطرفًا يدعو إلى الثورة، وإنما كانت دعوته سلمية ذات طابع إصلاحي، كما أنه كف عن كتابة الشعر السياسي منذ عام (١٩١٠)(١٠).

وعندما تصدت سلطات الاحتلال البريطاني للحزب الوطني، وطاردت زعماءه بالنفي والسجن والتشريد، ولاحقت صحفه بالمصادرة والإغلاق، اضطر زعيمه محمد فريد إلى الهجرة لاستئناف النضال من أوربا، كما آثر كاتبه الكبير الشيخ جاويش أن يرحل إلى الآستانة عام (١٩١٢)، تدهورت أوضاع الحزب واختفت معظم صحفه، فلم يجد "طه حسين" أمامه من سبيل لنشر مقالاته سوى جريدة أستاذه لطفي السيد، التي لم يكن قد انقطع عن النشر فيها كلية. فأنشأ طه يكتب فيها مقالاته منذ بداية عام (١٩١٣)، ويُلاحظ أن هذه المقالات اتخذت طابعًا فكريًا يتفق مع فكر لطفي السيد الذي

كان يدعو له فى الجريدة، فجعل "طه حسين" يكتب عن مفهوم القومية المصرية مجموعة مقالات ربط فيها بين الروح التقدمية والاستقلال والحرية السياسية، وبث فيها دعوة أن تكون مصر للمصريين، كما فنَّد مفهوم الجامعة الإسلامية، ويُلاحظ أنه لم يتبنَّ هذه الأفكار عندما كان يكتب فى صحف الحزب الوطنى، مما يجعلنا نعتقد أنها كانت ترديداً لأفكار لطفى السيد(١١).

وعلى الرغم مما سبق لم ينضم "طه حسين" إلى حزب الأمة، وإنما كان مجرد أحد الكُتَّاب الذين وجدوا فى صحيفته وفكرها التحررى، سبيلاً ووسيلة لنشر مقالاتهم، ولم يهتموا «بسياسة الحزب»، وإنما انصبت كتاباتهم على الدراسات الأدبية والاجتماعية والفكرية التى تتفق بشكل عام مع خط الحزب الإصلاحى، وكان شأنه شأن عباس العقاد، الذى كان أول من أبرق للحزب فور قيامه معلناً تأييده، ثم كتب العديد من المقالات على صفحات جريدته، وكذلك فعل سلامة موسى(١٢)، لقد كان "طه حسين" يدين للطفى السيد، رئيس تحرير الجريدة وسكرتير الحزب بكثير من الدعم والتشجيع، كما كان معجباً بأستاذه محمد عبده من قبل.

والواقع أن "طه حسين" عندما حدثنا عن صلته بقادة الحزبين، الوطنى والأمة، خلال هذه المرحلة من حياته ـ مرحلة ما قبل ثورة (١٩١٩) ـ لم يكن يتحدث عن اتجاهات ومواقف سياسية بقدر ما كان يتحدث عن «علاقات شخصية» دافعها الاعتراف بالفضل، وخصوصاً للشيخ جاويش وللطفى السيد، وكانا من كبار الكُتَّاب آنذاك، وعن صحف تنشر له فى مقتبل حياته الفكرية، ومن هنا كان تركيزه على تأثير كل منهما فى تطوره العقلى والوجدانى وفتحهما آفاق الكتابة والنشر أمامه. ويرجع ذلك بطبيعة الحال – كما يقول الأستاذ رجاء النقاش(١٣) ـ إلى أن "طه حسين" كان أديباً مفكراً بالدرجة الأولى، وأنه عندما دخل ميدان السياسة، لم ينسَ أبداً أنه دخل هذا الميدان الصاخب العنيف كأديب مفكر، ولم يدخله كسياسى محترف. ورغم هذه العلاقات، فإن القوى السياسية التى ارتبط بها "طه حسين" لم تستطع أن تحوله إلى

سياسى حزبى بالمعنى المقصود، وإنما هو الذى استطاع أن يفيد منها لخدمة أفكاره وقضاياه وتحقيق طموحاته.

وبرغم اقتراب "طه حسين" فترة من شبابه بالحزب الوطنى (١٩٠٩ – ١٩١٢) بتأثير جاويش ولفرص النشر التى أتاحها له، فإن "طه حسين" بحكم تطلعاته الفكرية كان أميل إلى حزب الأمة على وجه العموم، ليس باعتباره حزبًا سياسيًّا، وإنما لكونه يضم لفيفًا من الكُتَّاب والمثقفين، اتسعت آفاقهم لقناعاته وتوجهاته الفكرية، فجذبه المناخ الفكرى لا الحزب.. فقد كان هذا المناخ المبشر بالأفكار التحررية والساعى نحو تجديد الفكر السياسى والاجتماعى هو المجال المحبب للكاتب الشاب، ومن هنا ازداد ارتباطه به وخصوصًا بعد عام (١٩١٢)، وقد صار طه أكثر نضجًا وصاحب قلم ورأى، لذلك راح يسهم بكتاباته فى هذا المناخ عن قناعة تامة، دونما ضرورة لأن يحبس نفسه فى الإطار التنظيمى أو السلوك السياسى لحزب الأمة.

ـ ٢ ـ

سافر "طه حسين" إلى فرنسا عام (١٩١٤) ليدرس للدكتوراه، ومكث فيها سنوات الحرب العظمى الأولى حتى فرغ من رسالته عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» فى جامعة السوربون عام (١٩١٨) والملاحظ أن اختياره لهذا الموضوع لم يكن يخلو من مضمون سياسى يتعلق بالفكر فى بعض جوانبه، ويبدو هذا واضحًا عندما عكف على تحليل الظواهر الاجتماعية، وعرض أفكار ابن خلدون ومذهبه السياسى والاجتماعى، فمثلاً ناقشه طه حسين فيما ذهب إليه من أن العرب ليسوا أهلاً لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر دينى قوى، وأنهم يجهلون سياسة الملك.. إلخ، وقد فنَّد "طه حسين" هذه الآراء فى صلب رسالته، ودحضها بشكل علمى يلفت النظر إلى ثقافته وقدرته على النقد[١٤].

وعندما يصل سعد زغلول ورفاقه من أعضاء الوفد المصرى إلى باريس فى مايو (١٩١٩) لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح، كان طه حسين لايزال هناك، ورأى واجبًا عليه أن يذهب إلى حيث يقيم الوفد وزعيمه لتحيته، ففعل دون حماسة، حيث لقى سعداً، كما لقى لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى، ورأى طه أن عليه أن يشكر سعداً لموقف قديم وقفه إلى جانبه فى الجمعية التشريعية عام (١٩١٤)، حين تقدم أحد أعضائها يقترح أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة؛ لأنها أخرجت ملحداً هو صاحب، «ذكرى أبى العلاء»، لكن سعد زغلول استطاع إقناعه بسحب هذا الاقتراح، ولم يتعرض لـ "طه حسين" بسوء، فرأى فى هذا اللقاء فرصة لشكر سعد على هذا الموقف والثناء على جهده فى خدمة مصر وتضحيته فى سبيل الوطن والشعب، وعندما أجابه سعد بأن جهودهم لم تغنِ عن الوطن شيئًا بعدما أغلقت كل الأبواب دونهم وحيل بينهم وبين لقاء ممثلى دول مؤتمر الصلح، رد طه بأن هذه الجهود توقظ الشعب وتنبهه لحقه وتدفعه إلى المطالبة به والجهاد فى سبيله.

وربما كان سبب عدم حماسة "طه حسين" للقاء سعد راجع لتأثير الشيخ جاويش وعدائه القديم لسعد، وعندما لقى طه سعداً فى باريس مرة أخرى خلال زيارته الثانية بعد نحو عام، لقيه سعد زغلول بشىء من الفتور، الذى عرف طه سببه وهو أن جماعة من تلاميذ الإمام محمد عبده أحيوا ذكرى وفاته فى الجامعة، وعندما خطب طه فى الحفل زعم أن مصر مدينة فى يقظتها لثلاثة رجال هم محمد عبده الذى أحيا الحرية العقلية، ومصطفى كامل الذى أذكى جذوة الحرية السياسية، وقاسم أمين الذى أحيا الحرية الاجتماعية، وعندما قرأ سعد زغلول هذا الحديث وجد على طه؛ لأنه لم يذكره بين هؤلاء العظماء.. وعمومًا ظلت علاقة طه بسعد على هذا النحو من الفتور بل والنفور. حتى كان انقسام الأمة بين مؤيدين لسعد ومؤيدين لعدلى يكن بشأن من يمثل مصر فى المفاوضات مع بريطانيا، الوزارة أم الوفد، فهاجم "طه حسين" الوفد وسعد زغلول، وكان ـ حسب تعبيره ـ «أطول الكُتَّاب لسانًا وأجرأهم قلمًا فى مهاجمة سعد زغلول قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه»[١٥].

لقد كان "طه حسين" ممن يؤمنون بدور العلماء في سياسة الدولة وشئون الحكم، وقد ذكر أنه عندما كان يدرس في باريس كان يتابع أنباء الثورة في وطنه، ويعتني بذلك عناية لاتقل عن عنايته بالدرس والتحصيل، وقد تأثر بدروس أستاذه (دوركايم) عن الحكم الصالح المنتج الذي يحقق العدل ويكفل رقي الشعب، والذي يجب أن تصير أموره إلى العلماء.. وليس غريبًا أن يعود طه إلى وطنه مؤمنًا بالثورة التي نشبت فيه، ومؤمنًا في الوقت نفسه بأن عبئًا خطيرًا من أعبائها سيقع على عاتق العلماء والمثقفين، لقد كان يقدر أن الساسة الذين سيقودون الثورة سيختلفون في يوم قريب أو بعيد، ويعتقد أن المفكرين والعلماء سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون.. وكان مستيقنًا أنهم لن ينحازوا إلى حزب من الأحزاب، ولن يكونوا كعامة الناس الذين يقادون ولايقودون، ولم يكن يقدِّر أنه سيشارك في السياسة من قرب أو بعد.. على أنه لم يكد ينفق في مصر شهورًا حتى تبيَّن أنه كان واهمًا، وأن العلماء والمفكرين ناسٌ من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون فيها، بل قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات التي يذهبون مذهبها [١٦].

وهاقد وجد "طه حسين" نفسه ضمن هؤلاء الناس، ينحاز لما ينحاز إليه هؤلاء أو أولئك، فلمَّا وقع الخلاف الشهير بين الوفد ووزارة عدلي يكن عام (١٩٢١) بشأن من يجري المفاوضات، ورغم أنهم كانوا يؤمنون جميعًا بحق مصر في الاستقلال، كانوا يختلفون في مظاهر المفاوضة؛ لأن الذي سيجريها سيتحقق استقلال مصر على يديه إن قُدِّر له النجاح، وانقسم الناس إلى فريقين، فريق يقول لا رئيس إلا سعدًا، وفريق يقول إنما المفاوضات لمن ولي الحكم.. ورأى "طه حسين" نفسه مع هذا الفريق الأخير، يميل إلى الوزارة وإلى تولي عدلي المفاوضة «وإذا هو ينفق أقصى ما يملك من العنف في مهاجمة الوفديين، وعندما يعود عدلي من المفاوضات مخفقًا، يذهب طه ليستقبله مع المستقبلين هاتفًا: ليحيى عدلي..»[١٧]. وهكذا صار "طه حسين" عدليًا مع العدليين!.

وبعد عودة "طه حسين" إلى مصر، جاءت إليها لجنة ملنر فى ديسمبر (١٩١٩)، وسرت فى أنحاء البلاد حركة لمقاطعتها كما هو معروف، فيتحدث طه إلى أستاذه لطفى السيد معبراً عن اغتباطه بيقظة المصريين وتصميمهم على الحصول على الاستقلال، فيحدثه لطفى عن ضرورة أن يفكر المصريون فى طبيعة الحكم الوطنى بعد الاستقلال وأنه لا بد أن يحكم الشعب نفسه بنفسه حكمًا ديمقراطيًا، حينئذٍ يمضى طه، وقد عين مدرسًا بالجامعة المصرية، واختار أن يدرس للطلاب دروس التاريخ اليونانى والرومانى، فأخذ يعلمهم نظم الديمقراطية الأثينية من كتاب (أرسطوطاليس)، وكانت فكرته أن تدريس التاريخ السياسى والدستورى عند القدماء هى بداية لدراسة أصول النهضة المعاصرة، إذن فهذا الدرس الأكاديمى الذى اختار الأستاذ الشاب أن يلقيه على طلابه فى العام الدراسى (١٩١٩-١٩٢٠) لم يكن منبتّ الصلة بما يجرى خارج أسوار الجامعة، بل كان شديد الاتصال بما يشغل باله وبال غيره من المفكرين، أى بطبيعة الحياة التى ستحياها مصر بعد الاستقلال[١٨]، ثم لم يلبث "طه حسين" أن نشر ترجمة لكتاب «نظام الأثينيين» لأرسطو طاليس عام (١٩٢١)، مما يعد مساهمة علمية فى مرحلة كانت مصر تسعى فيها لإقامة حياة دستورية سليمة، وبعد ذلك بنحو عام تألفت اللجنة التى عكفت على إعداد الدستور الذى صدر عام (١٩٢٣).

وعندما تفاقم الخلاف بين سعد وعدلى وازداد انقسام الأمة وتحزّبت البلاد، وكانت الأغلبية خلف سعد، وخرجت الجماهير تهتف «لا زعيم إلا سعداً» خرج "طه حسين" عما كان يأخذ نفسه به، ويرى أن يأخذ العلماء أنفسهم به من الابتعاد عن الانحياز للأحزاب، وراح يكتب أن القول بأن "لا زعيم إلا فلانًا" أمر مرفوض؛ لأن فيه مصادرة لأصحاب الآراء الأخرى، ورغم أن طه كان يدرك أنه بهذا الموقف سيجر سخط الجماهير عليه، لكنه كان يكره الطغيان فى شتى صوره حتى ولو كان طغيان الشعوب..
وقد وصف صراع العدليين مع السعديين معبراً عن رأيه فى مقال له بالأهرام فى يونيو (١٩٢١)، ذكر فيه أن ما يقع فى مصر من اضطراب ومظاهرات ليس إلا حربًا بين

مبدأين: أحدهما مبدأ قيادة الجمهور إلى منفعته المحققة من طريق النظام والقانون، أى من طريق الديمقراطية المعتدلة المنظمة، والآخر الاستئثار بما للجمهور من قوة وسلطان، والاستبداد باسم هذا الجمهور وسلوك الطرق المعقولة وغير المعقولة إلى إكراه الخصوم على الإذعان(١٩).

ولكن "طه حسين" يعلو على روح التحزب عندما تكون هناك مسألة وطنية؛ فعلى الرغم من معاداة ومهاجمة السعديين لوزارة عبدالخالق ثروت (مارس ـ نوفمبر١٩٢٢) التى يؤيدها أنصار عدلى، ويرى طه أن عدداً من رجال الوفد يقدّمون للمحاكمة أمام محكمة إنجليزية ويرفضون الدفاع عن أنفسهم أمامها، يثور طه على أصدقائه العدليين، ويقول: إننى لست مع الوفد، ولكننى لا أستطيع أن أرى الناس يقفون أمام محكمة يرأسها الأجانب، ولا أستطيع أن أبقى غير مكترث إزاء هذه الإهانة الكبيرة التى توجه إلى كرامتنا ويصف العدليين بالجبن، ويذكر «إننى عدلى، بل أكثر عدلية من هؤلاء الناس، ولكن هل المسألة مسألة عدلى أو سعدى؟ أوليست هى قضية مصر؟» ويذهب إلى ثروت محتجاً على موقف وزارته إزاء ما يحدث لرجال الوفد.. ويبدو أن ذلك كله قد دفع "طه حسين" إلى أزمة نفسية حادة تجاه مايراه، وقد عبر عن حالته فى حديثه لزوجه حين ذكر أننا «بحاجة إلى حكومة حازمة قاسية ومنظمة، هذه الحكومة ليست حكومة ثروت ولا هى حكومة الإنجليز؛ فهل تمنحنا إياها الحياة الدستورية؟ إننى فى انتظار ذلك كى أخبرك بأننى سأتخلى عن السياسة، وأكرس نفسىَ لعملى كأستاذ وعالم تاركًا الميدان للثرثاريين والوصوليين».

غير أن طه لا يستطيع أن يتخلى عن السياسة، فقد شكلت لجنة لإعداد الدستور، وعندما يصل إلى علمه محاولات القصر التدخل فى عملها للحد من حرية المعتقدات والانتقاص من سلطة الأمة يجد طه نفسه يهاجم القصر، ليس دفاعًا عن الوزارة، وإنما انتصاراً لسلطة الأمة. وعندما أدانت المحكمة أعضاء الوفد استاء طه استياءً شديداً، وذهب لمقابلة رئيس الوزراء وذكر له أن الأحكام تعد إهانة لبلد يدعى الاستقلال، وأن

على الحكومة أن تحتج على ذلك على أقل تقدير، كذلك فكر طه أن يقوم بحملة يطلب فيها إلى لجنة الدستور (لجنة الثلاثين) أن تتخذ إجراءات لصالح المعتقلين، لكنه علم أن الاعتقال لن يدوم طويلاً؛ إذ ما إن يجتمع البرلمان حتى يلغى الأحكام العرفية ويفرج عنهم..[٢٠].

ولما كان "طه حسين" مؤمنًا باتجاه العدليين وأسلوبهم فى العمل الوطنى، كان طبيعيًا أن يؤيد تصريح (٢٨ فبراير ١٩٢٢)، الذى صرحت فيه بريطانيا بإنهاء حمايتها على مصر، وباستقلالها استقلالاً متحفظًا عليه بتحفظات أربع، مما اعتبر فى نظر "طه حسين" خطوة تفتح بابًا لإتمام الاستقلال، وقد رأى أن هذا التصريح رد إلى العدليين – أنصار وزارة ثروت الذى صدر التصريح فى عهده – شيئًا من ثقة وكثيرًا من أمل «فقد ظفر ثروت باشا ببعض الحق، وشىء خير من لاشىء»، ورأى أن التصريح أتاح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها، وأتيح للشعب أن يكون له دستور، وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة، وقد أصبح السلطان ملكًا، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التى كان الإنجليز قد ألغوها عندما أعلنوا الحماية عام (١٩١٤)، لقد رأى "طه حسين" «أن ذلك كله يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئًا من حقائقه مهما يكن قليلاً فإن له مابعده»، ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح، ويرونه شرًا ونكرًا، ويرون قبوله جريمة وإثمًا، ويمضى "طه حسين" فى تأييد ثروت والعدليين، والخلاف تزداد ناره اضطرامًا وهو « ماضٍ مع أصحابه فى إنكاء هذه النار، لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون، وإنما هو مقتنع بأن شيئًا خير من لا شىء، وبأن هذه المظاهر ستصبح فى يوم من الأيام حقائقَ إن عرف المصريون كيف يحزِمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم ويحسنون انتهاز الفرص»[٢١].

المهم أنه فى أعقاب صدور التصريح شَرَع ثروت باشا يعد العدة لوضع دستور لمصر فى عهدها الجديد، فألَّف لجنة من ثلاثين عضوًا أغلبهم من فقهاء القانون، شرعت

فى عملها، وأخذت موضوعها بجدية صادقة، لتضع لمصر دستوراً ديمقراطيًا، يخوِّل الشعب من الحقوق ما لا يريد القصر أن ينزل عنه، وإذا بالسلطان يمكر بالوزارة واللجنة، فيظهر الخلاف بين الوزارة والقصر بشأن ديمقراطية الدستور، و"طه حسين" ماضٍ فى تأييده لدستور ديمقراطى غير ملقٍ بالاً إلى القصر ولا إلى صاحب القصر «الذى أحسن لقاءه ومنحه كثيراً من العطف والبر والتشجيع»، وعندما ينبئه ثروت باشا بأن القصر ساخط عليه، وأنه يحاول إصلاح الأمر، فيرد عليه "طه حسين" بأن عليه أن يصلح الأمر بين الوزارة والقصر إن وجد إلى ذلك سبيلاً[٢٢]، وبطبيعة الحال لم يستطع ثروت باشا إصلاح الأمر كله مما أدى به إلى تقديم استقالة وزارته.

ويتم إعلان الدستور ليصدر فى (١٩ أبريل ١٩٢٣) كما أعدته اللجنة وبعد أن جرت به بعض التعديلات، ويختفى من نصوصه لقب «ملك مصر والسودان»، فيكتب "طه حسين" فى (٢٥ أبريل) منددًا بهذا الإهمال وبهذه السهولة التى أظهرتها الوزارة المصرية فى إسقاط هذا اللقب، المهم أن "طه حسين" لم يستطع أن يبتعد عن السياسة، بل على العكس وجد نفسه متورطًا فيها غارقًا حتى أذنيه، لقد كانت مصر فى مرحلة تحول مهمة لم يكن بوسعه إلا أن يدلى بدلوه فيها، وقد رآه السعديون ـ حسب قوله ـ مارقا مالأ المارقين، ورآه القصر كافراً بالنعمة جاحداً للجميل. بينما يرى أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن مايكون.. لقد رأى أنه لم يستطع أن يبتعد عن السياسة والسياسيين، وأن يفرغ للعلم والتعليم، ذلك أن الظروف التى أحاطت بوطنه جعلته يدرك أن الحيدة بالنسبه إليه إثم لايغتفر، بل رآها جبنًا ونفاقًا، لذلك كان لا بد أن يغرق فى بحر السياسة، وأن يحترق بنارها، وأن يحتمل تبعات ذلك « وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه نارها ؟»[٢٣].

جمع أنصار عدلى يكن صفوفهم، وقرروا تأليف حزب سياسى فى (أكتوبر ١٩٢٢) هو «حزب الأحرار الدستوريين» ليخوض غمار الحياة السياسية ومصر تستقبل عهداً جديداً بالدستور الذى جعلها على أعتاب حياة برلمانية، كما أن المسألة الوطنية دخلت

فى طور جديد من التفاوض على أساس تصريح فبراير، وقد حرر لطفى السيد خطاب افتتاح الحزب الجديد؛ حيث ضمنه أسس سياسة الحزب ومبادئه، واتفق على أن يتولى رئاسة تحرير صحيفته الدكتور محمد حسين هيكل، ويلاحظ أن الحزب الذى ترأسه عدلى يكن كان يضم صفوة من أصدقائه، طه حسين على رأسهم، إلى جانب لطفى السيد وهيكل، وحسن عبدالرازق وعبدالعزيز فهمى، فضلاً عن محمد محمود وحافظ عفيفى. ومن المعروف أن عبدالخالق ثروت رئيس الوزارة يعد من معسكر هذه الجماعة التى ألفت الحزب، ومن أصدق أصدقائها، وقد بذلت وزارته جهوداً كبيرة فى تشكيل الحزب وتأسيس صحيفته، وعلى الرغم من ذلك لم ينضم رسمياً للحزب، وإنما ظل أحد أصدقائه وكبار معاونيه، وظل اتجاهه السياسى هو اتجاه الأحرار الدستوريين، وإن فضل أن ينأى بنفسه عن قيود الحزبية محتفظاً لها بحرية الحركة السياسية[٢٤].

وكان من الطبيعى أن يقبل "طه حسين" أن يشارك صفوة مثقفى الحزب فى تحرير صحيفته «السياسة»، فكان يوالى الصحيفة بمقالاته الأدبية، ثم انفرد بالإشراف على صفحتها الأدبية منذ خريف عام (١٩٢٣)، فتولى مسئولية تحريرها، وليس مجرد الكتابة فيها كما كان يفعل من قبل، فكان يخصص أوقات الصباح للجامعة، ويخصص فترة بعد الظهر لأعمال الصحيفة، التى صارت فى زمانها من أقوى وأرقى الصحف المصرية؛ حيث ضمت صفوة من رجال الفكر والسياسة يندر أن تجتمع فى صحيفة واحدة، وقد اختصها "طه حسين" بمقالة كل أربعاء يعالج فيها أدب الأمويين والعباسيين، ويحرص فى مقالاته على أن يتناول الحياة السياسية والاجتماعية للعصر الذى يكتب عنه.

غير أن "طه حسين" ما لبث أن انخرط فى سياسة الجريدة، وصار يحرر مقالاتها الرئيسية أحياناً، عندما كان يتولى رئاسة تحريرها فى فترات غياب الدكتور هيكل، ويروى أحد سكرتيريه (البير برزان) أن حافظ عفيفى الذى كان همزة الوصل بين الحزب والصحيفة كان يجتمع بهما – هيكل وطه – لينبئهما بموقف الحزب وسياسته،

فيتولى "طه حسين" تحرير الموضوع الذى تلزمه الشدة والعنف والتهكم، ومعظم هذه الموضوعات كان موجهًا إلى سعد زغلول.. أما الموضوع الذى يتطلب نعومة وهدوءًا فكان يُعطى للدكتور هيكل(٢٥).

وهكذا يبدو أمرًا طبيعيًا أن يرتبط "طه حسين" بالأحرار الدستوريين؛ فقد ازدادت صلته بلطفى السيد توثقًا بعد عودته من باريس، كما قويت صلته بجماعة المثقفين الذين كانوا أعضاء فى حزب الأمة القديم، وارتبطوا بالحزب الجديد؛ حيث كان يجد فى ظلهم بيئة ثقافية وفكرية متفتحة وقادرة على حماية أفكاره وآرائه الجديدة التى عاد بها من باريس، وهى بيئة لا تتوفر لدى الوفديين وحزبهم الشعبى، الذى كان عليه إرضاء قاعدته الجماهيرية العريضة بالدرجة الأولى(٢٦)، وخصوصًا أن علاقته بسعد زغلول لم تكن طيبة.. ناهيك عن أن "طه حسين" كان مقتنعًا بأسلوب عدلى يكن ورفاقه فى معالجة القضية الوطنية، وقد رأينا أنه مال إلى اتجاهه السياسى منذ انقسمت الأمة بين مؤيدين له ومؤيدين لسعد زغلول. ومن ثم يبدو "طه حسين" متسقًا مع نفسه عندما يؤيد العدليين وهم يؤلفون حزبًا سياسيًا، ويقبل دعوتهم للمشاركة فى تحرير صحيفتهم مع صفوة المثقفين والكُتَّاب الذين يأنس إليهم ويأمل فى صحبتهم خيرًا..

وإلى جانب ما سبق فقد لعبت العلاقات الشخصية دورها فى ميل "طه حسين" إلى الأحرار الدستوريين خلال هذه المرحلة من مراحل تطوره الفكرى، ومن مراحل الحزب نفسه، وخصوصًا أن السياسة والحزبية فى مصر آنئذ كانت ترتبط بالأشخاص أكثر من ارتباطها بالمبادئ والمؤسسات، ودارسو "طه حسين" يعلمون الكثير عن علاقته بلطفى السيد وصداقته للدكتور هيكل، وصلاته القوية بأسرة عبدالرازق التى دعمته وشملته برعايتها وحدبها، وكانت من عمد الأحرار الدستوريين، وعلاقته بـ(عبدالعزيز فهمى) وأسرته كانت موضع تقدير وإشادة دائمة منه ومن زوجه، أما ثروت باشا فقد تحدث "طه حسين" كثيرًا عن مودته ومعاونته له قبيل بعثته وبعدها، فذكر أنه كان يركن إليه ويلوذ به ويستشيره فى كل شىء، وكان إهداء طه كتابه «فى الشعر الجاهلى» إليه تعبيرًا عن اعترافه بفضله وإجلاله له(٢٧).

انخرط المحرر الأدبي لصحيفة «السياسة» في السياسة حتى أذنيه، وعلى مذهب الأحرار الدستوريين، على الرغم من أنه لم ينضم للحزب رسمياً، وراح يساهم في حملتهم على الوفد والوفديين بقسط وافر، وخصوصاً بعد أن اغتيل عضوان من أعضاء مجلس إدارة الحزب (حسن عبدالرازق وإسماعيل زهدي) وهما خارجان من الاجتماع، وذلك في (نوفمبر١٩٢٢)، بواسطة إحدى خلايا العمل السري التي كانت ترتبط ببعض قيادات الوفد، عندئذ شنت «السياسة» حملة ضارية على الوفد، وكتب "طه حسين" عدة مقالات اتهم فيها الوفد بتحريض الشباب القتلة، وتساءل: هل هؤلاء مصريون؟[٢٨] وقد واصل "طه حسين" تبني سياسة الحزب في الهجوم على وزارتي توفيق نسيم (نوفمبر ١٩٢٢ – فبراير ١٩٢٣) ويحيى إبراهيم (مارس ١٩٢٣– يناير ١٩٢٤)، فعندما تتألف وزارة نسيم وما تكاد تعرف بميلها إلى الوفد حتى يعاديها الأحرار الدستوريون، ويشنُّون عليها حرباً لا هوادة فيها، ويطالبها "طه حسين" أن تعلن برنامجها الذي تُبين فيه آراءها السياسية، وخطتها لتحقيق هذه الآراء، وعندما كتب عن تواطؤها مع الوفد، وصف نسيم بأنه بمثابة وكيل عن سعد زغلول[٢٩].

وفي (يناير ١٩٢٤) جرت أول انتخابات برلمانية حرة في ظل دستور (١٩٢٣)، ففاز الوفد، خصم الأحرار الدستوريين، فوزاً ساحقاً، ودعي سعد زغلول لتشكيل الوزارة، وعندما صرَّح آنذاك أنه يريد أن يؤلف وزارة زغلولية اسماً ولحماً ودماً، انبرى "طه حسين"، الذي كان يضيق بطغيان سعد، يهاجم هذا التصريح وصاحبه هجوماً عنيفاً[٣٠]، وتتدفق مقالات "طه حسين" في «السياسة» خلال عام (١٩٢٤)، تهاجم «وزارة الشعب» وسياسة رئيسها سعد زغلول بعنف شديد، وكانت المقالات تُنشر بغير توقيع أو بتوقيع ساخط غاضب، حتى لجأ سعد زغلول إلى أن يطلب من النائب العام التحقيق مع صاحب المقالات بتهمة إهانة رئيس الوزراء، وبالفعل جرى التحقيق مع كتاب "السياسة"، وقد روى "طه حسين" أنه عندما استُدعي إلى النيابة للتحقيق معه أبى أن يجيب عن الأسئلة مما اضطرها إلى وقف التحقيق، وعندما استقالت وزارة سعد بعد

تداعيات حادث مصرع السردار، لم يكف "طه حسين" عن انتقاد الوزارة المستقيلة وملاحقتها بالمقالات الساخرة، فى غلو وإسراف، متهماً رئيسها بالغرور الذى دفعه فى نهاية المطاف إلى الهروب..[٣١].

وفى مطلع (١٩٢٥) تأسس «حزب الاتحاد» لتأييد سلطة الملك فؤاد بعد اشتداد خصومة الوفد معه، ولاحتواء المنشقين على الوفد داخل إطار الحزب الجديد. والمعروف أن حسن نشأت وكيل الديوان الملكى كان وراء تأليف هذا الحزب الذى عقدت رئاسته ليحيى إبراهيم، وصدرت له صحيفة تحمل اسم الحزب. وفى ظل هذه الظروف اتجه حزب الأحرار الدستوريين إلى التقارب مع حزب الاتحاد، بحجة التعاون لمقاومة طغيان الوفد وسعد زغلول، وأملاً فى كسب الانتخابات المقبلة لصالح أنصاره. فى الوقت الذى كان فيه "طه حسين" قد بدأ عامًا دراسيًا جديداً، بعد تعيينه أستاذًا للأدب العربى فى الجامعة المصرية، بعد أن آلت إليه وزارة المعارف وصارت «حكومية»؛ حيث جاء فى العقد المبرم بين الجامعة والوزارة نصًا يفيد هذا التعيين ويلزم الوزارة به. ولذلك شرع "طه حسين" يعد محاضراته وأبحاثه ليمارس عمله الجامعى منصرفًا إلى ذلك تماماً، حتى إن أصدقاءه فى صحيفة «السياسة» عندما طلبوا منه أن يرشح نفسه فى الانتخابات التى ستجرى فى شهر (مارس ١٩٢٥)، اعتذر بانشغاله بدراساته وأبحاثه[٣٢].

وعندما جرت الانتخابات بالفعل فاز حزب الأحرار الدستوريين فى الانتخابات بنسبة هيأت له مشاركة حزب الحكومة والقصر فى الوزارة، التى دخلها رئيس الحزب عبدالعزيز فهمى الذى أعقب عدلى يكن، كما دخلها وزيران دستوريان آخران، غير أن الوفاق بين حزبى الوزارة ـ الاتحاد والأحرار ـ لم يدم أكثر من بضعة أشهر، فقد مزقته الخلافات، حتى جاءت الأزمة السياسية التى نتجت عن كتاب على عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم»، والتى ناصر فيها حزب الأحرار المؤلف وكتابه، الذى أسخط القصر لأنه جاء عقبة فى سبيل مطامعه فى الخلافة، بعد إلغائها فى تركيا، فكانت هذه الأزمة الأخيرة هى التى عجّلت بفض الوفاق وخروج الأحرار الدستوريين من الوزارة فى سبتمبر من العام نفسه[٣٣].

فماذا كان موقف الأستاذ المنشغل بدروسه ومؤلفاته فى الجامعة من مسلك هذا الحزب الصديق له والقريب إلى نفسه؟ بطبيعة الحال لم يستطع "طه حسين" أن يظل بمنأى عن هذه التطورات، بل إنه بحكم موقعه وعلاقاته مع رجالات الأحرار الدستوريين وصحيفتهم اضطر إلى تبنى سياستهم فيما يتعلق بالائتلاف مع حزب الاتحاد والتقارب نحو القصر، متعللاً بضرورة الاستمرار فى خصومة الوفد والتصدى لطغيان زعيمه، شجّعه على ذلك أنْ رأى أنَّ كثيرين من أعضاء هيئة الوفد قدَّموا استقالاتهم منها بحجة أن الوفد غير موالٍ للعرش، بل أكثر من ذلك لم يأنف "طه حسين" أن يكتب بعض مقالاته فى صحيفة «الاتحاد» خلال فترة ائتلاف الأحرار مع حزبها، وكانت مقالاته استمراراً لسياسته فى مهاجمة الوفد والوفديين، وبعبارات وعناوين مثيرة، تضمنت هجومًا حادًا وعنيفًا على سعد زغلول، وعلى الرغم من أن "طه حسين" لم يوقّع على هذه المقالات باسمه، إلا أن عباراتها وأسلوبها يدل عليه[٣٤]، وهكذا يظل "طه حسين" حتى بداية عام (١٩٢٦) وفيًا لسياسة الأحرار الدستوريين، برغم اتجاههم الجديد نحو القصر، متورطًا فى تقلباتهم السياسية، وعلى الرغم من أن اهتمامه بعمله الجامعى قد استحوذ على معظم جهوده.

- ٣ -

على الرغم من أن "طه حسين" قد أولى جهده الأكبر لعمله فى الجامعة المصرية، تدريسًا وبحثًا وتأليفًا، فإنه لم ينقطع تمامًا عن كتابة المقالات السياسية، وإن كانت قليلة، وخصوصًا أن حزب أصدقائه، حزب الأحرار الدستوريين، قد بدأ يغير من سياسته تجاه الوفد، ويتقارب معه، بعد أن رأى نتائج تجربته مع حزب الاتحاد والقصر، وكان تقارب الأحرار الدستوريين مع الوفد، وللسياسة طبيعتها ومتطلباتها، قد مهد لتأليف وزارات سُميت بوزارات الائتلاف الوفدية، بعد فشل تجربة الوزارات الملكية التى أعقبت الوزارة الشعبية الأولى. وقد استمر عهد الائتلاف الجديد بين الوفد والدستوريين منذ

(يونيو ١٩٢٦) وحتى (يونيو ١٩٢٨)، توالى فيه على رئاسة الوزارة كل من عدلى يكن، وعبدالخالق ثروت ثم مصطفى النحاس، كما هو معروف. ويلاحظ أن الرئيسين الأولين كانا، مثل "طه حسين"، من معسكر الدستوريين، وكان عدلى الرئيس الأول للحزب قد استقال منه فى (يناير ١٩٢٤) معتزماً اعتزال السياسة، لكنه فى الواقع اعتزل الحزب، ولم يعتزل السياسة، وظل دستورياً فى تفكيره ومواقفه وعلاقاته..

المهم، ألقى الأستاذ الشاب محاضراته على طلابه فى الجامعة فى بداية عام (١٩٢٦)، فى موضوع من أحب الموضوعات إلى نفسه، وهو موضوع الشعر الجاهلى، الذى أخضعه لدراسة متأنية وتأمل طويل، وجعل يلقى نتائج دراسته له على طلابه فى الجامعة أولاً بأول، بعد أن رأى وجوب درس آداب وتاريخ العرب استناداً إلى منهج علمى مستمد من مذهب (ديكارت)، الذى يبدأ بالشك ليتخذه طريقاً إلى اليقين، فوصل الأستاذ تدريجياً إلى نتيجة مثيرة مؤداها أن ما أضيف إلى العرب قبل الإسلام من شعر، لم يكن لهم، وإنما نسب إليهم، فكان منتحلاً، وخطورة تركيز "طه حسين" على تطبيق هذا المنهج لغربلة الروايات والنصوص الأدبية، سيقوده إلى طرح إمكانية نقد النصوص الدينية من وجهة نظر البحث العلمى، وعلى الرغم من أن قضية الانتحال فى الشعر لم تكن جديدة تماماً، فقد طرقها الأقدمون، كابن سلام وغيره، ممن اطَّلعَ "طه حسين" على كتاباتهم، كما طرقها المستشرقون الغربيون أيضاً، ولذلك لم يلفت الموضوع نظر أحد، فالمسألة لا تعدو أن أستاذاً جامعياً يدرِّس لطلابه مقرراً دراسياً بمنهج علمى.. ولكن لم يكد "طه حسين" ينشر خلاصة دراسته فى كتاب عنوانه « فى الشعر الجاهلى» فى (أبريل ١٩٢٦) حتى قامت الدنيا ولم تقعد.

وليس من شأننا هنا أن نعالج القضية من جوانبها الأدبية أو الفكرية أو الدينية. فقد أشبعت درساً وبحثاً، ولكننا سنعالج إطارها السياسى وتداعياتها السياسية، وهو ما يتصل بموضوع دراستنا، فـ "طه حسين" ليس أستاذاً عادياً، كما أنه منتمى لحزب سياسى وله ولحزبه مواقف من القصر، ومن حزب الأغلبية وزعيمه سعد زغلول، كما

أن له مواقف وتوجهات فكرية تخالف الأزهر وقطاعات من المثقفين المحافظين والسلفيين، والقضية في جوهرها تتصل بتحرر الفكر، وتتصل بالدين من قريب.. لذلك بدأت القضية تتحول إلى معركة تتخطى حدودها الفكرية، كمعركة علمية أو ثقافية، لتدخلها السياسة من أوسع الأبواب، وليدفع "طه حسين" ثمن مواقفه السياسية السابقة، وهو ما لم يغب عن تقديراته وتوقعاته، منذ ارتباطه بصفوة المثقفين والمفكرين في حزب الأحرار الدستوريين.

وقد دارت المعركة في صيف (١٩٢٦) على صفحات الجرائد والمجلات؛ فكتب مصطفى صادق الرافعي ومحمد رشيد رضا، وكانا يتأذيان من نقد "طه حسين" لكتاباتهما كثيراً، يتهمانه في تفكيره وجرأته على الدين، وجعلا يستعديان الحكومة ورجال القانون وعلماء الدين على الكتاب ومؤلفه، وكان "طه حسين" يرد عليهما وعلى غيرهما في صحيفة "السياسة"، مدافعاً عن الكتاب وعن منهجه، ومهاجماً جمود الشيوخ الذين ذكر أنهم يتسلطون على الحياة العقلية والعلمية والسياسية فيفسدونها جميعاً، ونادى بضرورة أن نعصم حياة مصر الراقية من جمودهم..»[٣٥].

وعموماً كان اتهام "طه حسين" بأنه يكذّب القرآن الكريم، وأنه يطعن على النبي ﷺ نسبه الشريف، قد انتقل بالقضية الفكرية إلى ساحة الرأى العام الذى اندفع وراء من أخذوا بظاهرها، فقام طلاب الأزهر بمظاهرة توجهت إلى مجلس النواب، تهتف بسقوط "طه حسين"، الأمر الذى جعل سعد زغلول رئيس المجلس آنئذ يقف فيهم خطيباً مهدئاً؛ حيث قال «إن مسألة كهذه لايمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها، هَبُوا أن رجلاً مجنوناً يهذى فى الطريق؛ فهل يضير العقلاء شيء من ذلك، إن هذا الدين متين، وليس الذى شك فيه زعيماً ولا إماماً حتى نخشى من شكّه على العامة، فليشك ماشاء، وماذا علينا إذا لم تفهم البقر؟".[٣٦]

والحاصل أن تصعيد رجال الدين للأزمة استمر بعد توالى إرسالهم برقيات إلى الملك فؤاد يستصرخونه، ويطالبون بمصادرة الكتاب وإبعاد "طه حسين" عن الجامعة

ومحاكمته، ويـلاحـظ أن كتـاب "طـه حـسين" ظهر في أعقاب أزمة أثارها نشر على عبدالرزاق كتابه المعروف «الإسلام وأصول الحكم» الذى أسخط الملك، وجاء عقبة في طريق مطامعه في الخلافة، وأثار ثائرة رجال الدين والمحافظين.. وفي هذه الأزمة الجديدة ذهب وفد من رجال الدين إلى قصر عابدين، يتقدمهم الإمام الأكبر، للاحتجاج على الكتاب، بعد أن قدموا بلاغًا للنائب العام.. كل ذلك جعل "طه حسين" يدرك خطورة الموقف، بعد أن اتهم في دينه من أعلى سلطة دينية في البلاد، وثار الرأى العام ضده، لذلك قرر أن يميل للعاصفة لتمر بسلام.. وأرسل خطابًا إلى مدير الجامعة لطفى السيد في (٢٧ مايو) أعلن فيه أنه قرر وضع النسخ المتبقية من الكتاب تحت تصرف الجامعة، ثم أعقبه بخطاب آخر أعلن فيه براءته مما نسب إليه وأثبت فيه إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأنكر أن دروسه في الجامعة قد تعرضت للديانات، وأنه لم يتعمد إهانة الدين، ثم طلب إلى إدارة الجامعة قبول استقالته. غير أن الجامعة ردت على ذلك ببيان أعلنت فيه عدم قبولها للاستقالة، وكذبت فيه ما نسب إلى "طه حسين"، وذكرت أنه ليس من حق أية جهة أن تتدخل في شئون الجامعة احترامًا لاستقلالها.. والمعروف أن صحيفة «السياسة» وقفت مع "طه حسين" مدافعة عن حرية البحث العلمي وحرية الرأى حتى ولو كان صاحبه مخطئًا..(٢٧).

لقد خشى "طه حسين" وأصدقاؤه من كبار رجالات مصر السياسيين والمفكرين أن تنال هذه الثورة من الجامعة، ولم يمضِ على إلحاقها بالحكومة إلا عامًا واحدًا، خصوصًا وقد راجت شائعات بشأن إلغاء قانون الجامعة، وبدأ مديرها لطفى السيد يتردد على سعد زغلول محاولاً رأب الصدع الذى يهدد هذه المؤسسة الوليدة، كما طلب عبدالخالق ثروت، عضو مجلس إدارة الجامعة، إلى "طه حسين" أن يثبت للعاصفة حتى تمر بسلام، وأن يكف عن الرد على خصومه احتفاظًا بكرامة أستاذ الجامعة وكرامة العلم الذى يمثله، وحتى لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان والرأى العام، لذلك لم ير "طه حسين" بُدًا من أن يسكت على مضض..(٣٨).

وكان من الطبيعى أن تنتقل الأزمة إلى مجلس النواب، ومن المهم تذكر أن رئيسه كان سعد زغلول زعيم الأغلبية الوفدية التى تحالفت مع الأحرار الدستوريين، وتركت لرئيسهم السابق عدلى يكن رئاسة الوزارة، فكان ثمة ائتلاف بين الحزبين اقتضته ظروف السياسة، تناسى فيه زعيم الوفد خصومة عدلى ورفاقه، ولم ينسَ كتابات "طه حسين" ضده منذ عام (١٩٢١)، كما لم ينسَ أنه زعيم الجماهير التى ثارت ضد "طه حسين" وكتابه.. المهم انتقلت الأزمة من الصحف إلى البرلمان، حين أصر أحد النواب (الشيخ القاياتى) فى أول سبتمبر (١٩٢٦) على استجواب رئيس الوزراء عدلى يكن بشأن الأزمة، لكن مساعٍ بُذِلت لحمله على الاكتفاء بتقديم سؤال يرد عليه رئيس الوزارة كتابه وينتهى الأمر، ولما لم يرد عدلى تقدم عضو آخر وهو عبدالحميد البنان باستجواب جديد ردد فيه نفس الاتهامات التى تناولتها الصحف من أن الكتاب تضمن طعنًا صريحًا فى الدين، وأن تصرف صاحبه كان مخالفًا للذوق باعتباره مدرسًا فى الجامعة المصرية التى هى معهد أميرى يعيش من أموال الحكومة الممثلة للأمة، وأنه يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التى دينها الإسلام.. إلخ، وطلب البنان من المجلس تكليف الحكومة بمصادرة وإعدام الكتاب، وتكليف النيابة العمومية برفع الدعوى على "طه حسين" لطعنه فى دين الدولة، وإلغاء وظيفته من الجامعة المصرية.. وقد ندد أحد النواب كذلك بشراء الجامعة لبقية نسخ الكتاب للتخلّص منه، معتبراً أنه لايجوز للجامعة أن تدفع أجراً من مال الأمة مقابل ذلك.

رد وزير المعارف آنذاك على الشمسى باشا، الذى كان وفديًا رقيق الوفدية، مهدئًا النقاش، وأجاب صاحب الاستجواب بذكاء موضحًا أنه إذا كانت الوزارة تطمع فى أن تكون الجامعة معهداً طلقًا للبحث العلمى الصحيح، فإنها لا ترضى أن تكون كراسى الأساتذة منابر تلقى فيها المطاعن على أى دين من الأديان، ولم يعدم "طه حسين" مدافعين عنه من الوفد نفسه، ممن آمنوا بحرية الفكر؛ فها هو كاتب الوفد الأول عباس العقاد يقف فى مجلس النواب مفنداً تقارير اللجان التى أشار إليها النائب والتى أدانت

الكتاب، وليوضح أن هذه اللجان لا تبلغ شأن "طه حسين" من المعرفة بالآداب العربية، وأن الجامعة لا يمكن أن تجد بسهولة رجلاً يقوم بتدريس الأدب العربى مثلما يقوم به صاحب الكتاب أو على درجة قريبة منه... إلخ[٣٩]. لقد تناسى العقاد حزبيته، وبرزت فيه روح الكاتب الحر دفاعًا عن الفكر ضد رجال الحكم والسياسة، بل وضد الأغلبية الوفدية من زملائه.

ونتيجة لاحتدام الأزمة واشتداد الخلاف بين عدلى رئيس الوزارة وسعد رئيس مجلس النواب ومعه الأغلبية الوفدية، اقترح الدكتور أحمد ماهر رفع الجلسة للاستراحة، ومضى سعد إلى حجرته لكن عدلى تبعه ومعه حسين رشدى، وبعد لقاء قصير أعلن بعده تأجيل مناقشة الموضوع فى المجلس لليوم التالى.. وعندما استؤنفت المناقشة أبدى عدلى يكن استياءه من مطالب الأغلبية الوفدية، وعلى رأسها محاكمة "طه حسين"، واعتبر أن أى قرار سوف يصدره المجلس بهذا الشأن سيكون بمثابة اعتراض على مسلك وزارته فى معالجة الأزمة، بعد أن رأت الاكتفاء بمصادرة الكتاب، مما يعنى عدم الثقة بها، وأن ذلك سيجعله يطرح مسألة الثقة فى وزارته على المجلس إذا ما أصر على موقفه من المسألة.. وعندما بدا من توتر الجو العام بالمجلس أن الأزمة توشك أن تطيح بالوزارة، وبالائتلاف، اختلى سعد زغلول بعدلى يكن بعض ساعة، واتفقا على احتواء الأزمة، ووصل الرئيسان إلى حلٍّ مؤداه أن يتقدم النائب صاحب الاستجواب بشكواه إلى النائب العام مباشرة إذا شاء، فتسقط التبعة عن الوزارة، وينفذ رأى الأمة بأن تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء.[٤٠]

وإزاء ضغط النواب وإثارة الموضوع من جديد من جانب الأزهر، واستمرار البلاغات ضد "طه حسين"، اضطر النائب العام إلى إجراء تحقيق مع طه حسين، وبعد أخذ ورد بين النائب العام وبينه فى وثيقة تاريخية بالغة الأهمية، انتهى النائب العام إلى أن غرض الأستاذ لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين، وأن العبارات التى أوردها إنما وردت فى سبيل البحث العلمى، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها، لذلك أمر بحفظ التحقيق إداريًا على اعتبار أن القصد الجنائى ليس متوفرًا..[٤١].

وإذا جاز لنا أن نبلور مواقف السياسيين والكُتاب من الأزمة بين مؤيد لـ "طه حسين" ومعارض له، سوف يبرز لنا فى المعسكر الأول عدلى يكن الذى وضع وزارته على كفه ورفض معاقبة الأستاذ على فكره، كما هبَّ عبدالخالق ثروت صديق الدستوريين وصديق طه، والذى أُهدى الكتاب إليه، حيث هدد بالاستقالة إذا أصيب طه بضرر، وكان وزيراً للخارجية وعضواً بمجلس إدارة الجامعة، كما لعب لطفى السيد أستاذه الروحى دوره فى الدفا ع عنه داخل وخارج الجامعة وباسمها، وباسم حرية الفكر وباعتباره دستوريًا (وإن كان قد انفصل رسميًا عن الحزب بحكم رئاسته للجامعة). ودافع عن "طه حسين" كذلك على الشمسى وزير المعارف الذى كان أقرب إلى الدستوريين منه إلى الوفد (رغم أنه كان وفديًا) دافع باسم الحكومة التى ينتمى إليها والجامعة التى تنضوى تحت إشراف وزارته، كما دافع عنه العقاد انتصاراً لحرية الرأى ولكرامة العلم والقلم فى مواجهة السلطة والديماجوجية.

أما الخصوم السياسيون فكانوا معظم نواب الوفد وكُتَّابه، وزعيمه سعد زغلول على رأسهم جميعًا بطبيعة الحال؛ فقد أثار نواب الوفد العاصفة داخل المجلس، إثارة غلبت عليها المعارضة السياسية لرئيس الوزارة خصم سعد القديم، برغم الائتلاف التكتيكى القائم بين الحزبين، كما غلبت عليها الرغبة فى إرضاء الجماهير المستثارة. أما صحف الوفد فحدِّث عن معارضتها ولا حرج؛ فقد واتتها الفرصة للبطش بمحرر السياسة القديم، الذى أرهق صحف الوفد نقداً وهجوماً، لذلك صعدت قيادة الوفد وصحفه الحملة وغذتها بكل عنف وقسوة، انتقامًا من "طه حسين" الذى كان أطول الكُتَّاب لسانًا وأجرأهم قلمًا فى مهاجمة زعيم الأمة ونقد سياسته قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه، ولم تكن الكتابات ردوداً علمية بقدر ما كانت هجوماً شخصيًا حاداً على الكتاب وصاحبه.

ولكن لما بدا أن الأزمة توشك أن تطيح بالوزارة والائتلاف جميعًا، وأن أنصار "طه-حسين" من زعماء الأحرار وقفوا يدافعون عنه بكل صلابة وقوة مهما كان الثمن، ولما

كانت الوزارة قد شكلت أغلبيتها الساحقة من الوفديين، برغم أن رئيسها مستقل، فإنه دستورى قديم، كما أنها كانت مؤيدة من الدستوريين بحكم الائتلاف، بدأت الأزمة تهدأ، وخصوصًا أن سعد زغلول كان يتبنى آنئذ فكرة اندماج الأحزاب المصرية وتوحيدها (ودرج على أن يسمى هذه الوزارة وزارة اندمًاج) فى حزبٍ واحدٍ فى هذه الفترة، وكان قد جاهر بهذه الفكرة فى مجلس النواب فى يونيو من العام نفسه (١٩٢٦)(٤٢)، ومن الطبيعى أن نفسر دعوته بأنها تعنى اندماج الأحزاب الأخرى فى حزب الوفد وتحت زعامته بطبيعة الحال، لذلك يبدو طبيعيًا أن يعيد زعيم الوفد تقييم موقفه من الأزمة، بل ويدفع بها بعيداً عن ميدان السياسة، لتستقر فى ساحة القضاء، الذى اعتبرها مجرد قضية اجتهاد علمى يختلف المثقفون والمفكرون بشأنها كيفما شاءوا.

وينبغى ملاحظة أن صحيفة «السياسة» قد لعبت دوراً مهمًا فى تأييد "طه حسين" منذ بداية الأزمة؛ فقد أفسحت له صفحاتها للرد على خصومه والدفاع عن فكره وموقفه، وشاركه بعض كتاب السياسة فى ذلك، فكانوا يردون على صحف الوفد وغيرها، سواء من وجهه نظر سياسية أو فكرية، هذا بينما الأقلية البرلمانية لحزب الأحرار الدستوريين داخل مجلس النواب (٢٥ عضواً مقابل ١٦٥ وفديًا) لم تقم بما هو مطلوب منها داخل المجلس، ربما لأنها كانت أقلية ضعيفة التأثير، ولم تكترث لها الأغلبية الوفدية، ومن هنا وقع العبء الرئيسى للدفاع عن طه حسين على قادة الحزب القدامى: لطفى السيد وعدلى يكن وعبدالخالق ثروت، والذين لم يستمروا كحزبين آنئذ، مما يسجل أن حزب الأحرار– كحزب سياسى – لم يستمر طويلاً فى الدفاع عن "طه حسين"، وقد فسَّر تقرير بريطانى ذلك بأن الحزب كان قد وضع أصابعه فى النار فى مسألة على عبدالرازق فى العام السابق، كما أن بعض الأحرار الدستوريين قد مالوا إلى التبرؤ من طه حسين لما كان يكتبه مؤخراً فى صحيفة حزب الاتحاد، ولهذا تقاعس نواب الحزب عن الدفاع عن "طه حسين" عندما أثيرت المسألة فى مجلس النواب (٤٣).

وسيكون لذلك كله تأثيره على علاقة "طه حسين" بحزب الأحرار الدستوريين فيما بعد، خصوصاً وقد استقال عبد العزيز فهمى من رئاسته للحزب فى عام (١٩٢٦)، ثم توفى عبدالخالق ثروت عام (١٩٢٨)، واعتزل عدلى يكن الحياة السياسية منذ عام (١٩٣٠)، ثم توفى عام (١٩٣٣) .

ومن المعروف أن "طه حسين" بعد أن فرغ من تأليف كتاب «فى الشعر الجاهلى» كان ينوى تأليف كتاب جديد يُساهم به فى إثراء الفكر السياسى عن «الديمقراطية» وقيل إنه كتب بالفعل مقدمة هذا الكتاب، ولكن الظروف التى أحاطت بنشر كتاب "فى الشعر الجاهلى" حالت دون إتمام الكتاب الجديد[٤٤].

هـوامش الـفصل الأول ومـصـادره

(١) ليست هناك فيما نعلم دراسات تعرضت بشكل مباشر لـ"طه حسين" سياسياً خلال فترة دراستنا سوى كتاب د. مصطفى عبدالغني «طه حسين والسياسة» دار المستقبل العربي بالقاهرة ١٩٨٦، ودراسة للأستاذ رجاء النقاش بعنوان «طه حسين والأحزاب السياسية» بكتابه: «أدباء معاصرون»، دار الهلال بالقاهرة ١٩٧١، ثم مقالتان للدكتور لويس عوض عن طه حسين العميد وطه حسين الوزير، بكتابه: «الحرية ونقد الحرية»، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة ,١٩٧١

(٢) سوزان طه حسين: "معك"، ط (٢) دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢، ص,١٠٤

(٣) رجاء النقاش: "أدباء معاصرون"، ص٢٦.

(٤) طه حسين: "الأيام"، الجزء الثالث، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٢، ص١١.

(٥) طه حسين: "الكتابات الأولى"، تحقيق: عبد الرشيد محمودي، دار الشروق بالقاهرة ٢٠٠٢، ص٣٨، "والأيام" جـ ٢ ص ١٤٦ - ,١٤٧

(٦) طه حسين: الأيام، الجزء الثالث، ص٢٤.

(٧) محمد سيد كيلاني: "طه حسين الشاعر والكاتب"، الدار القومية العربية بالقاهرة ١٩٦٣، ص٤٦ - ٤٧ .

(٨) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية"، دار المعارف ١٩٧٩، ص١٢٧ - ١٣٥ .

(٩) طه حسين: "الأيام"، الجزء الثالث، ص٤٦.

(١٠) راجع أشعاره التي نقلها محمد سيد كيلاني، المرجع السابق، ص٤٧ -٨١ ثم تعليقه ص ٢٤ - ٢٥.

(١١) راجع نصوص مقالاته بالجريدة خلال يناير - مارس ١٩١٣ ونقد محمد سيد كيلاني له في المرجع نفسه ١٥٦ - ١٦٨ .

(١٢) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأمة"، ص,١٠٧.

(١٣) راجع رجاء النقاش، المرجع السابق، ص٢٦ -٢٧، ويضيف أن هذا الحرص على الجانب الأدبي والفكرى خلال حياة طه حسين وكفاحه الطويل هو الذى جعل له شخصية مستقلة حتى فى أشد أيام ارتباطه بالأحزاب.

(١٤) سامى الكيالى: "مع طه حسين"، سلسلة اقرأ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٣، ص٤١-٤٣.

(١٥) طه حسين: "الأيام" الجزء الثالث، ص١٤٧ -, ١٥٠.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٦٧ - ١٦٨

(١٧) المصدر السابق، ص ١٦٩ -١٧٠.

(١٨) محمد حسن الزيات: "ما بعد الأيام"، دار الهلال بالقاهرة ١٩٨٦، ص١٢- ١٣ .

(١٩) مصطفى عبدالغني: "طه حسين والسياسة"، ص٤٠.

(٢٠) سوزان طه حسين: "معك" ص٥٣ - ٥٨.

(٢١) طه حسين: الأيام، الجزء الثالث، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢٢) المصدر نفسه والمكان.

(٢٣) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(٢٤) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأحرار الدستوريين"، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢، ص٥٢ -٥٣، ١٥٠.

(٢٥) أنور الجندي: "طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام"، دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٦، ص١٢٧ -١٢٨. وأحمد زكريا: "حزب الأحرار"، ص١٢٩ -١٣٠، الزيات: مابعد الأيام، ص ٢٩.

(٢٦) راجع: رجاء النقاش، المرجع السابق ص٣٨ - ٤١.

(٢٧) مصطفى عبدالغني، المرجع السابق، ص٢١ - ٢٩.

(٢٨) راجع مقالاته بصحيفة "السياسة" ٢١، ٢٢، ٢٣ نوفمبر ١٩٢٢، وكذلك أحمد زكريا: "حزب الأحرار"، ص٦٠.

(٢٩) انظر اقتباسات مصطفى عبدالغني، المرجع السابق، ص٢٣ -٢٤، أحمد زكريا: السابق، ص٣٢٢.

(٣٠) محمد حسن الزيات: المرجع السابق ص٣٧.

(٣١) مصطفى عبدالغني: المرجع السابق ص٤٠ -٤١.

(٣٢) سوزان طه حسين. "معك"، ص٧٥.

(٣٣) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأحرار"، ص٣٢٢ ومابعدها.

(٣٤) راجع مصطفى عبدالغني: المرجع السابق، ص٥٨ وكذلك أنور الجندي: المرجع السابق ص١٣٠.

(٣٥) أحمد زكريا الشلق: المرجع السابق، ص٤٨٤.

(٣٦) يذكر مصطفى عبدالغني، المرجع السابق ص٤٤، أنها منشورة بـ "كوكب الشرق" في ١٩٢٦/٥/١٧.

(٣٧) أحمد زكريا الشلق: طه حسين وقضية التغريب، دراسة في حولية كلية الإنسانيات بجامعة قطر، عدد (١١) عام ١٩٨٨، ص٢٨٥.

(٣٨) سامي الكيالي: المرجع السابق، ص٥٣ -٥٤.

(٣٩) محمد حسن الزيات. المرجع السابق، ص٤٥.

(٤٠) راجع مضابط مجلس النواب، الهيئة النيابية الثالثة، دور الإنعقاد الأول سبتمبر ١٩٢٦ .

(٤١) أحمد زكريا الشلق: طه حسين وقضية التغريب، ص٢٨٥ – ٢٨٦ .

(٤٢) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأحرار"، ص٣٤٩ – ٣٥٠.

(٤٣) "السياسة" : ١٣ مايو ١٩٢٦ رسالة إلى مدير الجامعة، ١٦ يوليو ١٩٢٦ مقال «خطران» لـ "طه حسين"، ثم دفاع "السياسة" عن "طه حسين" فى٧يوليو، ٣٠ أكتوبر ١٩٢٦، وتعليق المندوب السامى فى

Fo.407/203,No.42,Hend. to Chamb. Sept.18, 1926

(٤٤) محمد حسن الزيات : المرجع السابق، ص٤٣.

الفصل الثانى

طه حسين والبحث عن قاعدة:
فى صحبة الوفد

- ١ -

خلال الفترة التى أعقبت أزمة كتاب «فى الشعر الجاهلى»، أى منذ انتهاء التحقيق فى (مارس ١٩٢٧)، ورفض الجامعة قبول استقالة "طه حسين"، وعودته إلى التدريس بها، وحتى عام (١٩٣٢) لم يشارك "طه حسين" فى السياسة بمعناها المباشر، لما لاقاه منها من عنت وبلاء، وبحكم أستاذيته فى الجامعة التى تحول دون الانخراط فى العمل مع الأحزاب السياسية وصحفها - باعتباره موظفًا حكوميًا - يلاحظ أنه خلال هذه الفترة (١٩٢٧- ١٩٣٢) تركزت كتاباته حول الأدب، وكأنما انغلق على ذاته فترة راح يستعيد سيرتها، ويخرج لنا تحت وطأة هذه الحالة سيرته الفذة «الأيام» التى أملى جزأها الأول فى صيف عام (١٩٢٦)، واستكمل نشره عام (١٩٢٧)، كما أخرج لنا سلسلة مقالات فى أدب الرحلات بعنوان «رحلة الصيف» عام (١٩٢٨)[١].

والمعروف أنه فى عام (١٩٢٧) أعاد طبع كتاب «فى الشعر الجاهلى» بعد أن غير عنوانه إلى «فى الأدب الجاهلى»، وحذف منه الفصل الذى أثار الزوبعة وفسر على أنه مساس بالدين الإسلامى، كما أضاف إليه فصولاً أربعة جديدة، تدعم المنهج الذى طبقه وأراد ترسيخه، وقد فطن أحد نقاده (محمد الغمراوى) إلى ذلك، وكتب أن «المنقود قد عاد فانبعث بعد أن غير زيه وإن لم يغير من حقيقة الكتاب، فكتاب "فى الأدب الجاهلى" هو كتاب "فى الشعر الجاهلى" بروحه وغايته وطريقته»..[٢].

ولذلك استمرت للقضية ذيول؛ حيث أثيرت أكثر من مرة كلما اقتضت ظروف السياسة وتصاريفها ذلك، ففى (يونيو ١٩٢٧) قدَّم أحد أعضاء مجلس الشيوخ سؤالاً

إلى وزير المعارف بشأن أسباب عدم قبول الجامعة لاستقالة "طه حسين"، كما أثار مسألة أن كتاب الأدب الجاهلى تضمن نفس أفكار كتاب الشعر الجاهلى الذى تمت مصادرته، غير أن المناقشة لم تلبث أن أغلقت بعد أن وعد الوزير بإحالة الكتاب الجديد الى لجنة لدراسته، ثم لم تلبث القضية أن أثيرت مرة أخرى فى المجلس نفسه فى مايو (١٩٢٨)، ولكن حرص القوى السياسية على بقاء الائتلاف - المؤقت - بين حزبى الوزارة، الوفد والأحرار، أدى إلى محاصرة النقاش وإنهائه بسرعة[٣].

المهم، انشغل "طه حسين" بمحاضراته فى الجامعة، وبكتابة فصول جديدة فى الأدب والنقد وأدب الرحلات على نحو ما أشرنا، مؤثرًا الابتعاد عن السياسة والكتابة فيها حتى إنه عندما تولى رئاسة الوزارة محمد محمود باشا زعيم الأحرار الدستوريين، ورئيسهم الفعلى منذ استعفاء عبدالعزيز فهمى عام (١٩٢٦)، وهى الوزارة التى عرفت باسم وزارة «اليد القوية» (يونيو ١٩٢٨ - أكتوبر ١٩٢٩)، والتى عطلت الدستور والبرلمان، وحكمت البلاد بقبضة من حديد كما هو معروف، وكان ذلك حدثًا جللاً، خصوصًا وأنه جاء من الأحرار الدستوريين، لم يشأ "طه حسين" أن يكتب شيئًا، وإنما أبدى سخطه لهذه النكسة التى أصابت البلاد فى حياتها الدستورية، وأسر برأيه ذاك إلى صديقه الشيخ مصطفى عبدالرازق، عندما سأله عن أية مزية يراها لهذه الوزارة، فأجاب طه بأنه لا يرى لها أى مزية تسوغ قيام الحكم الدكتاتورى، وأنه رغم صداقته لـ(محمد محمود)، فإنه لايقبل الدكتاتورية أبدًا، ويستنكر أشد الاستنكار تعطيل الدستور الذى جاهدت الأمة لإصداره، مقررًا أنها هى مصدر كل سلطة[٤]، وربما يكون طه حسين قد شعر بمرارة شديدة بسبب أن أستاذه وصديقه لطفى السيد قبل أن يكون وزيرًا للمعارف فى هذه الوزارة، مؤثرًا الاستجابة لنداء الصداقة عن الاستجابة للمبادئ والمثل الديمقراطية.

ويبدو منطقيًا أن يكون لمسلك هذه الوزارة دور فى ازدياد ابتعاد "طه حسين" عن الأحرار الدستوريين، بل وازدياد قناعته بضرورة الابتعاد عن الحزبية والسياسة، فما

عاناه من جرائها ليس ببعيد، وجاءت وفاة عبدالخالق ثروت في أواخر عام (١٩٢٨)، ليفقد "طـه حسـين" صـديقًا وسـندًا سياسيًّا كبيرًا، كان طه يُكنُّ له كل تقدير وعرفان، ويستمد منه الدعم والعون في مواجهة خطوب السياسة، وقد رثاه "طه حسين" أبلغ ما يكون الرثاء..(٥).

لقد كرس الأستاذ جُلَّ جهوده للعمل الجامعي ولكتاباته العلمية والأدبية حتى بلغ مكانة مرموقة داخل الجامعة، بإخلاصه وشخصيته المتفردة، جعلت زملاءه ينتخبونه عميدًا لكلية الآداب في بداية عام (١٩٢٨)، ولم يكن انتخاب عميد مصرى أمرًا مألوفًا، وكانت السفارات الأجنبية ترى أن لها مصلحة في أن يختار العمداء من بني جلدتها، والإنجليز يؤيدون ذلك، معتبرين أن مسئوليتهم حماية «مصالح» هؤلاء الأجانب، ولذلك لن يرضوا بتعيين أستاذ مصرى عميدًا لكلية الآداب، وبدا واضحًا أن السياسة ستقحم نفسها على "طه حسين" مرة أخرى، وكانت مصر تحكمها وزارات ائتلاف من الوفد والدستوريين، ولما كان الائتلاف قد بات ضعيفًا، وكان وزير المعارف الوفدى على الشمسى يدرك ذلك، ويعلم ما سيكون عليه موقف الإنجليز، كما يدرك أن وزارة أغلبيتها من الوفديين لن تستريح لتعيين "طه حسين" عميدًا لصلته بالدستوريين، لذلك استقبل طه وصارحه بما تواجهه الوزارة من حرج، والأستاذ لا ينسى للوزير وقوفه إلى جانبه في أزمته الأخيرة، لذلك عندما طلب إليه الوزير أن ينزل عن حقه في العمادة، وافق مشترطًا أن يصدر قرار تعيينه أولاً، وأن يباشر مهام منصبه ولو يومًا واحدًا احترامًا لرأى الأساتذة الذين انتخبوه، ثم يستقيل، وقد كان، وصار "طه حسين" عميدًا لكلية الآداب ليوم واحد، قدمّ استقالته في مسائه، ليتولى المنصب من يليه في الأصوات وهو الأستاذ الفرنسى «جوستاف ميشو»(٦). ومن المهم أن نشير هنا إلى أن فترة عمادة ميشو انتهت في أواخر عام (١٩٣٠)، لينتخب مجلس كلية الآداب "طه حسين" عميدًا، ويصدق على هذا التعيين وزير المعارف آنذاك (مراد سيد أحمد) ليصبح "طه حسين" أول عميد مصرى لكلية الآداب، ويتسلم مهام منصبه في (نوفمبر ١٩٣٠) .

وإذا كان "طه حسين" قد قرر أن يبتعد عن السياسة، فإن السياسة قررت ألا تتركه لجامعته وطلابه وكتبه، وقد صار من أكبر كُتَّاب عصره وأشهرهم.. وكان انتخابه عميداً لكلية الآداب قد تم في عهد وزارة إسماعيل صدقي الأولى(يونيو ١٩٣٠- يناير١٩٣٣) تلك الوزارة التي ألغت دستور الأمة (دستور ١٩٢٣)، وحكمت البلاد حكمًا دكتاتوريًا مستندًا إلى دستور أهدرت فيه سلطة الأمة لحساب سلطة الملك والسلطة التنفيذية (دستور١٩٣٠). ولما كان صدقي باشا – الذي كان ينتمي للأحرار الدستوريين ثم استقال من الحزب في سنينه الأولى ليميل باستقلاله مع رياح السلطة – لايستند إلى أي قوة شعبية ويفتقر إلى المؤيدين والأنصار، فإنه سعى وهو على رأس السلطة لكي يؤلف حزبًا جديدًا مستخدمًا نفوذ الإدارة في حشد الأنصار والمؤيدين أملاً في الحصول على أغلبية برلمانية، لذلك يعلن قيام «حزب الشعب» تحت رئاسته في نوفمبر (١٩٣٠) في الشهر نفسه الذي عُيِّن فيه "طه حسين" عميدًا)، ويصدر له صحيفة تنطق بلسانه تحمل اسم الحزب نفسه، وجعل يستعد لإجراء الانتخابات العامة على أساس دستوره الجديد، مصممًا على أن يأتي بمجلس نواب يضم أغلبية من أنصاره ومؤيديه رغم أنف الوفد والأحرار الدستوريين جميعًا.

وفي المقابل تقارب الوفد والأحرار الدستوريون، بعد نحو أسبوع من تأليف الحزب الجديد، وأثمر هذا التقارب أن اتفق الحزبان على وضع أسس لتعاونهما لمقاومة الوزارة ومقاطعة انتخاباتها والتصدي لسياستها، بل لقد شكل الحزبان الكبيران ائتلافًا صاغ عهدًا بينهما سمي «عهد الله والوطن» في آخر مارس (١٩٣١)، اتفق فيه زعماء الحزبين إلى جانب مقاطعة الانتخابات، على السعي لإسقاط دستور صدقي وإعادة دستور الأمة لتتولى الأغلبية السلطة على أساسه، وكذلك التحرك في الأقاليم وعقد المؤتمرات السياسية لتنفيذ هذه السياسة. غير أن الحكومة الدكتاتورية كانت لهم بالمرصاد؛ حيث أطلقت أجهزتها الإدارية للحيلولة دون عقد مؤتمرات

المعارضة بالقوة[7]، وأجرت انتخابات قاطعتها معظم قطاعات الشعب، وأتت ببرلمان مزيف يؤيد الحكومة ولايمثل الأمة.

تابع "طه حسين" هذه التطورات بقلق وتشاؤم، ومنذ قرأ عن تشكيل وزارة صدقى، وعرف أنه احتفظ لنفسه بوزارتى الداخلية والمالية، إلى جانب رئاسة الوزارة، تساءل "طه حسين": هل يفكر صدقى باشا إذن فى أن يحكم البلاد بسيف المعز وذهبه؟ .. المهم أنه فى اليوم التالى لتوليه منصب العميد التقى به وزير المعارف (مراد سيد أحمد)، ونقل إليه رغبة صدقى فى أن يتولى رئاسة تحرير صحيفة «الشعب» التى ستصدر بإمكانيات غير محددة لتكون لسان حال حزب الشعب، فيعتذر "طه حسين" بغير تردد؛ حيث إنه لم يمض على توليه منصبه سوى يوم واحد وهو لايريد أن يترك دراساته وزملاءه الذين انتخبوه، وعندما يوضح له الوزير أن ذلك لايحول دون نشر مقالاته وبحوثه فى «الشعب» إلى جانب المقالات السياسية، وأنه سيكون حرًا فى تحريرها تمامًا وأن مطالبه جميعها مجابه، يصر العميد على الاعتذار، وعندما يقترح عليه الوزير أن يظل عميداً، وأن يكتب المقال الافتتاحى فقط، وأن يبدأ بمقال عن أهمية حزب الشعب وضرورته للبلاد، حتى لو كتبه بدون توقيع، يتمسك "طه حسين" باعتذاره، ويذكر أن عليه أن ينصرف إلى عمله فى كلية الآداب، وأنه ليس من مصلحة الحكومة أن يعرف الناس أن الموظفين يكتبون فى صحيفتها، ولاينبغى لعميد كلية الآداب أن يسخر نفسه للكتابة فى صحف الحكومة، فيتعرض بذلك لازدراء الزملاء والطلاب جميعًا..[8] وهكذا وضع "طه حسين" نفسه فى مهب الريح.. وكان طبيعيًّا ألأيتعاون مع هذا النظام الدكتاتورى، ذلك أن استجابته لذلك تتنافى مع كرامته ونزعته السياسية.

وكان أول رد فعل من قبل النظام تجاه "طه حسين" أن رفضت وزارة المعارف طلب الجامعة ترقية عميد كلية العلوم (مستر بنجهام) وعميد كلية الآداب، وفى الوقت نفسه قررت زيادة راتب عميد العلوم لتعويضه عن عدم الترقية وتجاهلت عميد الآداب، ثم رفضت الوزارة اقتراح كلية الآداب إنشاء قسم للآثار بها.

ولم تشأ وزارة صدقي أن تترك عميد كلية الآداب وشأنه، فسرعان ما اتبعت معه أساليب سياسية أبت معها نفسه أن تخضع لها؛ فعندما اتصل وزير المعارف آنئذ (حلمي عيسى) بمدير الجامعة لطفي السيد بشأن تنظيم احتفال كبير يحضره الملك تمنح فيه الجامعة عدداً من درجات الدكتوراه الفخرية لعدد من الأجانب والسياسيين المصريين، أجاب لطفي السيد بأن قانون الجامعة يقضي بعرض الموضوع على مجالس الكليات، ويلاحظ لطفي أن الأسماء المقترحة من أنصار الوزارة.. وحين ينقل الاقتراح إلى عميد كلية الآداب يعترض "طه حسين" بأن مجلس الجامعة بناء على قرار مجلس الكلية هو الذى يختص بمنح درجات الشرف، وليس للوزير أن يقرر شيئًا فى هذا الصدد، وأنه لاينبغى للجامعة أن تمنح هذه الدرجات للشخصيات السياسية المشتركة فى الحكم، وذكر "طه حسين" لوزير المعارف «إن الجامعة هى التى تمنح هذه الدرجات بوحى من نفسها لا بوحى من الحكومة، ولا تستطيع أن تمنحها لأفراد حزبيين»، فوضع "طه حسين" الوزارة فى مأزق اضطرت معه إلى أن تلجأ إلى عميد كلية الحقوق الذى استجاب لطلب الحكومة.

وأقيم الاحتفال فى موعده (٢٧ فبراير ١٩٣٢)، وكان للوزارة ما أرادت، ومما يلفت النظر أن الوزارة لجأت فى بداية الأمر إلى كلية الآداب لتكريم شخصيات من أساطين القانون، الأمر الذى يثير التساؤل عن عدم لجوئها إلى كلية الحقوق منذ البداية.. المهم، عندما حضر الملك لوحظ أن هتاف الطلبة له وللوزراء كان ضعيفًا، بينما تعالت أصواتهم بالهتاف للجامعة وأساتذتها وهو أمر لم يكن مألوفًا، ولزم لطفي السيد الصمت، ولم يلق كلمة ترحيب كما هى العادة، ولزم الأساتذة المصريون الصمت كذلك، ولعل ذلك كان احتجاجًا على فرض تكريم رجال الحكم والسياسة على مجلس الجامعة[٩].

ويعلم "طه حسين" فى أعقاب ذلك أن وزير المعارف لم يصدق على اللائحة الجديدة للجامعة، والتى كان طه قد اشترك فى إعدادها، وهى لائحة تنص على ضمانات

للأساتذة شبيهة بضمانات رجال القضاء.. والأخطر من ذلك أن يقرأ "طه حسين" فى جريدة المقطم فى (٣ مارس ١٩٣٢)، أى بعد الاحتفال السابق بأربعة أيام، خبراً صغيراً ينص على أن « حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية قد قرر نقل الأستاذ الدكتور "طه حسين" من كلية الآداب إلى وزارة المعارف العمومية فى وظيفة مساعد لمراقبة التعليم الأولى»[١٠]. وهكذا كان من الواضح أن وزارة المعارف لم تجد مسوغًا قانونيًا لفصله من الجامعة، فاكتفت بنقله إلى ديوان الوزارة لتنتزعه من مكانته ومعقله!!

وعلى الرغم من أن (حلمى عيسى) وزير المعارف كان يمارس سلطته باعتباره رئيساً أعلى للجامعة، فإنه تجاهل سلطة مجلس الجامعة ومجلس الكلية التى كان ينبغى أن يؤخذ رأيهما فى مثل هذه المسائل، ذلك أن الجامعة كانت تتمتع بنوع من الاستقلال يقتضى ذلك، ولكن وقعت الأزمة وبدأت تداعياتها تتوالى، فى بداية الأمر اضطر الأستاذ العميد إلى تنفيذ أمر النقل، لكنه لم يباشر مهام عمله الجديد بالفعل، وكان رد فعل الجامعة، مجالسها وطلابها، غاضباً، وسرعان ما انتقل الغضب إلى الصحافة فالرأى العام، وهو غضب امتزج فيه انتقاد مسلك الحكومة بالغضب للاعتداء على استقلال الجامعة وحرمة الأساتذة..

فاجتمع مجلس كلية الآداب لتقديم احتجاج إلى وزير المعارف، وكان الأساتذة الفرنسيون مصممين على أن يكون الاحتجاج شديد اللهجة، بينما رأى الأساتذة المصريون والإنجليز أن يكون أخف حدةً، وانتهى الأمر بإرسال احتجاجين إلى الوزير، يتضمنان اعتراضًا على نقل العميد، ويطلبان ضمانات لاحترام استقلال الجامعة، واعتبر مجلس كلية الآداب أن نقل الأساتذة من غير أخذ رأى الهيئات العلمية يمثل مخالفة لقانون الجامعة وهدمًا لاستقلالها، وأن نقل الأستاذ الدكتور "طه حسين" عميد كلية الآداب وأستاذ الأدب العربى بها لقى دهشة واستنكار الأساتذة جميعًا، كما أعلن المجلس ثقته فى الدكتور "طه حسين"، وعبر عن إعجابه بآثاره العلمية، وطالب بعقد جلسة لمجلس الجامعة بأسرع وقت ممكن للعمل على إعادته لكليته. ٤٨ ...[١١] .

أمـا الطلاب فـقـد أضـربوا عن تلقى دروسـهم وتظاهروا فى فناء الكليـة، وأرسلو برقيـة إلى الملك فؤاد يلتمسـون فيـها عودة أسـتـاذهم، حـفـاظًا على حـرية واسـتـقـلال الجامعة وهيبتها العلمية، ثم نشروا بيانًا فى الصحف أعلنوا فيه أن نقل الأستاذ يمثل امتهانًا لكرامـة الجامـعة وكرامة العلم، وأكثر من ذلك اندفعت مظاهرة من الطلاب إلى منزل "طه حسين" حيث هتفوا له ولما خرج إليهم حملوه على الأعناق، وعندما رأى "طه حسين" ذلك أحس بنفسه قوة وعزيمة شديدين، قوة جيل جديد يقف فى وجه طغيان صـدقى وحكومـتـه، وينتصـر لقضيتـه، فقـرر ألا يذهب إلى وزارة المعارف.. لم يكتف الطلاب بذلك، بل اندفعت مظاهرة أخرى منهم إلى مكتب مـدير الجامـعة لطفى السـيد الذى خرج إليـهم وهدأ من ثورتهم، وطمـأنهم بمعالجة القضـيـة، وضـرورة عـودتهم إلى دروسـهم.. ولم يكتف الطلاب بذلك أيضًـا، بل خرجوا من الجـامـعـة قـاصـدين سـراى عابدين، ولما رأى البوليس حجم المظاهرة طلب إليهم انتداب وفد منهم لتقديم شكواهم إلى كبير الأمناء.

وعندمـا تواصل إضـراب طـلاب الآداب، واتسـعت الدائرة بانضـمـام طلاب العلوم والطب إليهم، بدأ البوليس فى التصدى لهم واتخذ من الإجراءات مـايحول دون اتصـال الكليات ببعـضـهـا، وهدد وزير المعـارف الطلاب بـالفصل من الجـامـعـة إذا اسـتـمـر الإضـراب، وأعلن رفـضـه لأن يملى الطلاب إرادتهم على وزارة المعـارف، وعبـثًـا حـاول وكيل الجامعة وعمداء الكليات تهدئة الثائرين وإعادتهم إلى الدراسة؛ فلما لم يستجيبوا صدر قرار بتعطيل الدراسة حتى يوم (٢٠ مارس ١٩٣٢)، على ألا يسمح بدخول الكليات إلا لمن يحمل تصـريحًا يحصل عليه بعد تقديم تعهد بالمحافظة على النظام والمواظبة على الدراسـة، ومن يمتنع عن ذلك يفصل من كليتـه، وقد اضطر الطلاب إلى التـراجع تدريجيًا فى نهاية الأمر.. ويعلق لويس عوض على هـذه الأحداث، وكان مشـاركًا فيـها، «بأن هذه الفترة هى التى تحول فيها "طه حسين" بالنسبة لشباب جيلى إلى رمز عظيم لعدة معانٍ.. وكان أهم معنى تبلور حول اسم "طه حسين" فى هذه الفترة، أنه أصبح

يومئذ رمزًا لاستقلال الجامعة وصمودها أمام السلطة التنفيذية، ليس فقط بين المثقفين، ولكن أيضًا على المستوى الجماهيرى..»[١٢].

أما موقف لطفى السيد مدير الجامعة فقد اتسم بالغضب للاعتداء على استقلال الجامعة، على اعتبار أن الأستاذ نقل دون استشارة الجامعة وعلى غير رضاها، ورأى أن هذا المسلك من وزارة المعارف من شأنه خلق حالة من عدم الاستقرار عند أساتذة الجامعة تعوقهم عن التفرغ لعملهم العلمى وبحوثهم مما يمس رسالة الجامعة؛ لذا قام المدير بزيارة صدقى باشا فى محاولة لإيجاد حل للأزمة يحفظ كرامة الجامعة، واقترح عليه عودة "طه حسين" أستاذًا فى كليته، وليس عميدًا، وقبل صدقى هذا الاقتراح على غير اقتناع؛ لأنه لم يلبث أن تراجع عن تنفيذه، عندئذ قدم لطفى السيد استقالته من منصبه فى (٩ مارس ١٩٣٢) احتجاجًا على هذا التصرف، وجاء خطاب الاستقالة وثيقة بالغة الأهمية سجلت موقفًا فريدًا للطفى السيد، فقد ذكر فيه أنه لا يستطيع أن يقر الوزارة على هذا التصرف الذى يذهب بكل الفروق التى تميز الجامعة عن غيرها...[١٣]

كشفت الصحافة خلفية إصدار قرار نقل "طه حسين" ورفضه التعاون مع الحكومة، فراحت تنشر مقالات ملتهبة تذكى نار الأزمة وتزيدها اشتعالاً؛ فقد وجدت صحف المعارضة، وعلى رأسها الوفد والأحرار، الدستورية فرصةً كبيرةً لفضح سياسة وزارة صدقى، وكشف تخبطها وأساليبها الدكتاتورية، ومن جانبها راحت الوزارة والصحف التى تشايعها تسوق مبررات قرار إبعاد "طه حسين" عن الجامعة، متهمة إياه باتهامات لا صلة لها بالدوافع السياسية الكامنة وراء القرار، فادّعت أنه أفشى قرارات مجلس معهد التربية، وأنه حرض خريجيه على التظاهر لمطالبة الحكومة بتوظيفهم، وأنه حرض أساتذة الآداب على عدم التدريس بالأزهر، وأن له اتصالات ببعض الجهات الأجنبية بشأن تعيين بعض الموظفين فى الجامعة.. إلخ، وقد رد "طه حسين" على ذلك فى الصحف، فذكر أنها اتهامات كاذبة جميعها، وأنها دست على الوزير، وطلب إليه أن يحقق فيها،

لأنه ليس من السهل اتهام أستاذ بالتحريض، كما أنه ليس من المعقول اتهام عميد بالاتصال ببعض الهيئات السياسية الأجنبية..."[١٤].

وتمادت الحكومة في الدفاع عن مسلكها بواسطة الصحف الموالية لها، وجعلت تثير المواقف الفكرية لـ "طه حسين" وتندد بمؤلفاته، وتدعى سوء إدارته لكلية الآداب، وبدأ النواب يهاجمونه ويهاجمون الجامعة ومناهج التدريس فيها، وقد أوعزت الحكومة لبعض مؤيديها في مجلس النواب لإثارة القضية من جديد في شكل استجواب جديد، وكان من الملفت أن يثار الاستجواب بعد اتخاذ الوزارة قرار نقل "طه حسين"، وليس قبله، مما يعنى أن الحكومة قررت ما هو أبعد من ذلك، أو أنها أرادت تبرير تصرفها تجاه الجامعة ورجالها[١٥].

وعموماً تضمن الاستجواب الجديد الذى قدمه عبدالحميد سعيد، ووقَّع عليه معه عشرة نواب آخرون، منهم نائبان آخران عن الحزب الوطنى المؤتلف مع الحكومة، وثمانية من النواب الحكوميين، تضمن اتهامًا لـ"طه حسين" بعدم احترام الشعور الدينى والآداب القومية، عندما ظهرت صورته فى الأهرام وإلى جانبه يختلط جلوس الشبان والشابات جنبًا إلى جنب، وأنه مسئول عن امتناع بعض أساتذة الجامعة عن التدريس بكليات الأزهر، وأن كتاب "فى الشعر الجاهلى" مازال يدرَّس بالجامعة تحت العنوان الجديد، وأن تغيير العنوان لم يغير شيئًا من روحه اللا دينية، فضلاً عن أن "طه حسين" يزين للشباب وسائل المجون والفجور فى مؤلفه «حديث الأربعاء». وتساءل مقدم الاستجواب: كيف تسمح الجامعة أن يكون هذا الرجل عميداً لكلية الآداب بعد أن انفضح أمره وضجَّت الأمة من خطر تعاليمه وآرائه؟ ورأى النائب أنه لايكفى نقله من الجامعة إلى الوزارة؛ لأن ذلك سيمكنه من الإشراف على برامج التعليم فى أنحاء القطر.. إلخ. المهم أن وزير المعارف علَّق على نقاط الاستجواب بما اتخذته الوزارة من إجراءات بشأنها، وانتهى النقاش إلى أن ذكر أن موضوع كتب "طه حسين" سيطرح على مجلس الوزراء للنظر فيما يجب أن يتخذ بشأنها..[١٦].

وأدخلت الوزارة الأزهر فى القضية، فأوعزت إلى شيخ الأزهر (الشيخ الأحمدى الظواهرى) بأن يعلن إدانته لـ "طه حسين"، وبأنه لايصلح أن يكون مربيًا وأستاذًا جامعيًا، مما أدى إلى إثارة الرأى العام من جديد، ومن جانبها اتخذت صحف الائتلاف المعارضة الموضوع وسيلة لتصعيد هجومها على الوزارة وانتقادها لسياستها والمطالبة بإسقاطها، ومن الطريف أن "طه حسين" صرح للصحف عندما راحت تسأله عن موقف رئيس الوزارة منه ومن كتبه أجاب فى سخرية واضحة أن صدقى باشا كان من المدافعين عن الكتابين فى الأزمات الماضية، وأنه هو الذى سعى وألح فى السعى لتعيينه عميدًا لكلية الآداب وهو رئيس لهذه الوزارة.. وفى حديث آخر ذكر «أن طه حسين يعلم أنه فقير، وأنه ليس وزيرًا، بيْد أنه يحس أنه إنسان، وأنه أستاذ، وأنه عميد لكلية الآداب المصرية، وأنه إنسان لايقل إنسانية وشرفًا عن معالى الوزير..»[١٧].

وفى (٢٩مارس ١٩٣٢)، بعد نحو شهر من الصراع بين الحكومة من جانب، والجامعة والمعارضة من جانب آخر بشأن قضية «نقل» "طه حسين" من الجامعة، ذهبت الحكومة لما هو أبعد من ذلك، فقررت إحالة "طه حسين" إلى المعاش وفصله من العمل الحكومى، وكان عليه أن يدفع ثمن مواقفه؛ فلم تكتف الحكومة كما قالت زوجه «بطرده من الكلية التى كان عنوانًا لعزتها وكرامتها، وإنما أرادوا إحراق كتبه، وأخذوا منه مسكنه الحكومى، وأغرقوه بالشتائم، وحاولوا أن يحرموه من كل وسيلة للعيش، فأنذروا البعثات الأجنبية فى مصر حتى لا تقدم له عروضًا بالعمل..»[١٨].

– ٢ –

وهكذا فقد "طه حسين" وظيفته وصار بلا عمل، وهو رجل لايملك شيئًا، لذلك شرع يكتب المقالات فى صحيفته القديمة «السياسة» التى كان يواليها بمقالاته الأدبية بين الحين والحين، لكنه الآن سيكتب فى مجال آخر، سيكون كاتبًا سياسيًا بعد أن بطشت

به الحكومة، وحررته من قيود الوظيفة، وبدلاً من أن ينتظر أن تعصف السياسة بما تبقى من أحلامه وطموحاته، قرر هو أن يحتشد لها، بكل خبرته وثقافته، وأن يشحذ قلمه، وما أدراك ما قلم "طه حسين". ومجاله الكتابة فى الصحف التى تمرس عليها منذ ثلاثين عامًا خلت، منذ علّمه الشيخ جاويش الغلو والإسراف فى الكتابة.. كان عليه أن يقتحم السياسة «كاتبًا سياسيًّا»، ومن هنا أنشأ يكتب مقالاته السياسية في صحيفة حزب الأحرار الدستوريين وبتوقيعه، كما تولى رئاسة تحريرها وكتابة المقال الافتتاحى «حديث اليوم» فى شهور صيف عام (١٩٣٢)، خلال فترة أجازة الدكتور محمد حسين هيكل.. وكانت وزارة صدقي ونظامه السياسى موضوع مقالاته، فهاجم دكتاتوريته ودستوره وبرلمانه وحزبه وسياسة وزارته بدأب وصبر شديدين، وامتلأت مقالاته بسخرية لاذعة قال عنها لزوجه «إننا عندما لا نستطيع دفع الشر فلا أقل من أن نسخر منه..»، وعلى الرغم من ذلك كانت تنتابه ساعات ضيق ويأس، رغم عنف مقالاته، حتى لقد ذكرت زوجه أنه كان فى نهاية ذلك العام (١٩٣٢) غارقًا فى حزن أسود، وأنه أسر لها أنه يريد أن يكتب كتابًا يسميه « الجهد الضائع»[١٩].

لقد كان عام (١٩٣٢) عام تحول كبير فى حياة "طه حسين"، تحول فكرى وسياسى، فقد فرضت عليه ظروف السياسة أن يترك مجاله الأثير والمحبب إلى نفسه، جامعته وكتبه وطلابه، ليتحول إلى كاتب سياسى.. وسياسى معارض.. كما مر بتحول فكرى وروحى عميق وهادئ استقر به فى نهاية المطاف إلى كنف الوفد وجماهيره الواسعة. ولقد شغلت الفترة الجديدة من حياته ثلاث سنوات إلا قليلاً (منذ فُصِلَ من وظيفته فى آخر "مارس ١٩٣٢"، وحتى عاد أستاذًا بالجامعة فى منتصف "ديسمبر ١٩٣٤" استغرق منها نحو عام يحرر مقالاته السياسية فى صحيفة الأحرار الدستوريين، كما أشرنا، ثم بدأ مع شهر (مارس ١٩٣٣)، يحررها بصيحفة الوفد المسائية «كوكب الشرق» أعقبها بصحيفة «الوادى» حتى أواخر عام (١٩٣٤) عندما عاد أستاذًا بالجامعة.

وكان من الواضح أن محنة "طه حسين" كان لها بعض الفائدة، ورُبَّ ضارةٍ نافعة؛ فقد صنعت له شعبية كبيرة، واشتهر بمواقفه الصلبة ضد طغيان نظام صدقى، فكان

يعمل ليلاً ونهاراً، وكأنما آل على نفسه ألا يكف قلمه عن الوزارة حتى تسقط هي والنظام الذي أقامته وحتى تزول آثاره، وكان أجره زهيداً لا يفي بمطالب أسرته حتى لقد وصفت زوجه هذه الفترة بأنها كانت فترة «مجاعة»، كما ذكرت أنه كان يعمل كما يعمل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، لكنه خرج منها أصلب عوداً، وخلَّف تراثًا من المقالات السياسية على درجة كبيرة من الأهمية.

لقد رأت الجماهير كيف تصدى لنظام دكتاتوري، ورفض أن يكون كاتبه الأول، فوقفت إلى جانبه وأيدته في صراعه معه منذ أُبعد عن الجامعة، وانتصرت له، وكان حمله على الأعناق حدثًا مؤثراً في حياته، لذلك بدأ يدرك أن انحيازه لهذه الجماهير واقترابه منها أكثر وأكثر أصبح اختياراً صحيحًا وضرورياً، وأن الرأي العام الذي كان منصرفًا عنه، بدأ يقبل عليه ويمنحه نوعًا من التأييد والتقدير..[٢٠]. وفي هذه الفترة بالذات بدأ "طه حسين" يبرز كشخصية شعبية يهتز لها وجدان الجماهير، بعد أن كان في العشرينيات مجرد أستاذ وعالم جليل، فماذا حدث حتى تحقق هذا التحول الكبير الذي تبلور خلال عام (١٩٣٢)؟ يحاول لويس عوض تفسير هذا التحول بمتابعة خطه الفكري، فيرى أن «الحرية» كانت عند "طه حسين" في العشرينيات وماقبلها، كانت حرية العقل المثقف، لا حرية المجتمع بأشمل معانيه، حرية الأستاذ في أن يبحث، وأن يفكر ويعبر، وأن يتحدى كل قيود التقاليد الجامدة أو عواطف الدهماء وجهلها بحرية البحث والتفكير والتعبير، كانت الحرية في نظره باختصار هي حرية الأرستقراطية العقلية الثائرة على الجمود والمسلمات والعاطفة الصاخبة التي تمنع الأفراد والجماهير من إدراك الحقيقة، لقد كان يجد بين مثقفي حزب الأحـــرار الـدستوريين وبعض زعمائهم – وهم مثقفو وزعماء الأقلية البعيدة عن الجماهير ـ الوفاء الذي يمكن أن يحمي العقلانية المصرية المتحررة ويتبنى مدرسة «التنوير»، وقد أثبتت معركة الشعر الجاهلي صدق اختياره، كما أثبتت تلمذته وصداقته للطفي السيد أن العقلانيين في مصر كانوا قادرين بالفعل على إرساء التقاليد الجامعية الراقية وحماية البحث العلمي[٢١].

لقد اقتنع "طه حسين" بضرورة أن ينقل عتاده الفكرى والسياسى والاجتماعى من معسكر الصفوة المنعزلة عن الجماهير، معسكر العقل المتعالى إلى معسكر الجماهير العريضة، أو حسب تعبير لويس عوض عندما تساءل، لماذا انتقل من الديمقراطية الأرسطاليسية المقيدة بأحكام العقل وضوابط الحكمة وسيادة القانون إلى ديمقراطية الشعب التى كثيراً ما تُسمى فى قاموس العقلاء (ديمقراطية الرعاع)؟ لا يمكننا أن نفسر تعاطف رجل مثل "طه حسين" مع الوفد بأسباب شخصية.. وكان أصدقاؤه القدماء، الأحرار الدستوريون، مؤتلفين مع الوفد لإسقاط نظام صدقى الدكتاتورى؛ فلو أن المسألة مقصورة على مجرد مقاومة نظام صدقى لأمكنه أن يفعل ذلك تحت لواء الأحرار الدستوريين، وقد فعل ذلك خلال شهور (صيف ١٩٣٢)، حين كتب المقالات السياسية الافتتاحية لصحيفة «السياسة»، لكن المسألة تبدو أعمق من ذلك؛ فقد رأى طه حسين أن حزب الأحرار، منذ آلت زعامته لمحمد محمود باشا عام (١٩٢٨)، صاحب وزارة اليد الحديدية، ثم وفاة عبد الخالق ثروت وعدلى يكن، قد فَقَد الكثير بذهاب السياسيين المستنيرين المتميزين بالعقل والثقافة، ليتبقى فيه من تميز بالحسب والمال، وقد أثبتت دكتاتورية محمد محمود (١٩٢٨ -١٩٢٩) أن الاستبداد يسير، وأن العدل والاستنارة أعسر مايكون؛ لذلك اعتزل لطفى السيد وعلى عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق السياسة، وعكفوا على العلم والتعليم، أما "طه حسين" فقد اختار جانب الشعب[٢٢].

وقد أضاف "طه حسين" نفسه سببًا آخر، بعد أن قرأ ماكتبه لويس عوض عنه، فحدثَّه عن هذه الفترة، وذكر أنه كان يكتب فى «السياسة»، وأسندت إليه رئاسة تحريرها عدة شهور بسبب سفر الدكتور هيكل إلى بيروت، «ولكن الجريدة لم تعطنى مرتبًا عن عملى؛ فلما فاتحت محمد محمود باشا فى الأمر اعتذر بضيق ذات اليد؛ لأن دخله هبط بسبب الأزمة العالمية، ثم زارنى النحاس باشا ومكرم عبيد فى بيتى وعرضا أن أكتب فى جريدة الوفد مقابل مائة جنيه شهريًا فقبلت ورأيى أن موقف محمد محمود، وقد كان من أغنى أغنياء مصر، يمثل ما انتهت إليه حال الأحرار الدستوريين بعد أن انتقلت قيادته بعد وفاة عدلى يكن إلى محمد محمود»[٢٣].

لقد تطور موقف "طه حسين" الفكرى، وانتقل من الدعوة إلى مجرد التجديد فى الفكر إلى دعوة أخرى هى التجديد فى المجتمع نفسه، فطالب بعد ذلك بتعميم التعليم ومجانيته، وطالب برفع الظلم عن الطبقات الشعبية، المهم أصبح من قادة التغيير الاجتماعى، وهذا التغيير يلتقى مع أعمق معانى التغيير الفكرى وأكثرها أصالة وجدية، ولعله اكتشف فى هذه المرحلة من حياته أن الفكر المجدد الحر لا يستطيع أن يعيش مستريح الضمير بين شعب جاهل فقير متأخر، ومن هنا بدأ يخوض معاركه وسط الجماهير ومن أجلها..[٢٤].

وكان حزب الوفد يحظى بأغلبية كبيرة بين الطلاب فى الجامعة؛ لذلك كان أمراً طبيعياً أن يكون معظم الطلاب الذين ثاروا وأضربوا من أجل استقلال الجامعة وحرمة الأساتذة، وحملوا "طه حسين" على أعناقهم وهتفوا له، أن يكونوا من الوفديين.. كما يلاحظ أن صحيفة الوفد المعروفة «كوكب الشرق» التى يرأس تحريرها حافظ عوض ما فتئت تغازل "طه حسين" بعد فصله من عمله، حتى وهو يكتب فى صحيفة «السياسة»، فكانت تغطى أنباء الإضرابات بحماسة، وتكتب عن الحفلات التى أقيمت له، وتنقل نصوص خطب وكلمات المحتفين به.. وقيادة الوفد، التى كانت على ائتلاف مع الأحرار الدستوريين آنذاك، تتابع قلمه ومقالاته العنيفة فى مواجهة طغيان صدقى، وتبصر تزايد شعبيته بين قطاعات واسعة من الشباب.

ولأمرٍ ما، فإن سكرتير الوفد مكرم عبيد يقوم بزيارة طه حسين فى منزله فى الأسبوع الأخير من (فبراير ١٩٣٣)، ويحدثه طه عن الأوضاع العامة فى البلاد، ويبدى تفاؤله بأن «الشعب المصرى سيحقق ولا شك بكفاحه الاستقلال السياسى والحرية الاجتماعية»؛ فيلتقط مكرم الخيط، ويذكر له أن هذا يعنى تضافر جهود كل أبناء الشعب، وهذا يعنى أيضاً أن على قادة الرأى والفكر أن يتحملوا نصيبهم فيه، ثم يقترح على طه أن يشترك فى تحرير صحيفة الوفد المسائية «كوكب الشرق» فيطلب مهلة للتفكير،

وعندما يوشك طه أن يعتذر، يتدخل مصطفى النحاس رئيس الوفد لإقناعه، وبالفعل يقبل طه حسين ويستجيب لطلب زعيم الوفد[٢٥].

لذلك لا يلبث حافظ عوض رئيس التحرير أن يزف الخبر إلى قرائه على صفحة كاملة للكوكب فى (٨ مارس)، كما يشيد بـ"طه حسين" وبمواهبه وقدراته ومكانته، وذكر كذلك أن هذا الخبر يعتبر حدثًا سياسيًا جديرًا بالاحتفال به؛ فـ "طه حسين" سيشارك بقلمه فى الصحافة المصرية، وفى السياسة المصرية، وفى الأزمة المصرية الحالية.. ثم ينشر الكوكب فى العدد نفسه نص رسالة خطيَّة من زعيم الوفد يبدى فيها اغتباطه «باشتراك النابغة الكبير الدكتور "طه حسين" فى تحرير الكوكب على المبدأ الوفدى، الذى دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة الذى قامت عليه فى نهضتها نحو غايتها السامية فى الحرية والإستقلال»[٢٦]، وبالفعل انضم "طه حسين" لهيئة تحرير "كوكب *الشرق*"، وبدأ نشر مقالاته منذ (٩ مارس ١٩٣٣) .

وينبغى ملاحظة أن اتجاه "طه حسين" منذ هذه الفترة التى ارتبط فيها بالوفد وقياداته وصحافته لم يكن يعنى أنه تحول إلى عضو منتظم فى سلك حزب الوفد، باعتباره حزبًا سياسيًّا، أو أنه أصبح أحد كوادره أو حتى صار عضواً فى أى مستوى من تنظيماته، ولا أراد الوفد منه ذلك، فحسبه أن يكتب "طه حسين" فى صحفه وعلى هدى مبادئه وسياسته، وهو الأهم من العضوية بمعناها المحدد، ولعل "طه حسين" هو الآخر اكتفى فى علاقته بالحزب بصلاته وعلاقاته الشخصية مع زعمائه، فضلاً عن أن صحيفة الوفد واسعة الانتشار ستتيح له التعبير عن مواقفه وأفكاره لدى قاعدة جماهيرية واسعة، صار يحفل بها ويهتم لها، كما أن عمله المنتظم فى الصحيفة سيتيح له قدراً من الاستقرار المادى الذى يبتغي.. ومن المهم أن نلاحظ كذلك أن "طه حسين" أصبح على علاقة طيبة بالوفد وزعمائه، وحين اختلف مع حافظ عوض واستقال من صحيفة "كوكب الشرق" وبدأ يحرر فى صحيفة «*الوادى*» استمر فى مؤازرة *الوفد* وتبنى سياسته، حتى عاد إلى الجامعة، بل إن استمرار صلاته بالوفد هيأت له أن يكون وزيراً للمعارف العمومية فى وزارة مصطفى *النحاس* الأخيرة (يناير ١٩٥٠ - يناير١٩٥٢) كما هو معروف.

- ٣ -

لقد تفرغ "طه حسين" للكتابة الصحفية منذ أُبعد عن الجامعة، وأنشأ يكتب المقالات السياسية، فى صحيفة الأحرار الدستوريين «السياسة»، وانفرد بكتابة المقال الافتتاحى «حديث اليوم» بشكل شبه يومى تقريباً، إلى أن انتقل - كما رأينا - إلى صحيفة الوفد المسائية «كوكب الشرق»؛ حيث صار يكتب مقالها السياسى الافتتاحى «حديث المساء»، وكان يختار لمقالاته السياسية عنواناً موحداً يقع فى كلمة واحدة، على ما يظهر من عناوين مجموعة المقالات فى هذا المجلد، ليستطيع جذب انتباه قارئه ليتتبع الفكرة أو الأفكار الرئيسية وراء هذه الكلمة الملفتة للانتباه.

وعلى الرغم من أن المقالات السياسية تحتاج عادة إلى عناوين صاخبة وملفتة، فإن لغة طه حسين الهادئة لم تكترث للعبارات الصاخبة الرنانة التى تثير مشاعر القراء وتحرك عواطفهم، وإنما كان يغلب على أسلوبه الهدوء ومخاطبة العقل والإقناع بالحجة والمنطق. وكثيراً ما كان يلجأ العميد إلى السخرية اللاذعة، لكنها سخرية لا تخرج الأسلوب عن رصانته المعهودة وعن جذالة اللفظ ودقته.. لم ينضُ "طه حسين" عن نفسه ثوب الأستاذ الجامعى، رغم حدة مقالاته وعنفها أحياناً، فظل يفلسف الأمور بمنطق واضح مرة وبسخرية أخرى، ولم ينحدر طوال حياته الصحفية إلى شىء من المهاترة والتهجم والجدل العقيم، وإنما كان دائمًا عفَّ اللسان، رصين اللغة، كما امتاز أسلوبه بدقة التصوير وتحليل المعانى وتعليلها فى سهولة ووضوح، مما أثَّر كثيراً فى أسلوب معاصريه وتلاميذه، وارتقى بلغة المقال الصحفى.

وعلى الرغم من انخراط "طه حسين" فى كتابة المقال السياسى شبه اليومى، فإنه لم يهجر عالمه الأثير، عالم الأدب والفكر، فكان يوالى الصحف بمقالاته النقدية بين الحين والآخر، وقد صدر له خلال عام (١٩٣٢) كتاب «فى الصيف» الذى تضمن رسائله وأحاديثه عن رحلاته وأسفاره، كما صدر له عام (١٩٣٣) كتابه عن «حافظ وشوقى» فضلاً

عن تأليفه للجزء الأول من كتاب «على هامش السيرة» الذى صدر فى العام نفسه، ولم يكد يمر عام إلا ويصدر له كتاب جديد أو كتابان، بعضها مقالات جمعت، وبعضها أُلِّف تأليفًا مستقلاً.

وسوف نلاحظ أن مقالات "طه حسين" السياسية تضمنت بعض الموضوعات المكررة، أو أن بعضها يلخص فكرة لمقال سابق فى قضية ما ليستكمل الحديث فيها، فربما كان ذلك من شأن المقالات اليومية، وبخاصة إذا لم تكن مجرد عمود صغير، وإنما كانت مقالات تزيد عن ثلاثة أعمدة كبيرة أحيانًا، مع ما تقتضيه معالجة الموضوعات السياسية من الإلحاح على قضية أو مسألة بعينها، أو استجماع لعناصر موضوع ما من سياقات سابقة، أو حتى ملء الفراغ الذى يلتزم الكاتب بملئه يوميًا.

ينبغى التأكيد على أن الموقف السياسى لـ "طه حسين" خلال هذه الفترة من أوائل الثلاثينات (١٩٣٢- ١٩٣٣) كان موقف المعارضة من نظام صدقى، سواء كتب فى صحيفة الأحرار الدستوريين «السياسة» أو كتب فى صحيفة الوفد المسائية «كوكب الشرق»، وعمومًا كان الحزبان الكبيران مؤتلفَيْن ضد وزارة ونظام إسماعيل صدقى، وقد كتب "طه حسين" مقالاً مهمًا له مغزاه عنوانه «معارضة» أوضح فيه أن خصوم الوزارة ينكرون عليها أمرين أساسين: الأول أنها لم تحل الأزمة الاقتصادية الكبرى، وقد تساءل فى سخرية مريرة: وكيف يطلب منها أن تحلها والأزمة مصدر قوتها وحياتها؟ أليست الأزمة قد جعلت الناس جميعًا فى قبضة الحكومة يرغبون إليها ويشفقون منها؟ فلتبق الأزمة إذن لتبق الحكومة.. والثانى أنها لم تحل المسألة المصرية، «فهب أن الوزارة فاوضت الإنجليز، فإما أن تخفق فى المفاوضة فلا بد لها أن تستقيل، وإما أن تنجح فستخلى بين الأمة والوزارة، وما أعمق الهوة التى يخشى أن تتردى فيها الوزارة..»، ويسخر من صدقى فيقول: فاحذر أن تفرج الأزمة أو أن تحقق الاستقلال، وخل بينى وبين المعارضين، فإنى أرجو أن أكفهم عنك!»[٢٧].

ولم يكُف "طه حسين" طوال فترة معارضته للوزارة عن إثارة القضية الوطنية، فيطالب الحكومة أن تكون مفاوضاتها غير حزبية، وينطوى طلبه بطبيعة الحال على دعوة صدقى للاستقالة وتأليف وزارة قومية.. كما يؤكد أنه ينبغى للإنجليز ألا يفاوضوا إلا حكومة تمثل الشعب، وألا يعاهدوا إلا الشعب، كما يتوجه "طه حسين" بندائه إلى الملك بأن يأمر بتأليف وزارة قومية .. وكان هذا مطلب الأحرار الدستوريين، ويهاجم طه فكرة الحياد التى ذكرت بريطانيا أنها تتمسك بها تجاه السياسة المصرية، ويذكر أنها زعمٌ باطل «وأنها ليست إلا خيالاً، وأن الإنجليز لم يتركوا أمور مصر للمصريين، وأن استقلال مصر بأمورها ليس إلا وهمًا، ذلك أنهم يقولون فى صراحة مخزية أن غياب المندوب السامى عن مصر هو الذى يدعو إلى التردد فى تغيير الوزارة القائمة.. ويزعمون أن الملك إذا تردد فى تغييرها، فمن مصادر هذا التردد أن المندوب السامى غائب عن مصر !»(٢٨).

ويتهم "طه حسين" صدقى بأنه يستغل مسألة المفاوضة فى الأعوام الماضية، ويتخذ سعيه إليها وسيلة من وسائل البقاء فى الحكم، وأن الآمال تبددت بعدما ظهر أن لا مفاوضة، ولا شىء يشبه المفاوضة، وكان قلمه يتابع بدأب الاتصالات والمفاوضات الفاشلة التى تكتمها الوزارة، وكتب عن تسويف الإنجليز وصبر رئيس الوزارة، الذى التقى به وزير الخارجية البريطانى فى جنيف، «ومسَّ معه طرفًا من السياسة فى طرف من حديث وعاد رئيس الوزراء وقد تبلغ بهذا الطعام اليسير فتعلل به وصبر عليه..»، وطالب "طه حسين" بضرورة إلغاء الامتيازات الأجنبية باعتبار ذلك شرطًا لتمام السيادة القومية، وكتب أن إرجاء المفاوضات إلى أجل غير مسمى يؤذى الشعب المصرى فى مصالحه ومنافعه وحاجاته وآماله أكثر مما يؤذى شخص رئيس الوزراء، وبقاء الامتيازات يؤذى كرامة مصر واستقلالها أكثر مما يؤذى شخص رئيس الوزراء ..(٢٩).

ومن الموضوعات التى حظيت باهتمام "طه حسين" مهاجمة دكتاتورية وزارة صدقى، فدافع دفاعًا مستميتًا عن الحرية السياسية والفكرية، ودعا لتقديس الحريات

جميعًا وعلى رأسها حرية الرأى، وقد اتخذ من مصادرة الوزارة لكتاب «الخطيب البغدادى» مناسبة لفضح سياستها ومسلك وزارة الداخلية وتدخلها فى شئون الفكر والثقافة، كما هاجم موقف الأزهر المؤيد للحكومة فى هذا الشأن رغم تراجعه عن ذلك.. كذلك هاجم "طه حسين" مصادرة الحكومة لكتاب «عصر إسماعيل» لـ(عبدالرحمن الرافعى) وسحبه من المكتبات؛ لأن به نقدًا فى بعض نواحى عصر إسماعيل، ودافع "طه حسين" عن حق المؤلف فى قول مايعتقد صوابه، ووصم الحكومة بأنها لا تعترف بحرية الرأى، ووصف عهد صدقى أنه لايحب الحق ولايذوق حرية الرأى ولايستريح إلا إذا رسمت للناس آراؤهم ومذاهبهم فى العلم والعمل والسياسة والدين والتاريخ أيضًا(٣٠)، وعندما استعد الملك لزيارة الأزهر وتردد أن وزارة الداخلية هاجمت عددًا من رجاله، وأنها قبضت عليهم وراحت تحقق معهم قبل الزيارة الملكية، استنكر "طه حسين" ذلك، وطلب سؤال شيخ الأزهر عما تردد بأنه هو الذى أنبأ إدارة الأمن العام بأن هؤلاء العلماء كانوا يدبرون لتكدير صفو الزيارة الملكية، ويشير "طه حسين" إلى أن الشيخ التجأ إلى إدارة الأمن العام فى الصيف الماضى، فكلفها من مصادرة الكتب والاعتداء على حرية القلم شرًا ثقيلاً، ثم ظهر فيما بعد أنه ورط الوزارة حين استجابت له..(٣١).

وقد دافع "طه حسين" عن حرية الصحافة واتخذ من اعتقال وسجن محمد توفيق دياب مناسبة لفضح مسلك الوزارة تجاه حرية الصحافة وضيقها بها، وكتب أن حرية الرأى وحرية الصحافة لقيت من الوزارة شرًا كثيرًا، وأن الوزارة باعتدائها على كرامة الرأى تعامل المفكرين والصحفيين معاملة اللصوص وقطاع الطرق، ويدعو الصحفيين إلى التضامن للدفاع عن كرامة المهنة، بل ويقترح على الصحف أن تحتجب يومًا أو أيامًا احتجاجًا على مسلك الحكومة تجاه حرية الصحافة(٣٢).

ويتصل بقضية حرية الرأى مهاجمة "طه حسين" للوزارة بسبب مسلكها تجاه رئيس الوفد وزملائه، والحيلولة بينهم وبين لقاء الجماهير بشتى الوسائل والأساليب، بل وملاحقتهم ليس فقط فى السرادقات التى يقيمونها، وإنما فى المساجد التى يصلون

فيها، وأثار "طه حسين" فى أكثر من مقال مصادرة الوزارة لتحركات النحاس باشا والتضييق على تحركاته واستخدام البوليس والجيش فى ذلك، وقد سخر "طه حسين" من مهمة الجيش فى هذا الشأن، بل واستعدى الملك على ذلك باعتباره القائد الأعلى للجيش، وكتب أن الجيوش ماخلقت لذلك، وأن إظهار الوزارة هذه الألوان من الشدة والبأس سيثير الناس ويغرى بالشر، ويصف الحكم أنه حكم إرهاق وإرهاب، وقد فضح "طه حسين" مسلك الوزارة المشين عندما فصلت عربة القطار التى كان النحاس باشا يستقلها للقاء الجماهير بالصعيد، وألحقتها بجرار عاد بها وحدها إلى القاهرة، ووصف فعل الوزارة أنه «خطف لزعيم الأمة المصرية وصحبه»، كما سخر "طه حسين" من حشد الوزارة للجنود واستعداداتها العسكرية فى الطرق المؤدية إلى المساجد التى سيصلى فيها النحاس باشا، وتأهب الوزارة لمعركة حاسمة ككل المعارك التى تتأهب لها..!![٣٣].

أما عن فشل وزارة صدقى فى مهمتها السياسية ومهامها التنفيذية والإدارية، فقد نال قسطاً كبيراً من نقد "طه حسين" ومتابعته المستمرة؛ فإلى جانب فضحه لفشلها فى حل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى عانت مصر منها ومن تداعياتها أشد العناء، كتب عن رحلات رئيس الوزراء المتكررة إلى الخارج على حساب الخزانة المصرية، وإسراف الوزارة إسرافاً لا يتفق وما تعانيه مصر من أوضاع اقتصادية متردية، كما أبدى توقعه بقرب سقوط الوزارة فى (أغسطس١٩٣٢)، وعلى الرغم من أن الوزارة لم تسقط إلا بعد عام تقريباً من ذلك (سبتمبر ١٩٣٣)، فإن مقالات "طه حسين" كانت أحد المعاول التى أدت إلى سقوطها بعد فضح سياستها أمام الرأى العام[٣٤].

وكان من تداعيات الأزمة الإقتصادية إفلاس كثير من التجار وتخفيض مرتبات صغار الموظفين، واشتطاط الحكومة فى تحصيل الضرائب بأى صورة، وتوقيع الحجز على محاصيل الفلاحين، الأمر الذى نتج عنه تفشى جرائم السرقة والقتل والاعتداء على الناس وازدياد الحوادث بصورة دلَّت على اختلال الأمن، وأثبت عجز الحكومة عن حفظ

أرواح الناس وممتلكاتهم، وقد اتخذ "طه حسين" من ذلك كله مادة لمقالاته منددًا بالحكومة متهمًا إياها بالإهمال والتقصير، ومؤكدًا أنها منشغلة عن ذلك بحماية نفسها وبتعقب رئيس الوفد أينما ذهب.. ومن الموضوعات التى اهتم بها "طه حسين" فى هذا الشأن فشل الوزارة فى دراسة موضوع إنشاء خزان جبل الأولياء ومسألة تعلية خزان أسوان، فكتب بشأنها أكثر من مرة منددًا بعجز الحكومة عن دراسة العطاءات التى قدمت إليها وإذعانها لرأى الإنجليز فى هذا الشأن وخضوعها لإرادتهم، بل إن "طه حسين" يناقش تقرير وكيل وزارة المالية فى هذا الشأن ويفنده، ويستحث مجلس النواب أن يكون حرًا فى رأيه، وألا تؤثر فيه الاعتبارات السياسية(٣٥).

ويهاجم "طه حسين" صدقى باشا لتعديله الوزارة لكى يتخلص من الوزراء الذين خالفوه فى الحكم، ويسجل عليه فشله فى إقناع زملائه وأقطاب وزارته بسياسته، ولجوئه إلى ترقيع الوزارة أكثر من مرة، مما يسجل إخفاقه، ويرى أنه لا مخرج لصدقى باشا من هذا الترقيع إلا أن يستقيل ويدع السياسة لمن هم أقدر منه على تصريفها والنهوض بأعبائها، وحسبه أنه أخر رقى وطنه ثلاثة أعوام.. وقد سخر "طه حسين" من ائتلاف الوزارة (مع الحزب الوطنى وحزب الاتحاد)، وأنكر أن هناك حزبًا سياسيًا لرئيس الوزراء يمكن أن يسمى بهذ الاسم، ووصف صدقى أنه «ندَّ عليه كل شىء، وأفلت من يده كل شىء، وأصبح بقاؤه فى الحكم لغوًا من اللغو وفنًا من فنون العبث..»(٣٦).

ويُلاحظ أن "طه حسين" ابتدع تعبيرًا جديدًا فى مهاجمة نظام صدقى ومعارضته حين وصف هذا النظام أنه يمثل «مصر الرسمية» فى مواجهة الشعب أو «مصر الشعبية»، وذكر أنه ما أشد التناقض بين هاتين المصريتين اللتين تعيشان فى أرض واحدة وتتنفسان هواءً واحدًا، وتشربان من نهرٍ واحد: "مصر الرسمية" و"مصر الشعب"!.. لقد كانت "مصر الرسمية" فى نظره تتألف من الوزارة والإدارة والبرلمان، والأخرى مصر فحسب، التى يكونها الشعب المصرى الذى يتألم، ولكن الألم لا يصرفه عن

الأمل.. وقد كتب ساخراً من موقف الحكومة من المصريين، حيث تريدهم أن يكونوا «كقطعة العجين يشكلها الأقوياء كما يحبون، فلا يجدون منها مقاومةً ولا امتناعًا، وإنما يجدون منها مرونةً وطاعةً ولينًا.. يجب على المصريين أن ينكروا أنفسهم وينزلوا عن حقهم فى الحياة الحرة، ويرضوا بما قسم الله لهم من الذلة والخضوع، لا ينبغى لهم أن يلوموا الوزارة إن أخطأت أو قصَّرت أو شطَّت؛ لأن ذلك إحراج للوزارة وتجنٍّ عليها وخروج على النظام، ولاينبغى أن يشكوا ويتبرموا إن طغى الأجانب على مرافقهم واستأثروا دونهم بالخير فى بلادهم، لأن ذلك بغض للأجانب وكيد لهم !!»[٣٧].

المهم أن "طه حسين" لم يكُف قلمه عن وزارة صدقى حتى سقطت بالفعل فى (سبتمبر١٩٣٣)، وعندما تولى خليفته عبدالفتاح يحيى (سبتمبر ١٩٣٣- نوفمبر ١٩٣٤)، وكان رئيسًا لحزب الاتحاد المؤتلف مع صدقى وحزب الشعب، رأى "طه حسين" أن هذه الوزارة الجديدة تمثل امتداداً لسابقتها، بل إنها «ذيل من ذيول وزارة صدقى»، وكتب أن صدقى باشا مازال يحكم ومتسلط على الوزارة يملى إرادته عليها، ولايكُف "طه حسين" عن انتقاد هذه الوزارة ووزارة صدقى السابقة، بل يطالب الوزارة الجديدة بالتحقيق فى مفاسد العهد السابق ويحدد الموضوعات التى مست نزاهة الحكم وأهمها تدخل صدقى فى سوق القطن سراً وهو رئيس وزارة، وإرساؤه عطاء الكورنيش على الإيطاليين، وبطش مدير الدقهلية بالناس فى مديريته.. إلخ. ويتهم "طه حسين" الوزارة الجديدة بالعجز عن حفظ الأمن وسلامة البلاد، ويتحدث عن تجاوزات العهد الجديد.. ويصف عبدالفتاح يحيى أنه ليس رجل حرب ولا سياسة ولا رياسة، وإنما هو رجل سلم وهدوء وترف واستمتاع بنعم الحياة، ويظل "طه حسين" ينعته بتعبير ينطوى على قدر من السخرية يصفه أنه «رجلٌ طيبٌ» عبء الحكومة عليه ثقيل وفادح وأثقل من أن يحتمله..!![٣٨].

ومن القضايا المهمة التى تناولتها مقالات "طه حسين" قضية الديمقراطية والحكم الدستورى، وقد دافع عن ذلك دفاعًا حاراً ومستمراً، وكم كتب يهاجم صدقى لإلغائه

دستور الأمة (دستور١٩٢٣)، ويهاجم إصداره لدستور جديد يحد من سلطة الأمة، ويضيق كثيراً من الحريات.. وقد اتهم نظام صدقى أنه ضاق بالديمقراطية وبحرية الشعب، ولكنه سيبوء بالهزيمة والخذلان كما باء مَنْ سبقه؛ لأن الديمقراطية أقوى من أن تغلب وأصلب عوداً من أن تحطم؛ لأنها صورة لإرادة الشعب ومظهر قوته، ومن المستحيل أن يستطيع الفرد مهما تعظم قوته أن يقهر شعبًا كاملاً، كذلك كتب "طه حسين" أن رئيس الوزراء قد أقسم يمين الولاء للدستور القائم عندما نهض بشئون الحكم، وكان فى مصر برلمان أنشأه هذا الدستور، وكان من الحق على كل من يؤلف الوزارة أن يتفق مع أحزاب هذا البرلمان ويسعى للظفر بثقته، ولكن رئيس الوزراء لم يرع هذا الأصل الدستورى يوم ألَّف وزارته، ولم يذعن للدستور ولم يرع حرمته.. كما كتب "طه حسين" ساخراً من أنه تعود أن يرى الوزارات تحل المجالس النيابية فى مصر، ولم يتعود أن يرى المجالس تسقط الوزارات[٣٩] ! وعمومًا لم يكف "طه حسين" قلمه عن دستور صدقى والبرلمان القائم على أساسه، حتى عاد للأمة دستورها بالفعل فى أعقاب سقوط نظام صدقى كما هو معروف عام (١٩٣٥).

ومن الأحداث المهمة التى شهدتها هذه الفترة وساهم فيها "طه حسين" بقلمه، ظهور موجة من حوادث التبشير (التنصير) عام (١٩٣٣)، قامت بها بعض البعثات الدينية الأجنبية مستترة خلف أمور كالتعليم والتمريض، وكانت تستهدف حمل بعض الأفراد على اعتناق الدين المسيحى إن كانوا مسلمين أو تغيير المذهب والخروج على الكنيسة القبطية إن كانوا مسيحيين، وقد أثارت هذه الموجة ضجة، وكان لها رد فعل عنيف عند المسلمين والأقباط الأرثوذكس على حد سواء، وخاضت الصحف فيها كثيراً.. وقد حمل "طه حسين" على التبشير والمبشرين حملات عنيفة، متهمًا الحكومة بالتقصير فى حماية الأمة من عدوان المبشرين، كما اتهم رجال الدين بالتهاون فى مكافحة المبشرين، ورأى "طه حسين" أن العلاج الصحيح لأمر المبشرين إنما يكون بإخضاع مدارسهم ومدارس غيرهم من الأجانب للمراقبة المصرية الدقيقة بحيث

يستطيع المفتشون المصريون أن يختلفوا إليها ويمتحنوا تلاميذها، فإن آنسوا من بعض هذه المدارس خروجًا بالتعليم عما يلائم مصر وحاجتها وكرامتها ودينها آذنوا وزارة المعارف بهذا الخروج، وأنفذت الوزارة في هذه المدارس حكم القانون.

ثم توجه "طه حسين" بأحاديثه إلى المبشرين الأجانب وسألهم: فما بال الأجانب عندنا لا يرعون حرمة الضيافة والجوار؟ وما بالهم لايرعون الحق الذى يفرضه القانون.. وما بالهم يلحون فى إكراه المسلمين على أن يخرجوا من دينهم ويستبدلوا منه دينًا آخر؟. ووصفهم أنهم أتوا هذا المنكر فى وَضَح النهار، وتحت سمع الحكومة وبصرها، وفى بلد إسلامى يجب أن يعز فيه الإسلام ولا يذل، ويجب أن لا تكون حرية أهله عرضة لعبث الأجنبى وعدوانه، وطالب أن تغلق كل مدرسة يعمد أصحابها إلى غير التعليم، ويجب أن ينفى عن أرض مصر كل مبشر يحاول أن يفتن الناس فى دينهم، وينتهز "طه حسين" الفرصة ليصف الحكومة أنها تعتمد على الأجانب أكثر مما تعتمد على المصريين، وتحرص على إرضائهم أكثر مما تحرص على إرضاء المصريين.. وتؤثر إرضاء الأجانب على أن تحمى دينها الرسمى الذى تزعم أنها قامت لتحميه وتعلى كلمته..(٤٠).

ويُلاحظ أن "طه حسين" بدأ يهتم على نحو واضح بقضايا العمال والفلاحين، مع ازدياد اقترابه من الوفد وجماهيره، "فشغلته مسألة استغلال الشركات الأجنبية للعمال المصريين، وإضرابات العمال، كما اهتم بإرهاق الحكومة للفلاحين بالديون، وقد أبدى انتقاده الحاد لمسلك الشركات الأجنبية التى تمتص خير العمال وأرباحهم، وطالب الحكومة أن تتدخل لحمايتهم، وأن تحمى الكرامة القومية، بل ينبه "طه حسين" الحكومة إلى أن العامل المصرى مازال متواضعًا لم يتورط فى غلو ولا إسراف، وإذا كان شعور العامل الأوربى بوجوده وإسرافه فى هذا الشعور ومطالبته بحقوقه قد أنشأ مذاهب فى السياسة والاقتصاد، فإننا نكره أن تنتشر فى مصر، ونحب أن يتأخر انتشارها إلى أبعد أجل ممكن..». لقد كان "طه حسين" يحذر الحكومة من انتشار المذاهب الشيوعية بين

صفوف العمال في ظل مناخ الاستقلال، وكان يرى أن الوقت الذى كان يسخر فيه العمال قد انقضى، ولم يعد العمال يستغلون كما تسخر أدوات العمل وتستغل؛ «فالعامل شيء والأداة شيء آخر، والعمال شركاء في حقيقة الأمر لأصحاب رؤوس الأموال في استغلال أدوات العمل، وإذا كان هذ الفهم للعلاقة بين العمال والشركات لم يظهر في مصر على وجهه إلى الآن، فقد أصبح من الحق على الشركات وعلى الحكومة أن تعترف به..».

وتوجه طه حسين إلى الحكومة يطالبها بإصلاح أوضاع الفلاحين وإزالة أسباب شقائهم، وتساءل في سخرية واستنكار: هل للحكومة أن تطلب، وعلى الفلاَّح أن يدفع؛ لأن الله إنما خلق الناس ليمتص بعضهم دماء بعض، وليسعد بعضهم بشقاء بعض، والحكومة محتاجة إلى المال لتؤدى الدين للأجانب، وشقاء الفلاح وعناؤه وتعرضه للأوبئة المهلكة والأمراض الفاتكة والحرمان، كل ذلك أهون وأيسر من غضب الأجنبي، ومن سوء ظنّه بنا !.. ولكننا فلاحون، وهل خُلِقَ الفلاحُ إلا ليتألم ويشكو ويئن؟ وما حياة الفلاح إذا لم تكن أنيناً متصلاً مع الدهر يصورها تاريخه المحزن الطويل؟

وكان "طه حسين" في كل مقالاته عن العمال والفلاحين يطالب الحكومة أن تتدخل لحمايتهم، ويرى أن ذلك من أهم مسئولياتها، حماية لأمن الوطن وسلامه الاجتماعي؛ «.. فالحكومة أُنشِئت لتقيم العدل بين الناس، وتنتصف للمظلوم، من الظالم، وتحمى الضعيف، من القوى، وتحقق المنافع العامة..»[٤١].

لقد كان عميد الأدب العربي يصدر في مقالاته عن شعور وطني فياض، يمتلك عليه قلبه وعقله ويفيض به قلمه؛ فرغم إيمانه بضرورة الاستفادة مما عند الأوربيين والأجانب عموماً من علم وحضارة، فإنه كان يؤمن كذلك بضرورة التنبه لعدم استغلال المصريين والحيلولة دون تقدمهم ونهضتهم بالاعتماد على الأجانب، دائماً، وفي كل شيء.

وعندما كتب عن النظام الجديد الذى أخضعت الحكومة الجامعة له، والذى أبعد بموجبه الأساتذة المساعدون المصريون عن مجلس الجامعة، مما جعل الأجانب وكبار الموظفين يقضون فى شئون الجامعة، رأى طه حسين أن هذا الأمر ليس فيه احترام للعقل المصرى، كما أنه يحول دون كفاءة المصريين، ولايهيئ مصر لاحتمال التبعات، ويجعل الأجانب يستذلون علماء مصر برضى حكومتهم المصرية ! وظل "طه حسين" يناقش خطورة سيطرة الأساتذة الأجانب على الجامعة المصرية وعلى مجالسها، ويربط بين استقلال الوطن وتمصير الجامعة؛ «فطبيعة الاستقلال تقتضى أن يشترك المصريون بالعمل فى إدارة شئونهم، فالجامعة ارتفعت فى الأعوام الأخيرة، وأثبتت لنفسها شخصية جامعية بفضل الأساتذة المصريين وحدهم فى أغلب الكليات، والمصرى أعلم بجامعات بلاده وأعلم بمناهج بلاده فى الإدارة من الأجنبى الطارئ الذى لايقيم فيها إلا قليلاً..».

وعندما كتب عن استبعاد الحكومة لكتاب «الرافعى» عن عصر إسماعيل، تحدث فى ألم شديد أن الحكومة تشترى الكتب التى يضعها الأجانب فى تاريخ مصر، ويُباع المجلد منها بعشرات الجنيهات، تشترى عشرات النسخ وربما مئات، بينما تحجر على كتاب أستاذ مصرى «يجب أن يتعزى الأستاذ "الرافعى" أنه مصرى، وأن المصرى غريب فى بلاده الآن..». وقد رأينا "طه حسين" يهاجم وزارة صدقى لطغيان الأجانب على مرافق البلاد واستئثارهم بالخير دون المصريين، واتهمها بمحاباتهم وخشيتها من إغضاب دولهم، كما اتخذ من إضراب العمال المصريين فى الشركات الأجنبية مناسبة للحديث عن استغلال الشركات لهم، ونكوص الحكومة المصرية عن الدفاع عن مصالحهم[٤٢].

ولأن أزمة "طه حسين" مع السياسة كانت فى جوهرها هى أزمة السياسة مع العقل، تريد إخضاعه وإذلاله، وقد رأينا كيف عانى "طه حسين" من محنة إخضاع السياسة لفكره الحر، فإن خير مانختتم به هذه الدراسة هو الإشارة إلى مقال مهم

لـ "طه حسين" كتبه تحت عنوان «إذلال» ربما كان أفضل تلخيص لقضيته مع السياسة ومعاناته منها، يقول فيها: «ويل للناس من السياسة، لقد طغت عليهم وبغت فيهم حتى اضطرتهم أن ينكروا أنفسهم وتاريخهم ومجدهم القديم..»، وبعد أن يحدثنا عن معاناة العقل ومحنته مع الأنظمة النازية والفاشية والشيوعية فى كل من ألمانيا وإيطاليا وروسيا، تلك الأنظمة التى أصرت على أن ينزل العقل عن شخصيته، وأن يكون مرنًا رخواً، يتشكل بالأشكال التى تريده السياسة بها.. يرى "طه حسين" أنه لا بد لمصر أن يمتحن فيها العقل كما يمتحن فى هذه البلاد الراقية، ولا بد للسياسة أن تذلَّ العقل فى مصر كما أذلته فى ألمانيا وإيطاليا وروسيا؛ لأن مصدر طغيان السياسة واحد فى هذه البلاد، هو سخط على الديمقراطية وإنكار لها وتبرم بها ومحاولة لتطهير الشعوب منها.. وحياة الحكومة والجامعة فى مصر حرب متصلة بين السياسة والعقل، وقد انتصرت السياسة على العقل انتصاراً مؤزرًا[٤٢]، لكن "طه حسين" رغم هذه السخرية المرة لم ييأس ولم يُلقِ السلاح.

وأخيراً، لقد قُدِّر لعميد الأدب العربى أن يعود لجامعته فى أواخر عام (١٩٣٤)، أستاذًا، فعميداً لكلية الآداب - مرة أخرى - فمديراً للجامعة، ثم وزيراً للتعليم فيما بعد، ليستأنف معاركه من أجل حرية العقل والبحث العلمى، مع السياسة بكل أشكالها، وقصة "طه حسين" مع السياسة والعقل بعد عام (١٩٣٤) تحتاج إلى دراسة أخرى على كل حال.

هوامش الفصل الثانى ومصادره

(١) ضمنها كتابه "رحلة الربيع والصيف" الصادر فى بيروت ١٩٥٧، وهي النسخة التي رجعنا إليها.

(٢) أحمد زكريا الشلق: "طه حسين وقضية التغريب"، ص٢٨٧، وراجع كتاب: محمد أحمد الغمراوى: "النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى"، طبعة بيروت المصورة ١٩٨١، ص١١- ١٤.

(٣) راجع نصوص جلسات مجلس الشيوخ والنواب بكتاب نجاح عمر: "طه حسين أيام ومعارك"، المكتبة العصرية ببيروت، (بدون تاريخ) ص١٥٣ - ١٨٣.

(٤) محمد حسن الزيات: "ما بعد الأيام"، ص٤٨.

(٥) راجع رثاء طه لثروت بكتاب "رحلة الربيع والصيف" ١٨٨ -١٩٩، وكذلك مقالته في صحيفة المقتطف ديسمبر ١٩٢٨ بعنوان «ثروت» ص٣٦٥ ومابعدها.

(٦) الزيات: المرجع نفسه ص ٤٨ - ٤٩، وراجع تعليق لويس عوض: الحرية ونقد الحرية، حيث يصف هذا الحل أنه حل أعرج، ولكنه بغير شك يحتوى على بذرة المقاومة. ص ٩ - ١٠.

(٧) محمد حسين هيكل: "مذكرات في السياسة المصرية"، الجزء الأول، النهضة المصرية ١٩٥١، ص ٣٣٠ - ٣٣٥.

(٨) يلاحظ أن وزير المعارف كان مراد سيد أحمد الذى شغل المنصب من بدء تأليف وزارة صدقى ثم استبدل بحلمى عيسى منذ ١٠ يونيو١٩٣١ .. وراجع الزيات: المرجع نفسه، ص٦٢ ـ ٦٣.

(٩) رؤوف عباس حامد: "جامعة القاهرة، ماضيها وحاضرها"، جامعة القاهرة ١٩٨٩، ص١٤١ - ١٤٢.

(١٠) راجع الزيات: المرجع السابق ص٦٤ -٦٥، لويس عوض: المرجع السابق ص١٠، عبد المنعم الجميعى: طه حسين والجامعة المصرية، دار الكتاب الجامعي بالقاهرة ١٩٨١، ص٥١ - ٥٢، ويلاحظ أن الوظيفة التى نقل إليها كانت كبير مفتشى اللغة العربية ليحل محل الشيخ محمد حسنين الغمراوى.

(١١) الجميعى: المرجع السابق، ص٥٥، رؤوف عباس: المرجع السابق ص ١٤٤.

(١٢) لويس عوض: "الحرية ونقد الحرية" ص٧ -١٠، رؤوف عباس: المرجع السابق ص١٤٣.

(١٣) نص استقالة لطفى السيد بملاحق كتاب الجميعى، السابق، ص٨٠ -٨١.

(١٤) رؤوف عباس: المرجع السابق ص١٤٢، الجميعى: السابق، ص٥٢- ٥٣.

(١٥) "السياسة" ٧ مارس ١٩٣٢ (استجواب الجامعة).

(١٦) مضـــابط مـجـلس النـــواب، الهيـئة النيـابية التاسـعة عشر، والجلسـة الرابعة والعشرين فى ٧، ٢٨ مارس ١٩٣٢.

(١٧) سامى الكيالى: مع طه حسين، ص٦٠ – ٦١، محمد حسن الزيات: "مابعد الأيام" ص ٦٨.

(١٨) سوزان طه حسين: "معك" ص٩٨ – ١٠٥ وفيه تصوير لحالة طه حسين السيئة وتأثير المحنة عليه.

(١٩) المصدر السابق، ص١٠٠.

(٢٠) رجاء النقاش: "أدباء معاصرون" ص ٤٦ – ٥٢.

(٢١) لويس عوض: "الحرية ونقد الحرية"، ص ١١ – ١٢.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٢ – ١٤.

(٢٣) لويس عوض، السابق، ص١٥، هـ (١) والكتاب صدر عام ١٩٧١، وكان العميد حيًّا يرزق، وكان يتابع الأهرام وهى تنشره فى شكل مقالات قبل أن يجمعه لويس عوض فى كتابه.

(٢٤) راجع رجاء النقاش، المرجع نفسه، ص٥٢.

(٢٥) الزيات: المرجع السابق ص٧٢، وسامح كريم: "ماذا يبقى من طه حسين؟" دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٥ ص٩٢.

(٢٦) "كوكب الشرق" فى ٨ مارس ١٩٣٣.

(٢٧) "السياسة" فى أول يوليو ١٩٣٢.

(٢٨) "السياسة" فى ٦، ٨، ١٣ يوليو ١٩٣٢، "كوكب الشرق" ٢١ مايو ١٩٣٣.

(٢٩) "كوكب الشرق" ٢٨ مارس، ٢١ مايو، ٢٢، ٢٣ يونيو ١٩٣٣.

(٣٠) "السياسة" ٢٥، ٢٦، ٢٧ يوليو، ٧ أغسطس ١٩٣٢، "كوكب الشرق" ٢٥ مارس ١٩٣٣.

(٣١) "كوكب الشرق" ٤، ٥ أبريل ١٩٣٣.

(٣٢) "كوكب الشرق" ١٢، ٢٥ مارس ١٩٣٣.

(٣٣) "كوكب الشرق" ٢٦، ٢٧ مارس، ٦ أبريل، ٦ مايو ١٩٣٣.

(٣٤) "السياسة" ١٩، ٢٢ يوليو، ٣، ٤ أغسطس ١٩٣٢.

(٣٥) "كوكب الشرق" ٤، ٦ مايو ١٩٣٣.

(٣٦) "كوكب الشرق" ٢٤ مارس، ٢٥ أبريل ١٩٣٣.

(٣٧) "كوكب الشرق" ١٤ مارس، ٢٥ يونيو ١٩٣٣، ٢٨ يونيو ١٩٣٣.

(٣٨) "كوكب الشرق" ٦، ٢٠ أكتوبر، ٢٥ أكتوبر، ١٠ نوفمبر، ١٧، ٢٢، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٣.

(٣٩) "كوكب الشرق" ٩، ٢٧ أبريل، ٣ مايو ١٩٣٣.

(٤٠) "كوكب الشرق" ١٠يونيو، ١٢، ١٦، ١٨ يونيو ١٩٣٣.

(٤١) راجع بشأن مقالاته عن العمال والفلاحين "كوكب الشرق": ١٢، ٢٠ مايو، ١٧ يونيو ١٩٣٣.

(٤٢) "كوكب الشرق" ٢٥ مارس، ١٩، ٢٧ مايو، ٢٥ يونيو ١٩٣٣.

(٤٣) "كوكب الشرق" ١٩ مايو ١٩٣٣.

الفصل الثالث

طه حسين وثورة يوليو: بين الرجاء واليأس

«لست أحب للأدب أن يكون لافتة سياسية، وينبغى الحذر من الخلط بين اشتغال الأديب بالسياسة كأى مواطن، وتحويل أدبه إلى دعاية سياسية. للأدب ردود فعله السياسية وأصداؤه الاجتماعية، دون تخطيط أو توجيه أو إلزام، فالضمير الفردى الحر هو قيمة القيم فى حياة الأديب وأدبه...»

من حديث "طه حسين" إلى غالى شكرى فى أوائل عام ١٩٧٣، نشره بكتابه «ماذا يبقى من طه حسين»

نود فى البداية أن نشير إلى بعض المسائل التى تتصل بموضوع دراستنا هذه التى تعنى «بتطورات» "طه حسين" نفسه، منها أن عميد الأدب العربى عاش حياة طويلة وحافلة، سواء حياته هو أو من حياة مصر، كان فيها ملء السمع والبصر، وكان حضوره طاغيًا ومؤثرًا، ومن الطبيعى أن ننظر إلى طبيعة هذه الحياة فى تحولاتها المختلفة، فى ضوء ثوابتها ومتغيراتها على حد سواء، وعلى ذلك لا ينبغى أن نصدر أحكامًا تتناول مرحلة من مراحل هذه الحياة الممتدة والخصيبة دون وعى ببقية المراحل الأخرى، ومن هذه المسائل أيضًا، أننا لا ينبغى أن نحكم على شخصية تاريخية بمقياس عصرنا، أو فى ضوء ما حدث بعدها من تطورات، وإنما ننظر إلى مواقفها وآرائها ونتائجها بالنسبة لعصرها هى، أو قياسها إلى ما قبلها، حتى نحسن فهم وتقدير

ما أنجزته خير فهم وخير تقدير، ومنها أيضًا أننا ندرس «إنسانًا» تتغير أساليبه ولهجته، وطبيعة نشاطه من مرحلة عمرية إلى أخرى، ولا يعنى ذلك تبريراً للتحولات أو التماساً للمعذرة، وإنما يعنى تفهم أن لكل مرحلة قدراتها وطاقاتها، وأيضًا متطلباتها وطبيعتها، وإلا فَفِيم كان «اندفاع» الشباب و «حكمة» الشيوخ؟

وينبغى أن نتذكر أن ثورة (٢٣ يوليو ١٩٥٢) عندما قامت كان "طه حسين" قد جاوز الثالثة والستين من عمره (ولد عام ١٨٨٩)؛ أى أنه قد تأهب لمغادرة الكهولة واستقبال الشيخوخة، بعد أن أثخنته جراح معارك إنسانية فكرية وسياسية ينوء بحملها أقوى الرجال وأشدهم بأسًا، بدءًا من معركته مع عاهته، وحتى معركته فى مجلس وزراء حكومة الوفد الأخيرة (١٩٥٠-١٩٥٢) من أجل تعميم التعليم ومجانيته.

— ١ —

وحتى نستطيع أن نتفهم موقف "طه حسين" من ثورة يوليو، نرى أن نلم من سيرته بما يتصل بنشاطه العام، وخصوصًا ما يتصل منها بمجال نشاطه فى شأن «سياسة» التعليم والثقافة ووزارة المعارف، منذ عاد إلى الجامعة فى أواسط (ديسمبر عام ١٩٣٤) مستعيداً وظيفته وأستاذيته ومكانته بعد فوزه فى صراعه المرير ضد نظام إسماعيل صدقى وطغيانه. فالمعروف أنه بعد عودته انتُخِبَ عميداً لكلية الآداب مرة أخرى فى أواخر مايو عام (١٩٣٦)، ومصر تستقبل عهداً جديداً اتفق فيه زعماؤها السياسيون على تشكيل جبهة وطنية للتفاوض مع الإنجليز لتوقيع معاهدة (١٩٣٦)، وقد ظل "طه حسين" فى منصبه عميداً لكلية الآداب حتى عام (١٩٣٩)، عندما ترك المنصب فى عهد وزارة محمد محمود باشا الرابعة (يونيو ١٩٣٨- أغسطس ١٩٣٩) التى لم توافق على تجديد عمادته رغم تمسك مجلس الكلية به، فظل الأستاذ يلقى دروسه بالكلية وينشر الفصول والمقالات ويعكف على تأليف كتبه وبحوثه.

وقد أتيح له بعد ذلك أن يتولى وظيفة جديدة كان يتوق إليها، عندما انتدب ليشغل منصب «المراقب العام للثقافة بوزارة المعارف»، ولم تكن مصر قد عرفت وزارة للثقافة آنذاك، فكانت هذه الإدارة بمثابة وزارة مصغرة للثقافة. وعمومًا كان تولى "طه حسين" هذه الوظيـفـة بداية لسلَّم من الوظائف الإدارية ارتقـاه "طه حـسين" الإدارى، لا "طه حسين" الأستاذ، ذلك السُلَّم الذىً بلغ به منصب الوزير عام (١٩٥٠) كما هو معروف.

وسَعِدَ "طـه حسـين" بتـلك الـوظيـفـة الـتى رأى أنه يستطيع من خلالها أن يحقق أفكاره عن التعليم والثقافة، تلك الأفكار التى سجل بعضها فى كتابه الخطير «مستقبل الثقافة في مصر» الذى أصدره قبل عام من توليه وظيفته الجديدة. وكان لديه اعتقاد أن وجوده على رأس هذه الإدارة سيتيح له فرصة تنفيذ ما كان يحلم به بشأن مجانية التعليم ورفع مستواه، ونشر الثقافة من خلال إنشاء إدارات للترجمة والنشر، وتطوير دور الآثار والإشراف عليها وتمصير مناصبها، وتفعيل شئون المسرح والموسيقى والأوبرا.

ورغم جهود "طه حسين" الكبيرة التى قام بها خلال توليه منصبه كمراقب عام للثقافة بوزارة المعارف، والذى ظل يشغله لثلاث سنوات (١٩٣٩-١٩٤٢)، فإنه لم يكن مقتنعًا بنظرة وزارة المعارف إلى شئون الثقافة، وربما لم يكن مقتنعًا بصلاحيات دوره فى الوزارة، فرغم أنه كان موظفًا كبيرًا بها، فإنه كان يمتلك سمت الوزير، وربما لم ينسجم فى عمله مع صديقه الدكتور محمد حسين هيكل الذى كان وزيرًا للمعارف آنذاك، خلال عهد وزارات الأقلية غير الوفدية، التى يكشف تعاون "طه حسين" معها عن ضعف «وفديته». ويذكر لويس عوض أن الناس كانوا يتحدثون عن منصبه فى وزارة المعارف وكأنه وسام على صدره.

وعندما عاد حزب الوفد إلى السلطة خلال الأزمة التى عرفت بحادثة (٤ فبراير ١٩٤٢) الشهيرة، رشحه وزير المعارف الجديد، أحمد نجيب الهلالى، الذى كان مستنيرًا، لمنصب جديد فى الوزارة، وهو منصب «المستشار الفنى لوزارة المعارف»؛

فظل يشغل هذا المنصب حتى سقوط الوزارة الوفدية فى (أكتوبر ١٩٤٤)، أى بعد ما يزيد على ثلاث سنوات، كان "طه حسين" فيها بمثابة الوزير الفعلى فى الوزارة، رغم أن الهلالى باشا كان من أقوى الوزراء، كما كان من أساطين القانون فى مصر. المهم أنه بسقوط هذه الوزارة أحيل "طه حسين" إلى المعاش.

ويسجل له التاريخ أنه كان خلال عهد هذه الوزارة جمَّ النشاط، ففى خلال هذا العهد أنشأ جامعة الإسكندرية، وقد انتُدبَ مديرٌ لها، حيث عكف على إرساء دعائمها وتنظيم دراساتها وإعداد كوادرها ووضع تقاليدها، حتى استوت بفضله جامعة من أرقى الجامعات، وكذلك استحدث "طه حسين" فى هيكل التعليم العالى تغييرات جذرية أخرجت إلى السطح ذلك الصراع الدفين بين ديمقراطية التعليم ورأسماليته، وهو صراع سياسى فى حقيقته، وقد كان من قبل، يرتدى أقنعة تربوية تتطاحن من ورائها المصالح الطبقية والصراعات الاقتصادية على المستوى الاجتماعى.

أُبعدَ "طه حسين" عن المناصب وعن السلطة خلال السنوات التالية (١٩٤٥-١٩٥٠) انشغل خلالها بالإشراف على «دار الكاتب العربى» من (أكتوبر ١٩٤٥ حتى مايو ١٩٤٨)، تلك الدار التى كان يملكها أربعة من اليهود المصريين الميسورين (من آل هرارى)، والذين تعاقدوا معه ليكون مستشاراً للدار والمتصرف فى شئونها الثقافية، وقد استطاعت هذه الدار أن تصدر خلال هذه الفترة أهم مجلة شهرية ثقافية فكرية عرفتها مصر آنذاك، كما نشرت عشرات من الكتب المؤلفة والمترجمة من أرفع مستوى، وقد توقفت هذه الدار عن نشاطها بعد أن شنت عليها الصحف حملة اتُهِمَت فيها أنها تعمل رأس رمح لليهود فى مصر، وأن الصهيونية العالمية تمولها بقصد استيعاب المثقفين المصريين والعرب فى تيار ثقافى مشبوه.

واستطاع "طه حسين" أن يرد على هذه الحملة مسفهًا أصحاب هذا الاتهام، متمنيًا أن يُبلى أصحابه بلاءه فى خدمة العروبة، وأضاف «وليس أدل على أنى أساعد الصهيونية من أن أقوم بإحياء الأدب العربى القديم، وأنشر أشياء تتصل بعلوم القرآن

الكريم، فأى مساعدة للصهيونية أقوى من هذا...؟[1] وقد علق لويس على هذا الاتهام بقوله «إننا كنا خلال تلك الأيام ننظر إلى اليهود المصريين باعتبارهم مصريين، ونفصل بين اليهود والصهيونية، وقد سرت شائعة بأن الحكومة هددت (آل هرارى): إما أن تفصلوا "طه حسين"، وإما أن نعتقلكم ونغلق دار النشر التابعة لكم بوصفكم صهيونيين، فالإشكال إذن لم يكن فى دار الكاتب العربى، وإنما فى "طه حسين" الذى كنا نعلم أنه مطارد من الحكومة فى تلك الآونة...[2]، ولعلنا نتساءل فى استنكار – مع رجاء النقاش – هل كان "طه حسين" بهذه الدرجة من السذاجة ونقص الوطنية بحيث يقع فى هذه المصيدة؟[3].

ويبدو أن التطورات السابقة قد أثرت فى نفس "طه حسين"، فانتابته حالة من الكآبة والإحساس بالعزلة، وخصوصًا أن مصر شهدت موجة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، مع فشل وزارة محمود فهمى النقراشى فى حل القضية الوطنية، مع ازدياد أوتوقراطية القصر، وفى ظل خيبة الأمل لما أصاب الجيش المصرى فى حرب فلسطين عام (١٩٤٨)، ثم موجة الغضب التى راح ضحيتها عدد من رجال القضاء والسياسة، وصلت ذروتها باغتيال النقراشى باشا نفسه فى نهاية ذلك العام، وتولية إبراهيم عبدالهادى رئاسة الوزراء، وكان رئيسًا للديوان الملكى، حيث مارس حملة شعواء على الإخوان المسلمين والشيوعيين جميعًا.. كل هذه التطورات السيئة دفعت "طه حسين" إلى حالة من اليأس والقنوط نحو عام (١٩٤٩)، حتى لقد فكر فى أن يهجر مصر، وأن يقيم فى فرنسا إقامة دائمة.

ورغم ابتعاد "طه حسين" خلال السنوات السابقة عن السياسة العملية واعتزال المناصب العامة، فإنه قد ركز اهتماماته على عالم الفكر والأدب والثقافة، كما يرى لويس عوض أن العميد اتجه خلال هذه السنوات بشكل مطرد من الليبرالية إلى الراديكالية والانحياز إلى اليسار المعتدل، وكانت قصص مجموعة «المعذبون فى الأرض» التى نشرت فى كتاب عام (١٩٤٩) آية من آيات هذا الاتجاه نحو الراديكالية

والتعاطف مع الفقراء أكثر من التعاطف مع الطبقات المتوسطة، والمعروف أن هذا الكتاب قد تمت مصادرته ولم يفرج عنه إلا بعد قيام الثورة[٤]، وإن كان هذا الاتجاه من جانب "طه حسين" قد بدأ بالفعل منذ نشر رواية «أحلام شهر زاد» عام (١٩٤٣)، واستمر واضحًا فى كتاباته ومقالاته فى النقد والأدب والتربية التى نشرت فى كتبه «جنَّة الشوك» (١٩٤٥) و«مرآة الضمير الحديث» (١٩٤٨) ثم «جنَّة الحيوان» (١٩٥٠)، والتى رأى البعض أنها تحرض على الثورة وتدعو إليها وإن غلَّفت دعوته بالرمزية.

والواقع أن هذا الاتجاه من جانب "طه حسين" كان يتفق مع طليعة شباب الوفد آنذاك، تلك الطليعة التى تبنت ألوانًا مخففة من الاشتراكية، واشتركت مع التيارات الشيوعية فى مقاومة القصر وحكومات الأقلية السياسية التى وليت الحكم منذ طرد الوفد ووزارة (٤ فبراير) من السلطة.

لقد كان "طه حسين" خلال الأربعينات، وخصوصًا فى سنوات ما قبل الثورة، يعيش أزمة مصر السياسية والاجتماعية بكل كيانه، فكانت مقالاته التى نشرت (خلال المجلد الخامس من هذه السلسلة) تطالب الحكومات المتعاقبة بضرورة التصدى للأزمة الاجتماعية، وتتحدث عن فساد الأوضاع الاجتماعية وعن حاجة المواطنين إلى العدل وإلى الحياة الكريمة، كما كانت تطالب بتعميم التعليم ومجانيته وبالرعاية الصحية ورفع الظلم عن الطبقات الشعبية، وقد ربط رجاء النقاش بين هذا التحول الفكرى فى حياة "طه حسين" وارتباطه بالوفد خلال الثلاثينات، وأضاف أن هذا التحول تمثل فى انتقاله من الدعوة إلى الجديد فى الفكر إلى التجديد فى المجتمع نفسه، بل لقد تحول "طه حسين" إلى قائد من قادة التغيير الاجتماعى، وصار فى دعوته الجديدة قريبًا من الجماهير، وحتى فى كتاباته عن التاريخ الإسلامى أخذ يثبت أن الإسلام يدعو إلى الثورة الاجتماعية لتحقيق العدل...[٥].

وينبغى التأكيد هنا على أن ارتباط "طه حسين" بالوفد كان مجرد ارتباط تعاطف، وصداقة مع أساطينه، دون أن يكون عضوًا منتظمًا فيه، أو كادرًا من كوادره، وكان

الحزب الكبير يوفر له وسيلةً يصل من خلالها بأفكاره إلى الناس، وتحقيقها على أرض الواقع.. ومع ذلك ظل فكره الأساسى بمعزل عن الضياع فى خضم الحياة السياسية وصراعاتها، فظل محتفظًا بشخصيته المستقلة فى الفكر والحياة.. لقد كان ينتمى لمبادئه أكثر من انتمائه لأى حزبٍ من الأحزاب.

ولم يمنع هذا زعيم الوفد مصطفى النحاس باشا من أن يضم "طه حسين" إلى وزارته الأخيرة التى شكلت قبيل قيام ثورة يوليو، وهى وزارة الوفد الأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠ – ٢٦ يناير ١٩٥٢) التى أعادت حزب الوفد إلى الحكم، والتى دفعت بـ "طه حسين" إلى الوظيفة السياسية عندما اختير وزيرًا للمعارف العمومية لمكانته العامة ولخبرته بشئون الوزارة والتعليم. وقد ذكرت قرينته فى كتابها «معك» أنه دخل الوزارة الوفدية؛ لأنه كان لديه أصدقاء فى الوفد، أصدقاء حقيقيون سمحوا له بتحقيق عدد من مشروعاته، «لكنه لم يكن سياسيًّا، ولم يكن عضواً فى الوفد، وعندما انتقد عدد من الوفديين تعيينه وزيراً على حساب أعضاء الحزب، قدَّم طه استقالته للنحاس الذى رفضها محتجًا بأن المسألة ليست مسألة حزب ولكنها مسألة وطن، وكتب له بذلك..».

وعمومًا استمر "طه حسين" فى وزارة الوفد الأخيرة خلال العامين اللذين قضتهما فى الحكم قبل أن يطيح بها حريق القاهرة، وكان يعمل من خلالها لإنصاف المعذبين فى الأرض، فاتُّخذت فى عهده سلسلة من التشريعات ذات الطابع الديمقراطى الراديكالى، كان أهمها تقرير مجانية التعليم الثانوى والفنى، وقد أراد أن يمتد بالمجانية لتشمل التعليم الجامعى والعالى بصفة عامة، لكن الملك فاروق تدخل وأوقف هذا الاندفاع الحثيث نحو توفير التعليم العالى لأبناء الشعب، ومهما يكن فقد ظل اسمه مقترنًا فى تاريخ مصر بأنه أبو مجانية التعليم، فكما أشرنا، كان هو الذى أنشأ جامعة الأسكندرية عندما كان مستشاراً فنيًّا لوزارة المعارف (١٩٤٢–١٩٤٤) وما إن تولى الوزارة عام (١٩٥٠) حتى شرع يضع أسس جامعة عين شمس، ثم وضع نواة إنشاء جامعة أسيوط..[٦].

وبنهاية وزارة الوفد التى قاومت أوتوقراطية وتدخلات القصر بعد انتهاء شهر العسل بينهما، بعدما أُثير فى وجه الوزارة عدد من المشاكل منها القضية التى عرفت بقضية الأسلحة الفاسدة، وتمرير تشريعات تقيد حرية الصحافة، وفساد رجال القصر وعلى رأسهم كريم ثابت، يضاف إلى ذلك فشل مفاوضات الوزارة مع الإنجليز، وانتهاء ذلك إلى إلغاء النحاس باشا لمعاهدة (١٩٣٦)، واتفاقيتى الحكم الثنائى للسودان، بقرار اتخذته الوزارة من جانبها، ثم ارتفاع موجة المد الوطنى، الذى أتاح الفرصة للإخوان وقوى اليسار لتأكيد وجودها فى ميدان الكفاح الوطنى فى منطقة القناة وتصدى الإنجليز لها وإجرائهم مذبحة فى قوات بلوكات النظام بمبنى محافظة الإسماعيلية فى (٢٥ يناير ١٩٥٢)، والتى كان من أخطر تداعياتها حريق القاهرة فى اليوم التالى، وتقديم النحاس باشا استقالة وزارته فى اليوم نفسه.

وبسقوط الوزارة انتهى «الدور» السياسى لـ "طه حسين"، بل لقد انتهى عهده بالوظائف أيضًا، بحكم أن الوزارة «وظيفة سياسية» ليقتصر نشاطه خلال ما بقى من حياته خلال عهد ثورة يوليو على «الكتابة» فى الصحف والمجلات، سواء بشكل منتظم أو متقطع، وإن انتظم كثيراً بعدما تولى رئاسة تحرير صحيفة "الجمهورية" على نحو ما سنرى.. بالإضافة إلى التأليف. ورغم أنه ضمن كتاباته فى الصحافة آراءه السياسية بطبيعة الحال، فإن المجال الرئيسى لكتاباته كان ذلك المجال الأثير لديه والمحبب إلى نفسه، وهو مجال الأدب والنقد والترجمة، كما استمرت صلته بالجامعة قائمة يحاضر فيها كأستاذ غير متفرغ حتى الستينات.

ولسنا نبالغ إن قلنا إن "طه حسين" إلى جانب ممارسته السياسة من خلال وظائفه قبل الثورة، فإنه اشتغل بالسياسة أيضًا على طريقته من خلال الأدب، الذى نجح فى توظيفه اجتماعيًا ورمزيًا، ليضمنه كثيراً من آرائه السياسية، فكان يجاهد بقلمه مصوراً فساد مجتمع ما قبل الثورة، ومطالبًا بإصلاحه وتحديثه، وهو جهاد تتيح له الكتابة الأدبية فيه قدراً كبيراً من حرية القول والتعبير.

-٢-

أما عن موقف "طه حسين" من قيام الثورة وأحداثها الأولى المتدافعة، فتروى المصادر أنه عندما قامت الثورة كان العميد يصطاف فى قرية «كولى إيزاركو» فى شمال إيطاليا على حدود النمسا فى انتظار انعقاد مؤتمر اليونسكو بالبندقية فى (سبتمبر عام ١٩٥٢)، ليمثل بلاده فيه ثم يعود إلى مصر، وأنه فوجئ بمكالمة هاتفية من سفير مصر فى روما يخبره بقيام حركة الجيش، وكان أول رد فعل للعميد أن هتف بقرينته «قامت الثورة فى مصر، ثورة ضد الملك..»، وكان من الدهشة بحيث سقط مغشيًّا عليه من الانفعال، حتى لقد أخاف المحيطين به، وقد علقت قرينته على هذا الحادث بقولها «كنت أهنئ نفسى كثيراً على الوقار الذى تمت به الثورة، أية سيطرة على النفس وأية فطنة! لم تكن هناك أية شتيمة أو أية قطرة دم، كنت فخورة، فقد عاشت مصر أجمل ساعات تاريخها»(٧).

أما "طه حسين" فقد أمسك قلمه وكتب رسالة نشرتها الأهرام فى الثانى من (أغسطس ١٩٥٢) تحت عنوان «صورة» ثم أعقبها بمقالات أخرى فى الأهرام والبلاغ عبَّر فيها عن شعوره تجاه الثورة مرحبًا بها، ووصف ما حدث فى مصر أنه «ثورة»، ولم تكن هذه التسمية قد عرفت وشاعت، حيث كانت التسمية المعروفة آنئذ هى «حركة الجيش أو الحركة المباركة..» كما هو معروف، فكان بذلك أول من أطلق هذا الاسم على هذا الحدث الكبير.. وفى الثالث من أغسطس أرسل رسالة إلى صديقه توفيق الحكيم ذكر فيها أن الأدب هو الذى هيَّأ الأمور للثورة لكى تقوم، وسيكون له أثره فى التعبير عنها بعد قيامها، وتمنى أن يكون إلى جانب صديقه فى مصر، أو أن يكون صديقه معه فى أوربا فى هذه الأيام التى تنشر فيها مصر من تاريخها كتابًا وتطوى كتابًا..(٨).

وعندما ذهب إلى البندقية لحضور مؤتمر اليونسكو فى الأسبوع الأخير من سبتمبر، ألقى أول خطاب باسم مصر بعد الثورة، وكتبت الصحف الإيطالية «إن مقرر

اللجنة الأدبيـة بالمؤتمر هـو الكاتب المصـرى "طه حسـين"، ملهم الثـورة الاجتـمـاعـيـة والاقتصادية القائمة فى مصر.». وبعد أن أتم مـهمته فى المؤتمر ذكر «سنعود إلى مصر ونتكلم بصراحـة ووضوح؛ لأن هـذا واجب كل رجل من رجـال الفكر؛ ولأن قـادة مصـر الجديدة سيرحبون، فيما أرجو، بآراء المفكرين ويطلبون سماعها فى صراحة ووضـوح باستمرار، ولن يصدهـم الحكم عن ذلك... ثم يتساءل فى شىء من الحيرة، بعد لحظة صمت: أم ترى سوف يصدُّهم الحكم يومًا عن سماع أصوات المفكرين؟ لقد كان "طه حسين" يؤمن بدور المفكرين فى العهـد الجديد، ويتمنى أن يستمع الحكام الجـدد إلى مشورتهم ونصائحهم، ومن ثم كان عليه أن يهيئ نفسـه ليكون فى خدمة العـهد الذى استبشر به المصريون خيراً.

وعندما كان متواجداً فى إيطاليا، وكانت تتوالى أنباء حركة الجيش وإجراءاتها كان يعبر عن قلقه وإشفاقه، غير أنه لم يلبث هذا القلق والإشفاق أن تحول إلى شىء من الطمأنينة، عندما عرف أن قائد الجيش لم يتول الحكم ولم يصطنع العنف، وإنما طلب أن تكون أمور الحكم فى يد رجل ثقة يطمئن إليه المصريون، فعبَّر طه عن رضاه وتفاؤله عندما عهدت قيادة الجيش برئاسة الوزارة إلى على ماهر، التى تولت وزارته الحكم خلال الفترة (٢٤ يوليو- ٧سبتمبر ١٩٥٢)، وكانت وزارة مدنية صرفة مما أعطى انطباعًا أن العسكريين لا يستهدفون تولى السلطة.

وأخذ "طه حسين" يكتب عن رقباء الصحف الذين كانوا يقفون للمقالات بالمرصاد، وكيف أن الكُتَّاب كانوا يخشون السجن والاعتقال، وصوَّر كيف أن الناس فى أوربا كانوا يعلمون من سيئات الحكم مثلما كان يعرف، وأن مصر فقدت حريتها، وبات أبناؤها يعيشون فى ظل الخوف والهلع... واعتبر أن الثورة ردَّت كرامة مصر إليها، فانجلت غمرة الطغيان، بفضل الجيش الذى أمَّنها على حياتها الداخلية، ودعا الله أن يبارك الجيش فيما يفعل، وأن يبارك لمصر فى جيشها(٩).

وعندما عُزلَ الملك فاروق أشاد "طه حسين" بهذه الخطوة، وبمصر التى ضربت للعالم الحديث مثلاً رائعًا «بثورتها» التى جمعت بين الهدوء والوقار، والعنف الحازم الذى يرسل ملكًا إلى منفاه دون قطرة دم، ودون أن تخرج عن طور الحلم والحذر الشديد، وعبَّر عن رجائه فى أن هذه «الثورة المباركة التى ردت إلى مصر كرامتها قد ردت إلى المصريين ثقتهم بوطنهم..»[١٠].

وبينما كانت قيادة الثورة بسبيلها إلى اتخاذ إجراءات تحقق العدالة الاجتماعية وعلى رأسها تحديد الملكية، كان العميد يعتبر نفسه ممن طالبوا بالثورة الاجتماعية «التى جمجم بها الشعب وصرح بها كتابه منذ أعوام طوال، وأخذتُ أسأل نفسى: أيتاح لى ولأمثالى من الذين طالبوا بتحقيق التضامن الاجتماعى الصحيح، وأنكروا على المترفين إسرافهم فى الترف.. أن نرى مصر ذات يوم وقد أنصفت الدولة كل محروم؟»[١١].

لقد كان "طه حسين" يتابع بشغف وحرص شديدين أنباء الثورة فى مصر، من خلال الصحف والإذاعات، وهو لا يزال فى إيطاليا، وكان يتعجل الإصلاح، ويرى أن صحف مصر ما زالت كلفة بالأنباء المثيرة وبالصغائر، وأن الأحزاب ماضية فى خصوماتها كأن الدنيا لم تتغير من حولها، وكأن مصر لم تستأنف فصلاً جديداً من تاريخها الرائع. وكانت قيادة الثورة فى مصر قد طلبت من الأحزاب السياسية أن تطهر نفسها. وبدأت الأحزاب تستجيب للنداء وتمزق نفسها بأيديها، ولم تكن القيادة قد كشفت عن نواياها بشأن إلغاء الأحزاب، قبل أن ينكشف فسادها بأيدى رجالها.

وذهب "طه حسين" يشيد «بقائدنا العظيم» الذى غير حياة مصر فى أيام قليلة، فرد إليها شرفها وكرامتها، ورأى أن مصر ينبغى أن تخلق خلقًا جديداً، وأن تتغير نظمها المختلفة تغيراً خصبًا، وأيد خطوات الثورة نحو الإصلاح الاجتماعى، وتوزيع الثروة توزيعًا عادلاً، خصوصاً وهى تفكر فى تحديد الملكية، ورفع الضرائب وتمكين العاطلين من العمل، وتمكين الجاهلين من العلم، والانتصاف للضعفاء[١٢].. والمعروف أن قيادة الثورة

كانت بصدد إعداد قانون للإصلاح الزراعي وتحديد الملكية، لكن وزارة على ماهر تباطأت فى إصداره، فكان ذلك سبباً رئيسيًّا فى عزلها.

وعندما أعلنت وزارة محمد نجيب الأولى (٧ سبتمبر ١٩٥٢-١٨يونيو١٩٥٣) سقوط دستور (١٩٢٣) فى (١٠ ديسمبر ١٩٥٢) وأرادت أن يحل محله دستور جديد يتفق وأهداف الثورة، أصدرت فى (١٣ يناير ١٩٥٣)، مرسومًا بتأليف لجنة لوضع مشروع الدستور الجديد تشكلت من خمسين عضواً، ضمّت عناصر من مختلف التيارات الحزبية القائمة وبعضاً من أساتذة القانون الدستورى، وعدداً من الساسة المستقلين، ورجال الاقتصاد والشخصيات العامة. وقد اختير "طه حسين" ضمن أعضاء هذه اللجنة، ويذكر «الرافعى» أن هذه اللجنة أوصت بالأخذ بالنظام الجمهورى، وأنها لم تقدم مشروع الدستور الجديد الذى انتهت إليه إلا فى (أغسطس ١٩٥٤)، أى بعد مضى أكثر من عام ونصف على عملها، وأنه خلال هذه الفترة أصدرت قيادة الثورة، فور إلغاء دستور (١٩٢٣)، دستوراً مؤقتًا أو على الأدق «إعلانًا دستوريًّا» فى (١٠ فبراير ١٩٥٣) للعمل بموجبه خلال فترة السنوات الثلاث الانتقالية التى حددتها قيادة الثورة.(١٣)

وقد أبدى الدكتور "طه حسين" اهتماماً واضحاً بأمر الدستور، منذ سقوط دستور (١٩٢٣)، وقبل أن يشارك فى لجنة الدستور الجديد، فكتب فى (١٣ ديسمبر ١٩٥٢) يقول: إننا يجب أن نرد هذا الحق الأكبر إلى صاحبه وهو الشعب، فالدستور يوضع للشعب كله بتعاقب أجياله، والشعب هو صاحب الحق الأول فى أن يختار لنفسه نظام الحكم الذى يختاره، وإن من حق الأجيال المتعاقبة أن تغير هذا النظام بين حين وحين، لتلائم بينه وبين حاجاتها وأطوارها، وذهب يؤكد على ضرورة «ألا يكون هذا الدستور منحة من نظام الحكم الجديد تهدى إلى الشعب، فليست فى مصر قوة تستطيع أن تهدى الشعب دستوراً، وإنما الشعب هو الذى يعطى لنفسه هذا الدستور الجديد...»(١٤).

ومن القضايا التى شغلت النظام السياسى الجديد والرأى العام خلال هذه المرحلة قضية نظام الحكم الجديد، وهل سيكون هذا النظام ملكيًّا أم جمهوريًّا؟ وقد

أبدى "طه حسين" ورأيه واضـحًا لا لبس فـيـه، فكتب مـؤكـدًا أنه من الداعين للنظام الجمـهورى منذ أُنزل الملك فاروق عن عرشه؛ «..فقد شقيت مصر بهذا النظام الملكى شـقـاءً مـتـصـلاً.. وقد آن للمـصـريين أن يدركوا أن الحكم لا يـأتى إلا منهم ولا يتنزل عليهم، وأن الحكام مهما يكونوا خدام لا سادة، يُنَصِّبهم الشعب ليؤدوا بعض أعماله التى تتصل بمرافقه السياسية والاجتماعية فى الحدود التى يرسمها الدستور، ويرزقهم على ذلك أجورهم، ويسـألهم بعد ذلك عما يفعلون..»، وأنشأ "طه حسين" يسـخر من توريث الحكم، ويصف ذلك أنه سخف لا ينقضى وأخطار لا حد لها، «فأنت لا تستطيع أن تكفل الحزم والعزم والحكمة والحلم والذكاء والكفاية والصلاح والاستقامة للأجنَّة فى بطون أمـهـاتهـا، فكيف إذن ضَـمَنْت لهـذا الجنين قـبل أن يولد وبعـد أن يولد المُلك والاستئثار بأمر شعب كامل، لا لشىء إلا لأنه انحدر من أسرة بعينها؟».[١٥]

لقد كـانت الأمور فى مصر تتجه نحو إسقاط النظام الملكى وإنهاء حكم أسرة محمد على، وبالفعل اتخذت الخطوة الحاسمة فى هذا الاتجاه فى (١٨ يونيو ١٩٥٣)، عندما قرر مجلس قيادة الثورة انتهاء الملكية وأعلن قيام الجمـهورية، وتضمن القرار تولية اللواء محمد نجيب رئاسة الجمهورية، على أن يكون للشعب الكلمة الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية واختيار شخص الرئيس عند إقرار الدستور الجديد بعد انتهاء المرحلة الانتقالية، وقد أعرب "طه حسين" عن سعادته البالغة بهذه التطورات، وذكر أن المصريين سيرفعون إلى رئاسة الدولة المصرية رجلاً منهم، لا يمتاز عن سائر المصريين بمولد ولا بثروة ولا بقوة أجنبية تسنده.[١٦]

ولأن قـادة الثورة كانوا يعلمون مدى صلة "طه حسين" بالوفد، وفى الوقت نفسه يعرفون قدره ومكانته الأدبية وما قدمه لمصر قبل الثورة من كتابات ذات طابع ثورى، فلم يضعوا الرجل فى معسكر النظام القديم أو «العهد البائد» الذى كان يضم الصفوة السياسية وأحزاب النخبة الحاكمة التى كانت تتبادل السلطة قبل الثورة، والتى كان فى ضمير القيادة الثورية ضرورة التخلص منها، باعتبارها جزءًا من النظام الفاسد الذى

ثاروا عليه.. والحاصل أن قيادة الثورة كانت تجرى من جانبها محاولات – قبل إلغاء الأحزاب – لاستقطاب بعض القيادات الوفدية لإبعادها عن الوفد، وقد استعانت القيادة فى ذلك بكل من الدكتور "طه حسين" وأحمد أبى الفتح وعبدالسلام جمعة، غير أن هذه المحاولات لم تفلح وتعقدت الأمور بين قادة الثورة وزعماء الوفد كما هو معروف.

على أية حال، فإن قصة صراع ثورة يوليو مع قيادات الأحزاب بدأت فى مرحلة مبكرة منذ قيام الثورة حين طالبت القيادة هذه الأحزاب بتطهير نفسها فى (٣١ يوليو ١٩٥٢)، الأمر الذى سيجرها للاعتراف بالفساد بين صنوفها أمام الرأى العام، وهو ما حدث بالفعل، عندما انقسمت الأحزاب على نفسها، وراحت تكيل الاتهامات لبعضها البعض، ثم أعقبت قيادة الثورة ذلك باعتقال (٧٤) من الشخصيات القيادية فى الأحزاب بحجة تهدئة الجو السياسى لإتاحة الفرصة للأحزاب لكى تطهر نفسها، وجاءت الخطوة التالية التى أرادت بها قيادة الثورة تقييد النشاط الحزبى برمته ووضعه فى قبضة وزير الداخلية، عندما أصدرت مرسوم تنظيم الأحزاب فى (٩ سبتمبر ١٩٥٢). وأخيراً كانت الخطوة الحاسمة التى أجهزت بها قيادة الثورة على الأحزاب جميعًا، عندما أصدرت قرارها بحل الأحزاب فى (١٧ يناير ١٩٥٣)، ذلك القرار الذى لم يلق مقاومة، مما كشف عن ضعف الأحزاب وانتهاء دورها.[١٧]

وبطبيعة الحال لم يتعرض "طه حسين" لما تعرض له السياسيون والحزبيون من عهد ما قبل الثورة، والذين حوكموا فيما سمى آنذاك «بمحكمة الغدر» فى (ديسمبر ١٩٥٢)، أو أولئك الذين قُدِّموا «لمحكمة الثورة» فى (سبتمبر ١٩٥٣)، فلم يُحسب "طه حسين" ضمن سياسى العهد القديم كما أشرنا، لقد كانت أفكاره تسبق عصره وتطالب وتبشر بعصر جديد، وربما لو لم يكن "طه حسين" قد اختير وزيراً فى وزارة الوفد الأخيرة قبل الثورة (١٩٥٠-١٩٥٢) لكان قد اختير وزيراً فى إحدى الوزارتين المدنيتين اللتين تألفتا بعد قيام الثورة مباشرة، وهما وزارة على ماهر (٢٤ يوليو-٧ سبتمبر ١٩٥٢) والوزارة المدنية التى ألَّفها محمد نجيب (٧سبتمبر ١٩٥٢-١٨ يونيو ١٩٥٣) قبل أن يزحف

العسكريون على السلطة.. لقد رأى الثوار فى "طه حسين" عقلاً كبيراً ومفكراً كبيراً من مفكرى الوطن، ولم يعتبروه حزبياً، وكان كذلك بالفعل، لذلك فعندما سقطت الأحزاب واختفى قادتها، لم يسقط "طه حسين"، الذى كان يتمتع باستقلال فكرى هيأ له أن يشق طريقه فى ظل التطورات الجديدة.

لقد احتفى "طه حسين" بالثورة ورحب بها وأيدها مثل جموع الشعب التى عانت من العهد القديم واستبشرت خيراً بالثورة، التى اتخذت إجراءات عديدة أكسبتها المزيد من التأييد الشعبى، خصوصاً خلال شهورها الأولى.. ولم يترك العميد فرصة إلا وعبر فيها عن سعادته بما اقتنع به من قرارات الثورة، وطالب الشعب أن يتجاوب معها، فكتب «أريد أن تحيا ثورتنا، وأن تثور حياتنا، وأن يتحقق التجاوب بينها وبين الشعب، التجاوب بالعمل لا بالقول وحده، التجاوب الذى يقتضى أن تستقر الثورة فى كل ضمير، وأن تضطرم جذوتها فى كل قلب..»، وذهب "طه حسين" يتفاعل مع قضايا الثورة ويهيئ لها سبيل الرشاد والنجاح، فعندما قرأ أن البلاد فى حاجة إلى تشجيع الأجانب على استثمار رؤوس أموالهم فى مصر، ذكر أن ذلك خير بدون شك، لكنه تساءل: ولم لا تستثمر، أموال المصريين فى مصر؟ أليس غريباً أن الثورة تدعو إلى الإصلاح منذ ستة أشهر وأنها لم تدعُ الشعب إلى أن يساهم فى قرض واحد لتحقيق مشروع واحد من مشروعات الإصلاح؟[١٨].

وفى لفتة تنبيه ذكية يشيد "طه حسين" بسلوك الحكومة فى إصدار الأحكام والقرارات والمراسيم فى العهد الجديد باسم الأمة، «الأمر الذى يجعل المصريين يحسون أن الأمور صارت أمورهم، وأنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولا يحكمهم فرد متسلط..»، وكأنما كان "طه حسين" يستحث النظام الجديد فى السير بجدية فى هذا الطريق، وينبه إلى خطورة العودة إلى حكم الفرد أو حكم الصفوة العسكرية الجديدة.. لقد ذكر أن الشعب ائتمن السلطة الجديدة على حقوقه، وأنها «ستؤدى إلينا الأمانة كاملة حين تنتهى فترة الانتقال..»[١٩]، لقد كان "طه حسين" واضحاً فى التعبير عن رأيه

فى ضرورة أن تعود الأمور إلى الشعب وإلى حكم الدستور والديمقراطية الحقة بعد انتهاء الفترة الانتقالية التى حددتها قيادة الثورة.

وفيما يتعلق بالقضية الوطنية، فقد دعا "طه حسين" رجال الثورة إلى «التفاوض مع الإنجليز أو الجهاد ضدهم»، لإجلاء جيش الاحتلال عن منطقة القناة فى أقرب وقت. وكان لديه اعتقاد حقيقى أن يوم الجلاء بات قريبًا فى ظل القيادة الجديدة، فهذا اليوم «أقرب مما يظن المتفائلون والمتشائمون جميعًا»، ويتعهد للثورة وقائدها بتأييدهم «ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، نشد أزرهم وهم يفاوضون، ونستجيب لدعائهم إن لم تنته المفاوضات إلى ما نريد ويريدون، وليكن هذا اليوم يوم القسم الذى نقسمه فيما بيننا وبين الله، على أننا لن نُخدع مرة أخرى كما خُدعنا من قبل بهذا الحديث المعاد، حديث المفاوضات»[٢٠].

—٣—

فى السابع من ديسمبر عام (١٩٥٣) أصدرت قيادة الثورة صحيفة جديدة هى صحيفة «الجمهورية» لتعبر عن جموع الشعب بكل فئاته وقياداته فى العهد الجديد أو لتكون «صوت أمة استيقظت فتحررت واتحدت..»، ورغم ما ذكره لويس عوض فى العدد الثانى من الصحيفة من أنها ستكون لسان حال الشعب المصرى بكل ما فيه من يمين ووسط ويسار، وأنها لسان حال المحافظين والمعتدلين والثوار..[٢١] إلخ، فإنه كان من الواضح أنها صحيفة مصر الثورة، أصدرتها القيادة لتكون لسان حال لها، تربط بينها وبين الجماهير فى العهد الجديد.. ومنذ الأعداد الأولى جعل "طه حسين" يوالى الصحيفة الجديدة بمقالاته فى السياسة والأدب، ووجد فيها فرصته لمتابعة نشر أفكاره وإثارة المعارك الأدبية والفكرية، فضلاً عن عرض آرائه بشأن القضايا السياسية، عندما يرى ذلك ضروريًا، معبرًا عما يؤمن به ويعتقده.

وقد بلغ "طه حسين" مكانة مرموقة بين كتاب الصحيفة، حتى لقد تولى رئاسة تحريرها في أول أبريل عام (١٩٦٠)، ضمن ستة رؤساء معه، ثم ظهر اسمه كرئيس للتحرير أيضًا في أول يناير (١٩٦٣)، بالإضافة إلى ثلاثة آخرين.. وعندما انفرد حلمي سلام برئاسة تحرير "الجمهورية" في (٣٠ يوليو ١٩٦٤) اختفى اسم "طه حسين" من الصحيفة، بعد أن استغنوا عنه وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، فعبَّر عن ذلك بألم حين ذكر «لقد استغنوا عن خدماتي ضمن عدد من المحررين» أي بعد نحو إحدى عشرة سنة من الكتابة شبه المنتظمة في «الجمهورية» أي منذ نشر أول مقال له في عددها الخامس في (١١ ديسمبر ١٩٥٣).

ومن المهم ملاحظة أن "طه حسين" وهو يكتب مقالاته السياسية في صحيفة "الجمهورية" في أعقاب أزمة (مارس ١٩٥٤) كان يتوجه بها إلى قادة الثورة، وإلى رئيس الوزراء (جمال عبد الناصر) بشكل خاص؛ فكتب في (١٤ يوليو ١٩٥٤) بعض المقالات تحت عنوان «ثورتنا» يشهد المواطنين على أنه حين كتب ما يكتب لا يبتغي مطمعًا عظيمًا أو ضئيلاً، ولا يطلب منفعة نائية أو دانية؛ «فقد بلغتُ والحمد لله من السن ما ينبغي أن يبرأ معه الإنسان من المطامع والمنافع جميعًا..»؛ مؤكداً أنه يكتب مقالاته خالصة لوجه الله، ثم لوجه الوطن، لا يعنيه أن يرضى عنها الراضون أو يسخط عليها الساخطون، ثم ينبه ويحذر من طرف خفي «بأن ما مسَّ بعض الناس من أخطار الثورة مازال يسيراً قابلاً للتدارك»، ويُعرب عن أمنيته «بأن تظل ثورتنا كما بدأت نقية من كل إثم، بريئة من كل شر».

ولم يمنعه هذا التنبيه وذلك التحذير من أن يشيد بالآثار الخطيرة التي أنجزتها الثورة وهي في طور الطفولة؛ «فقد أشعرت المصريين بحقهم في الحرية والكرامة والاستقلال، كما أنها حررت الشعب من ظلم الملوك، وأراحته من هذا النظام الملكي السخيف الذي لا يعتمد على أصل من حق أو عدل أو دين، وإنما يعتمد على الأثرة والظلم والاستعلاء وتقديس أسرة بعينها أو فرد بعينه، فضلاً عن أنها سلكت طريق

العدل فى توزيع الثروة الوطنية على المواطنين بما شرعت من الإصلاح الزراعى الذى يشيع الملكية بين طبقات الشعب ويقرب الآماد بينها ويلغى الفروق..»[٢٢].

وبعد عامين من حكم الثوار واتخاذهم العديد من الإجراءات الثورية، وتفجر الصراع على السلطة داخل مجلس القيادة، ذلك الصراع الذى أطاح بـ"محمد نجيب" من رئاسة الوزارة ومن رئاسة الجمهورية لصالح القائد الحقيقى للثورة (جمال عبد الناصر)، كتب "طه حسين" فى (١٦ يوليو ١٩٥٤) داعيًا القيادة إلى الرشاد واستقرار الحكم؛ «فالشعوب لا تستطيع أن تظل ثائرة دائمًا، لأن الثورة تغيير واضطراب يخرج الشعوب من حياة إلى أخرى، ولا بد بعد الثورة من استقرار تظهر فيه آثار الثورة ويجنى فيه الشعب ثمراتها..».

والواقع أن "طه حسين" الذى يؤمن بضرورة وجود المفكر إلى جانب الحاكم، كان ينادى بضرورة وجود الصفوة المثقفة المتمتعة بذكاء العقل، وحصافة الرأى، ودقة العلم، إلى جانب القيادة؛ ولذلك جعل يروج لهذه الفكرة، ربما تعبيراً عن خوفه من تزايد زحف العسكريين على السلطة على حساب العناصر المدنية، فطالب بضرورة تهيئة هذه الصفوة من أبناء الشعب للثورة، لينهضوا بأعبائها ويعينوا قادتها ويضيفوا إلى جهودهم جهوداً، لقد كان يرى أن هذه الصفوة الذكية البصيرة هى التى تخرج الشعب من الشقاء إلى السعادة.. وراح "طه حسين" يلح على قادة الثورة فى عيدها الثانى على ضرورة تكوين هذه الصفوة التى تقوم على تدبير أمور الشعب وتهيئ له وسائل النشاط الخصب الكريم[٢٣].

وعندما تعرض الرئيس (عبدالناصر) لحادث الاعتداء عليه ومحاولة اغتياله فى المنشية من قبل بعض أفراد ينتمون إلى الجهاز السرى للإخوان المسلمين فى (٢٦ أكتوبر ١٩٥٤) كتب "طه حسين" مقالاً هاجم فيه ذلك الفريق الذى قام بالاعتداء، ووصفهم أنهم لا يرقبون فى وطنهم إلاً ولا ذمة، ولا يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وإنما يركبون رؤوسهم ويمضون لا يفكرون فيما يُقدِمون عليه ولا ما قد يورِّطون فيه وطنهم

من الأهوال الجسام، ووصف الحادث أنه كان امتحانًا ثقيلاً خرجت مصر منه ظافرة مطمئنة إلى أن الله يرعاها، وأشاد بوقفة (جمال عبدالناصر) الذى ثبت لهذا الكيد، مؤمنًا بوطنه، وأشعر مصر أنها أقوى من عبث الجهال.

وأنشأ "طه حسين" يتخيل ما كان سيحيق بالوطن لو تم لهؤلاء «المجرمين» ما دبَّروا، فيذكر أنها ستشعل حربًا داخلية بين المواطنين، وسوف يثأر الكرام «لفتى مصر»، ويعلق النظام والقانون فترة، ويضيع الاستقلال، ويتدخل الأجنبى ليفرض النظام على الوطن فرضًا؛ لأن مصر لم تحتمل الحرية والاستقلال، «ولأن بعض أبنائه ساق الموت إلى من ساق إليهم الحياة». وفى مقال آخر وصف "طه حسين" هؤلاء المجرمين أنهم شذاذ أفلتوا من قوانين الطبيعة الإنسانية التى تكبر الحياة الإنسانية، وتعظم الاعتداء عليها عن عمد»(٢٤). والمعروف أن مقالات "طه حسين" بشأن هذه المسألة قد ضمت إلى كتاب شاركه فيه كل من محمد التابعى وعلى أمين وكامل الشناوى وناصر الدين النشاشيبى، وصدر عام (١٩٥٥) تحت عنوان «هؤلاء هم الإخوان».

* * *

ومن الموضوعات المهمة التى كشفت هذه المقالات عن رأى "طه حسين" بشأنها فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ ثورة يوليو، مسألة سياسة مصر العربية، حيث توضح المقالات أن "طه حسين" كان يؤيد هذه السياسة، سواء من زاوية دفاعه عن سياسة مصر العربية المتعلقة بدعم حركات التحرر العربية أو من زاوية اقتناعه بالعروبة.. فكتب مقالات عديدة تؤيد دعم قيادة مصر لحركات التحرر الوطنى فى كل من مراكش وتونس والجزائر ضد الاستعمار والنفوذ الفرنسى، كما راح يرد على الصحف الفرنسية فى هجومها على مصر وعلى رئيس وزراء مصر، وقد انتقد بشدة ما طالب به بعض أعضاء مجلس النواب الفرنسى بإنذار مصر، وسخر من مطالبتهم لبلادهم بالاحتجاج على

الحكومة المصرية؛ لأن إذاعتها تؤيد المجاهدين في سبيل الاستقلال، كما أن أحد الأعضاء طالب بإنشاء قسم خاص فى الإذاعة الفرنسية يسمى «قسم مصر الحرة» ليقاوم حكومة الثورة.. فتعجب "طه حسين" من ذلك، وذكَّر الفرنسيين أن مصر كانت فى مقدمة البلاد التى آوت «فرنسا الحرة»، ومنحتها من العون والتأييد ما أتاح لها أن تكون حقيقة واقعة، ولم تبخل مصر على صديقتها البائسة فرنسا بمال بذلته سخية به ولا بجهد أنفقته، واستقبلت ديجول رئيس «فرنسا الحرة» ليتحدث إلى مواطنيه من الإذاعة المصرية يدعوهم إلى المقاومة، وأكد "طه حسين" أن مصر لن تكُف عن تأييد إخوانها المطالبين بالاستقلال، فهى مؤمنة أن الاستعمار، مهما تكن صوره، آثم لا يقره إلا الظالمون، وأنه خزى لا يليق بالحضارة والإنسانية الحديثة، وهى من أجل ذلك ستقاومه وستؤيد مقاوميه فى كل مكان(٢٥).

ومن زاوية أخرى ذهب "طه حسين" يهاجم السياسة الفرنسية التى تدعم إسرائيل وتؤيدها، فذكر أن رئيس الوزراء الفرنسى (منديس فرانس) إسرائيلى، وأنه دعا رئيس الجيش الإسرائيلى وكذلك رئيس الحكومة الإسرائيلية إلى زيارة فرنسا، كما أن للإسرائيليين فى فرنسا، وبخاصة فى بيئات المال والأعمال، نفوذاً بعيد المدى، والشعب الفرنسى مسيحى كاثوليكى يغالب سخطه على النفوذ الإسرائيلى مغالبة شديدة، وأن كثيراً من أعلامهم المسيحيين الفرنسيين ينكرون السياسة الفرنسية فى شمال إفريقيا ويجاهرون بذلك.. وأكد طه حسين أننا لا نحفل بهذا السخف الذى يتورط فيه رئيس الوزراء الفرنسى حين يتقرب إلى إسرائيل، فهذا التقارب لا يخيف أحداً، ولن تستطيع فرنسا أن تعطى لإسرائيل من الأسلحة إلا ما يأذن به حلفاؤها، وما ينبغى أن ننسى أن أسلحة فرنسا إنما تأتيهم من أمريكا أو تصنع بالمال الأمريكى فى فرنسا نفسها(٢٦).

وعندما أشاعت بعض الأوساط الفرنسية أن مصر تحاول أن تنشئ لها إمبراطورية مصرية من خلال دعمها لحركات التحرر فى شمال إفريقيا لبسط نفوذها

ولتخلف فرنسا فيه.. دعا "طه حسين" وزارتى الخارجية والإرشاد، والصحافة والإذاعة فى مصر إلى الاحتياط لذلك والحذر منه والرد عليه، فليس من الحق أن يقال هذا، كما أنه ليس بحق أن رئيس الجمهورية طموح على هذا النحو الذى عرفه المغامرون.. ووصف (عبدالناصر) أنه واقعى حذر شديد الاحتياط.. وأكد ضرورة أن تتنبه سفاراتنا فى الخارج لهذا الخطر وأن تقاومه، ولا بد لصحافتنا وإذاعتنا أن تؤثر القصد والاعتدال فيما تكتب وفيما تذيع، «فنحن فى أول الطريق إلى التمكين لاستقلالنا فى وطننا..»(٢٧).

وفيما يتعلق بالتطورات التى أدت إلى تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى سنرى أن "طه حسين" وقف موقفًا وطنيًا رائعًا متبنيًا قضية بلاده مدافعًا عن حقها فى تأميم قناتها، وقد ذكرت قرينته أنه أعاد وسام «جوقة الشرف» الذى منحته له فرنسا ردًا على هجومها على السويس(٢٨)، وانبرى يدافع عن سياسة (عبدالناصر) ويرد هجوم الفرنسيين عليه، وتعجب كيف أن رئيس الوزراء الفرنسى تجاوز كل قصد واعتدال «حين وصف رئيس جمهوريتنا أنه لص سرق القناة من أصحابها، ولا ينسى إلا شيئًا واحدًا هو أن رئيس الجمهورية المصرية استرد لوطنه قناته، وأن اللصوص حقًا وصدقًا هم الذين يسفكون دماء الجزائريين». وعندما تشن فرنسا عدوانها، مع حليفتيها، على مصر، يحمل "طه حسين" على رئيس وزراء فرنسا ويصفه أنه «مجنون» فى مقال يحمل هذا العنوان، ويُذكّره بهزيمة فرنسا وخزيها فى مراكش وتونس والجزائر التى توشك أن تتحرر، وذكر أن هذه الجريمة التى اقترفتها فرنسا مع زميلتها فى الإثم، وهى بريطانيا، حين أقدمتا على غزو مصر. ليست إلا أثرًا من آثار هذا الخزى، حاول بها الفرنسيون أن يشعروا أنفسهم بأنهم مازالوا قادرين على أن يفتحوا الأرض ويقهروا الأمم، فلم يجنوا منه إلا الهزيمة..(٢٩).

* * *

ومن القضايا السياسية التى تبنى "طه حسين" الكتابة فيها قضية الأحلاف والتكتلات الدولية حيث دافع عن سياسة مصر بشأن مقاومتها، عن وعى واقتناع، وطالب بتجنب التورط فى الحرب الباردة، وحبّذ اتجاه الدولة نحو تبنى سياسة الحياد، كذلك هاجم "طه حسين" سياسة تركيا والغرب الأوروبى والولايات المتحدة الأمريكية بشأن سياسة إقامة الأحلاف.. ورأى أن تركيا تريد إدخال العالم العربى فى حلف بغداد لكى تضع بلاده مواردها المختلفة تحت تصرفها حين تحتاج إليها، «وأن تكون البلاد العربية مستعدة لوضع مواردها تحت تصرف الغرب الذى تدير أمريكا سياسته على أساس مقاومة روسيا فى كل مكان..».

وينتهز "طه حسين" الفرصة ليعبر عن رأيه فى الحكم العثمانى لمصر والشام، وكيف أنه أدى إلى تأخرهما ليحذر من جديد من مغبّة الارتباط بتركيا، ويذكّر القراء أن «الأتراك دمروا الحضارة العربية الإسلامية حين بسطوا سلطانهم على الشام ومصر، وأنهم جحدوا ما لهذه الحضارة عليهم من فضل، وألقوا بأنفسهم بين ذراعى الحضارة الأوربية متهالكين عليها متفانين فيها، كأنهم لم يعرفوا تلك الحضارة العربية، ولم يجعلوها لحياتهم قوامًا»، كما يحذر "طه حسين" من أن العرب لم يتخلصوا من تسلط الفرنسيين والإنجليز، ليعودوا إلى تسلط الترك مرة أخرى[٣٠].

كذلك دافع "طه حسين" عن موقف مصر فى وقوفها ضد سياسة الأحلاف فى مؤتمر (باندونج)، وفى مسألة كسر احتكار السلاح وتأكيد الاستقلال الوطنى، وقد أثنى على سياسة (عبدالناصر) فى هذا الاتجاه، وأوضح أنه بهذا الثناء لا يبتغى إلى الرئيس الوسيلة. «فليس له عند رئيس الوزراء حاجة وليس لرئيس الوزراء عند طه أرب، ولكن موقفه ذاك أرضانى كل الرضا، لثباته؛ ولأنه كان يتحدث عن وطنه كله؛ ولأن وطنه لا يحب أن يشايع الغرب فى غير روية ولا أن يمالئ الشرق فى غير تبصر»، ويضيف "طه حسين" : «إننا ليس لنا أرب فى الحرب الباردة أو الحرب الحارة، فنحن قوم نؤثر العافية ولا نعدل بالسلام شيئًا، وفى انحيازنا إلى الغرب رضى عن الاستعمار

ومشاركة فى أوزاره التى لم نتخفف منها كل التخفف، وفى انحيازنا إلى الشرق تفريط فى جنب الحرية التى لم نأخذ منها بعد بحظنا كاملاً موفوراً..».

لقد كان "طه حسين" يمتلك رؤية تتسم ببعد النظر والاستبصار فيما يتعلق بموقف أوربا وأمـريكا مـن إخضاع مصر وغيرها من بلدان الشرق العربى، فها هو يكتب عام ١٩٥٥ مدافعًا عن حق بلاده فى تسليح جيشها من حيث تشاء ووَفق مصلحتها، ويهاجم موقف الغرب الأوربى والأمريكي تجاه مصر عندما عقدت صفقة الأسلحة التشيكية عام (١٩٥٥)، كما يحمل على الغرب لدعمه لإسرائيل وإنكاره حق مصر فى التسلح، وقد أبدى دهشته من خيبة الأمل التى منىَ بها الغرب الأوربى والأمريكى؛ «فقد أنذر وحذر وهدد وأرعد، ثم اضطر إلى أن يعترف بحق مصر أن تلتمس لجيشها القوة حيث تجدها.. يأبى أن يبيع لها ما تريد من الأسلحة، ويأبى عليها أن تشترى الأسلحة من غيره، وينشئ على حدودها لعبته التى يسميها إسرائيل، ويمنحها من أسباب القوة والبأس ما يغريها بالعدوان والطغيان ويزين لها التسلط والتجبر..». ويصف "طه حسين" الغرب – الأوربى والأمريكى – أنه يُكره مصر على الضعف ويدفع جارتها إلى القوة، كأنه يريد أن يجعل من هذه الجارة نذيراً حيًا مقيماً يخوف به مصر، ويكره به مصر على ما لا تريد، لا لشىء غير أنه لم يرضَ قط عن استقلالها، ولم يُرِد قط لها سوى أن تكون خاضعة له، تلتمس عنده الحماية دائمًا..»[٢١]؛ أليس هذا ما هو حادث الآن!!

تأكيداً لصدق رؤية "طه حسين" وقدرته الفذّة على استشفاف المستقبل والتنبيه والتحذير، فإننا نستشهد هنا بمقال كتبه فى يناير عام (١٩٥٧)، أى من نحو نصف قرن، وكأنه يرسله من العالم الآخر لينشره أمامنا فى صحفنا، هذا المقال الذى يفضح فيه أسلوب الاستعمار الجديد ممثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية، كان تحت عنوان «شراء الشعوب»، ذكر فيه أن الولايات المتحدة تريد أن تشترى شعوب الشرق الأوسط، ولكن البيع لن يكون حراً، وإنما سيكون محاطًا بكثير من الترغيب والترهيب، فالدولة المشترية هى أغنى دول الغرب الديمقراطى وأقواها، أموالها لا تحصى وقوتها لا تقاوم

ولا تطاق، والرئيس الأمريكي يطلب من البرلمان مزيداً من المال ليستطيع مساومة شعوب الشرق الأوسط في استقلالها وحريتها، ويطلب الإذن له في استعمال القوة إن احتاج إليها، وترى الإنسانية أن ظفر الرئيس الأمريكي من برلمانه بما يريد، يعد فنًا جديداً من فنون الاستعمار.. وهو أن دولة قوية غنية تعمد إلى شعب فقير ضعيف، فلا تسحقه ولا تبيده، وإنما تفرض عليه سلطانها فرضًا، ليكون لها عبداً مطيعًا تسخره فيما تشاء، وتستأثر دونه بما يملك من سعة وثراء، وتزعم له مع ذلك أنها لا تريد استذلاله ولا استغلاله، وإنما تريد أن تحرره، وأن تحضِّره وتمهد له إلى الرقي سبيلاً، وهذا فن جديد من فنون الاستعمار تخترعه الولايات المتحدة في هذه الأيام..»[٣٢]. هذا ما قاله العميد من نصف قرن ونبهنا إليه، ولا يزال يمارس علينا حتى الآن!!

* * *

وفيما يتعلق بتجربة الوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨-١٩٦١)، والتي أُعلن بموجبها قيام الجمهورية العربية المتحدة في (فبراير ١٩٥٨)، والتي انهارت على أثر انقلاب رجعي في سوريا؛ فقد شغلت هذه التجربة الرأي العام المصري زمنًا، ونلاحظ أن "طه حسين" لم يكتب رأيه في مسألة قيام الوحدة، ولصمته هذا مغزاه، يدل على أنه كان متحفظًا على قيام الوحدة، أو لعله كان مشفقًا من نجاحها غير مطمئن له، وكان لديه اعتقاد أن الاتفاق على قيام الوحدة تم قبل أوانه، وقد صرح لأحد الوزراء بذلك، وأضاف أن ذلك سيثير مشكلات لسنا في حاجة إليها، وحسبنا ما يواجهنا في وطننا من مشكلات.. وعندما فشلت التجربة بعد نحو ثلاث سنوات بسبب انقلاب العناصر غير الوحدوية في سوريا على دولة الوحدة، كتب "طه حسين" عدداً من المقالات عبرَّت عن شعوره بالمرارة والجزع مما حدث منبهًا إلى خطورته ومنتقداً سياسة الانقلابيين في سوريا.

وفى هذه المقالات كتب العميد أنه لم يسمع حديث الوحدة العربية إلا من السوريين؛ فالوحدة كانت حلمهم حين كانت أرضهم وحياتهم كلها فى أيدى الفرنسيين.. كانوا لا يحبون كلمة «أمة سورية»، ويرون أن هناك أمة واحدة هى الأمة العربية، وقل إن شئت: الشعب السورى، والشعب العراقى، والشعب المصرى، فليس بد من أن تتحد هذه الشعوب وتصبح أمة عربية كما كانت فى وقت مضى.. ويضيف طه حسين أنه خاصم السوريين كثيراً فى أمر هذه الوحدة، وأنه كان يسألهم أين ستكون عاصمتها؟ فكانوا يردون المهم أن تتحقق الوحدة أولاً ولا بأس من أن تكون عاصمتها حيث تريد أن تكون، ويذكر كذلك أن السوريين كانوا يتهمونه بالفرعونية أولاً ثم بالشعوبية بعد ذلك، ثم تجاوزوه إلى اتهام الكُتَّاب المصريين كلهم بالفرعونية التى يبغضونها كل البغض.

لقد رأى "طه حسين" أن السوريين كانوا من السابقين إلى التفكير فى الوحدة، وإلى الدعوة إليها، وإلى الجد فى سبيلها، وأنهم أقبلوا إلى مصر وحاصروا رئيس جمهوريتها بالإلحاح والتشدد فيه، وكادوا يحملونه تبعات ما كانت تتعرض له سوريا من خطاب جسام، عندما كانت تركيا تناوشهم على الحدود الشمالية، ونورى السعيد يحلم بالهلال الخصيب ويستعين بالإنجليز على تحقيقه، وكانت إسرائيل خطراً داهماً على الحدود من ناحية ثالثة، ويضيف أن السوريين بإلحاحهم على رئيس الجمهورية اضطروه إلى أن يستجيب، وهو يعلم أن هذه الاستجابة ستثير له مشاكل لا تحصى وستحمِّله أعباء كثيرة، وتمت الوحدة وأقرها الشعب السورى بالإجماع، ولم يكن الشعب المصرى أقل منه إجماعًا، وبدأت المشكلات واحتمل الرئيس وزملاؤه أثقالها، ولم يضنوا بالجهد والمال، وأخذ "طه حسين" يعدد ما استفاده السوريون من الوحدة فى وطنهم مصر، فى لغة غير معهودة منه، ليثبت أن الشعب المصرى قد ضيق على نفسه فى الإنفاق ليتيح لإخوانه السوريين ما يحتاجون إليه..إلخ.

وعمومًا، وصف "طه حسين" ما حدث من انفصال أنه بطر وجحود، حين استجابت شرذمة من السوريين للاستعمار، وآثرت مصالحها الخاصة على مصالح الوطن

السورى.. ووصف الانفصاليين أنهم فئة من الطغاة البغاة، نقضوا العهد، ووثبوا فى ظلمة الليل واعتدوا على وطنهم وشعبهم، وعلى مصر أيضًا بنقضهم العهد، ثم وصف موقف (عبدالناصر) بالنبل والشرف حين آثر سلامة الوطن السورى، وخلّى بين السوريين وضمائرهم، بل وطلب إليهم ألا يسفك بعضهم دماء بعض، وأن يدخروا وحدة وطنهم.. لقد أبى رئيس الجمهورية أن يحبط عمل الفئة الطاغية الباغية بقوة السلاح؛ لأنه لا يريد أن يسفك دماء العرب، ولا يريد أن يفسد فى الأرض..»[٣٣].

لقد كان "طه حسين" يؤمن بالوحدة كهدف قومي ينبغي أن يتحقق فى أوانه، وعلى أسس سليمة، وبعد استعداد جاد، ويرى أنها تحمى العرب من أطماع الاستعمار والصهيونية، وليست تلك الوحدة التى تمت على عجل، وأتاحت الفرصة للانفصاليين أن يقضوا عليها، كما كان يربط بين دور الانفصاليين ودور الاستعمار في فلسطين، وتحرُّك إسرائيل مباشرة لتحويل مجرى نهر الأردن مطمئنة إلى ذلك، بعد أن تفرقت كلمة العرب، وانتشر القلق حتى شمل الشعوب العربية كلها، بل أكثر من هذا فإن "طه حسين" يشير بأصابع الاتهام إلى المتمردين الانفصاليين فى دمشق، ويقول: «فمن يدرى، فلعلهم أغروا إسرائيل بما تفعله الآن إغراءً ودفعوها إليه دفعًا وأدوا إليها نهر الأردن ثمنًا لانصرافها عنهم ومنحهم شيئًا من المعونة والتأييد.. وكأنه كان يرى المستقبل ماثلاً أمام بصيرته عندما كتب عام (١٩٦١): ومن يدرى لعل ما تفعله إسرائيل الآن ليس إلا الخطوة الأولى من خطوات الاستعمار، ولعل خطوات أخرى تتبعها غداً أو بعد غد، فالاستعمار لا يكفيه أن تقوى إسرائيل، وإنما يهمه أن يضعف العرب، وأن يشقى العرب، وأن تظهر حاجتهم إلى معونة الاستعمار، وأن يمكن هذا كله للمستعمرين العودة إلى الأوطان العربية..»[٣٤].

* * *

وبعد انفصال دولة الوحدة شرع النظام السياسى المصرى يراجع مسيرته وتوجهاته الفكرية وبرامجه العملية، مما أفضى إلى ضرورة وضع ميثاق للعمل الوطنى، ذلك الميثاق الذى صدر عام (١٩٦٢) ليكون دليلاً للعمل على أساسه خلال المرحلة التالية من تاريخ الثورة، وأعتبر هذا الميثاق وثيقة مهمة من مواثيق الثورة على ما هو معروف، وقبل أن نوضح رأى "طه حسين" فى هذا الميثاق، نود الإشارة إلى أنه لم يكتب شيئًا عن مبادئ الثورة الستة المشهورة، والتى اتُخذت كوثيقة أولية تستند إليها قيادة الثورة كبرنامج تسعى لتنفيذه منذ قيامها، وقد لا يبدو ذلك مهمًا؛ فالمصريون جميعًا، كانوا يؤمنون بضرورة تنفيذ هذه المبادئ التى كانت تشكل فى الواقع قاسمًا مشتركًا من مطالب القوى السياسية والوطنية الحقّة.

ولكن الذى يبدو مهمًا أن (جمال عبدالناصر) عندما أصدر عام (١٩٥٤) كتابه الشهير «فلسفة الثورة»، والذى طرح فيه أفكارًا على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للثورة ومسيرتها، توضح الاتجاهات الفكرية أو «المشاعر والتجارب والتصورات»، التى تبناها وعمل من خلالها.. ورغم أن الكتاب أقرب إلى وقفة مراجعة، وتحسس لموضع الأقدام، أكثر منه صيغة أيديولوجيّة متكاملة ترسم آفاقًا للمستقبل أو حتى تبلور نظرية، فإن "طه حسين"، وهو رجل فكر قبل كل شىء، لم يكتب شيئًا عن «فلسفة الثورة»، ولم يناقش ما يقدمه الكتاب من رؤى وطروحات، وبطبيعة الحال لا بد أن العميد قد قرأه، وأن لهذا التجاهل مغزاه.

وعندما انتهت الفترة الانتقالية، التى حددتها قيادة الثورة عقب إسقاطها للنظام القديم، لكى توضع فيها أسس النظام الجديد، وأعلن دستور (١٩٥٦) وسط مؤتمر شعبى حاشد، لم نجد مقالاً لـ "طه حسين" يشير إلى هذا الدستور من قريب أو من بعيد، وخصوصًا بعد أن وأدت قيادة الثورة مشروع دستور لجنة الخمسين، التى كان "طه حسين" عضواً بها، ذلك المشروع الذى رأى طارق البشرى أن واضعيه استهدفوا إقصاء رجال (٢٣ يوليو) عن المشاركة فى السلطة وإبعاد المؤسسة العسكرية عن أن يكون لها دور فى العملية السياسية[٣٥].

ومن هنا يمكن تفسير تجاهل "طه حسين" لدستور عام (١٩٥٦) الذى أقر مبدأ الجمهورية الرئاسية، وجعل اختيار رئيس الجمهورية، بالاستفتاء الشعبى العام، كما جعله يتولى السلطة التنفيذية ويعين الوزراء ويرأس مجلسهم، والذى اعتبر محصنًا عن رقابة مجلس الأمة، بل إن الدستور يعطى لرئيس الوزارة سلطة حل المجلس، والواقع أن هذا الدستور الجديد جاء ليمنح رئيس الجمهورية سلطات كانت فى قبضته من الناحية الواقعية، فأسبغ عليها صفة القانون والدستور... فماذا يقول لـ "طه حسين" فى ذلك، وهو من واضعى مشروع لا يتفق مع الاتجاه الذى عبرَّ عنه الدستور الجديد، الذى تبناه رجال العهد الجديد؟ وخصوصًا بعد أن أشاد، بصدق، بإنجازات الثورة وقائدها فى هذا العام الحافل من تاريخها (١٩٥٦)، حيث تم جلاء الإنجليز، وأُمِّمَتْ قناة السويس، ودحر العدوان الثلاثى، وقبل ذلك كانت مواقف (عبدالناصر) الوطنية فى (باندونج) ضد سياسة الأحلاف العسكرية وكسر احتكار السلاح، مما كان تأكيداً للاستقلال الوطنى، ومما مكَّن لـ (عبدالناصر) من أن يكون له رصيد كبير لدى الجماهير.

ولنا أن نستنتج أيضًا من صمت "طه حسين" تجاه التنظيمات السياسية الشعبية التى شكلتها قيادة الثورة عقب إلغاء الأحزاب السياسية، أنه لم يكن مقتنعًا بها ولا بالشعارات التى أطلقتها، فلم يكتب شيئًا عن «هيئة التحرير» التى حاولت بها القيادة ملء الفراغ السياسى الناشئ عن إلغاء الأحزاب، وكذلك جذب الجماهير وحشدها فى التنظيم الجديد لتأييد العهد الجديد ودعمه شعبيًّا، كذلك لم يكتب "طه حسين" شيئًا عن التنظيم الثانى الذى أعقب هيئة التحرير وهو «الاتحاد القومى» عام (١٩٥٦)، وكان من الطبيعى ألا يهاجم "طه حسين" الأحزاب السياسية قبل أن تلغيها قيادة الثورة، كما لم يبدِ رأيًا فى قرار الحل، وربما أبدى رأيه فى نظام الحكم الجديد من خلال عضويته فى لجنة الخمسين، التى وضعت مشروع دستور تصور واضعوه أن مصر سوف تشهد حركة سياسية وحزبية جديدة بعد ابتعاد المؤسسة العسكرية عن الحكم؛ حيث يتحول نظام الحكم من نظام تتنازعه مؤسستان دستوريتان هما: رئاسة الدولة والهيئة النيابية،

إلى نظام يدور على محور واحد هو المجلس النيابى، وعلى الحركات السياسية والحزبية أن تتنافس على شغل موقع المجلس الذى تتشكل منه الوزارة[٣٦]... لكن لم يكن لهذه الصيغة إمكانية التحقق العملى فى ظل قيادة جديدة قامت بالثورة تنظيمًا وعملاً فى (٢٣ يوليو)، تلك القيادة التى أصدرت دستورًا جديدًا يمكِّنها من الإمساك بالسلطة.

وعندما تألف «الاتحاد القومى»، وطرح مبادئ وشعارات تستهدف تحقيق «المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى»، لم يقدم معنًى جديدًا تتميز به مواثيق المرحلة، وبدا واضحًا أن الأمور تفتقر إلى فكر أكثر تطورًا يثرى المرحلة الجديدة، أو يميز النظام السياسى الجديد بمميزات خاصة، مما جعل كمال الدين حسين السكرتير العام للاتحاد القومى يستعين ببعض المثقفين مثل سليمان حزين ولبيب شقير وحسن عباس زكى ومحمد سعيد العريان فى هذا الشأن - لاحظ أنه لم يستعن بـ "طه حسين" - إلا أن مساهماتهم لم تستطع أن تشيِّد بناءً فكريًّا يستجيب لمتطلبات المرحلة، ولذلك تفجر ماعرف حينذاك «بأزمة المثقفين»،[٣٧] حين اتهم محمد حسنين هيكل فى حوار قومى عام (١٩٦٠) المثقفين أنهم لم يتعاونوا بحماسة مع النظام، وأنهم لم يقدموا له الأيديولوجية التى يسعى إليها، كما عبر (عبدالناصر) عن خيبة أمله لقلة الكتابات الأكاديمية حول النظام السياسى والاقتصادى الجديد، مما كشف عن أزمة النظام الفكرية وافتقاره إلى فكر متطور يقود حركة المجتمع... وكان "طه حسين" بعيدًا عن ذلك كله!!.

لقد شهدت السنوات الثلاث (١٩٦١ - ١٩٦٤) مجموعة من الإجراءات المهمة، بدأت بالقرارات الاشتراكية التى صدرت فى يوليو عام (١٩٦١)، والتى لم يكتب عنها "طه حسين" شيئًا، ربما لعدم اقتناعه بضرورتها أو أهميتها لمصر، كما شهدت انتكاسة مشروع الوحدة ونجاح الانفصال فى (سبتمبر ١٩٦١)، وانكشاف عجز الاتحاد القومى عن حماية دولة الوحدة، تلك الوحدة التى رآها "طه حسين" سابقة لأوانها، وكان على النظام السياسى أن يعيد ترتيب ذاته، ومواجهة قضية البحث عن أيديولوجية واضحة وهُوِيَّة فكرية محددة، فكان إعلان الميثاق الوطنى فى (يوليو ١٩٦٢).

ومن الملاحظ أن (عبدالناصر) عندما أصدر بيانًا فى (٤ نوفمبر ١٩٦١)، يعلن فيه تشكيل «لجنة تحضيرية»، لتكوين «المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية» تكون مهمتها دراسة الطريقة التى يتم بها تجميع ممثلين للقوى الحقيقية الأصيلة للشعب المصرى عن طريق الانتخاب بحيث ينعقد هذا المؤتمر فى (يناير ١٩٦٢)، ويفتتح بتقرير من الرئيس يقدم فيه مشروعًا «لميثاق العمل الوطنى» ليناقش فى جلسات علنية، وبالفعل شُكِّلت اللجنة ، وعقدت ثمـانيـة عشر اجتماعًا أُذِيعت على الناس مباشرة دون حذف كلمة بأمر من (عبدالناصر)، وأثارت روحًا ديمقراطية، افتقدتها البلاد، وبدا واضحًا أن مصر تضع أقدامها على أعتاب مرحلة جديدة يراجع فيها النظام نفسه، وينتقد تجربته، ويستعين بقوى جديدة لرسم أفق مستقبل جديد.. وقدم (عبدالناصر) إلى المؤتمر الوطنى مشروع الميثاق كدليل عمل مكتوب تستند إليه القيادة فى توجهاتها السياسية والاجتماعية، وبعد مناقشات مستفيضة صدر الميثاق دون تعديل بعد أن وافق عليه المؤتمر القومى، وقد أرفق به تقرير لجنة الرد عليه كوثيقة مكملة توضح أوجه الاختلاف والغموض بشأن بعض ما ورد به من مفاهيم.

وعندما صدر الميثاق بالفعل فى (مايو ١٩٦٢)، كتب "طه حسين" مقالة عبرٌ فيها عن رأيه فيه، وصفه فيها أنه «بحث رائع عميق»، وعبر عن إعجابه بـ (عبدالناصر) الذى استطاع إنجاز هذا العمل الخطير، وأن يخرجه فى صورته الرائعة التى عرضها على المؤتمر الوطنى رغم أعبائه الجسام، لكنه تساءل: هل هو ميثاق وطنى أم كتاب مفصل؟ ورأى "طه حسين" أن الميثاق الوطنى الذى يوجه للشعب على اختلاف طبقاته واختلاف حظوظه من المعرفة والثقافة يجب أن يكون، حسب اعتقاده، أقصر وأيسر من ذلك، واقترح على المؤتمر أن ينتخب من بين أعضائه لجنة تتدبر هذا المنهاج وتستخلص منه النص الموجز الذى يشير إليه؛ فهو رسالة من الرئيس إلى الشعب، يضع فيها أصول الحياة التى تنبغى للشعب المصرى وللأمة العربية كلها، ومن ثم يجب أن يستخلص منه البرنامج الموجز للحياة المصرية، والذى يستطيع كل إنسان أن يقرأه، وأن يفهمه.

وبذكاء وألمعية يربط "طه حسين" بين المبادئ الاشتراكية التى وردت بالميثاق وكتاب "رأس المال" لـ(لكارل ماركس)، فيذكر أنه عندما كان يقرأ المثياق كان يفكر فى الكتب السياسية والاجتماعية التى ينشرها الفلاسفة والممتازون من الساسة ليقرأها أهل العلم والثقافة، وإن كان كتاب كارل ماركس قد خطر له أكثر من مرة وهو يقرأ الميثاق.

وقد هيأ "طه حسين" لنفسه سبيل نقد الميثاق عندما ذكر أن الرئيس (عبدالناصر) أكد فى الميثاق أن النقد ضرورة من ضرورات الحياة الناهضة، وأضاف أنه لذلك يرى أن هناك نقطتين لم تطمئن إليهما نفسه فى البرنامج الذى يريد الرئيس أن تقوم عليها الحياة المصرية، أولاهما تاريخية، وتتعلق بما صارت إليه أمور الأحزاب المصرية، بعد المطالبة بالاستقلال فى أعقاب الحرب الأولى، فرأى "طه حسين" أن حديث الرئيس عن اختلاف هذه الأحزاب وتنافسها فى الحكم صحيح، لكن تعميمه بشأن المثقفين ونشاطهم بين ثورة (١٩١٩) والثورة القائمة لم ينصفهم، فهم قد انضموا للأحزاب، واختلفوا كما اختلفت، وأضاعوا فى السياسة العقيمة كثيرًا من جهودهم وأوقاتهم، ولكنهم فى الوقت نفسه لم يتنافسوا جميعًا فى الحكم، ولم تكن جهودهم كلها عقيمة، وإنما كانت لهم جهود صادقة باقية الأثر، يعرفها الرئيس؛ فهؤلاء المثقفون (وطه حسين فى طليعتهم بطبيعة الحال) قد أثاروا نهضة فكرية ونشاطًا عقليًا لا سبيل إلى الجدال فيهما؛ فهم قد أيقظوا الشعب وعلموه بما ألفوا من الكتب وما نشروا من الأدب، بل بكثير مما كتبوا فى السياسة ، وكنت أود لو أنصفهم الرئيس شيئًا بعد أن ذكر انضمامهم للأحزاب وانسياقهم معها.

والنقطة الثانية التى انتقد فيها "طه حسين" الميثاق هى ما ذكره الرئيس من أن العلم للعلم فى حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقاتنا الوطنية أن تتحمل أعباءها فى هذه المرحلة، فذكر "طه حسين" أنه وقف عند هذه الجملة، مؤكدًا أنه يعتقد أن العلم للعلم تبعة نستطيع أن نحتملها فى هذا الطور من أطوار حياتنا، ويدعو إلى الاهتمام بمن يوقفون حياتهم على العلم، ورأى أنهم لن يكونوا إلا قلة على أية حال[٣٨].

* * *

لقد كان "طه حسين" يذكر بدوره التاريخى ويرى ضرورة إنصاف المثقفين الذين «نهضوا» بالبلاد ويؤمن بأن الدولة إذا كانت تتبنى فلسفة التعليم لحاجة المجتمع، فإنها أيضًا ينبغى أن تشجع العلم لذاته، وتهيئ السبل لصفوة من العلماء المنقطعين له، كما كان يدافع عما كان له دور فيه قبل الثورة، من منطق أن الماضى ليس سيئًا كله ، وأن ثمة مكاسب تحققت لا يصح إهمالها أو تجاهلها، وإنما ينبغى الحفاظ عليها والبناء فوقها؛ فعندما طرحت لجنة التعليم فى مجلس الأمة إمكانية إلغاء مجانية التعليم وجادلت فيها، انبرى "طه حسين" ينتقد ذلك بشدة ويدافع عن مجانية التعليم، ويذكر أن مصر كسبت حقوقًا لأبنائها لا سبيل إلى إلغائها، ولا إلى وضعها موضع الشك والجدال، وقد أقرتها الثورة ولم تتعرض لها بسوء، بل حرصت عليها أشد الحرص، وأثبتتها فى الدستور القائم، ولم تكن مثبتة فى الدستور القديم.

وقد تساءل العميد مستنكرًا: فما بال اللجنة تسأل عن إمكانية هذا الإلغاء دون خروج على نصوص الدستور القائم، وتريد أن تعيد المصروفات فى بعض هذا التعليم أو فيه كله؟ وتريد أن تعود مصر إلى بيع التعليم العام لأبنائها بالثمن القليل أو الكثير، يشتريه منهم القادرون على شرائه، ويدعه العاجزون عنه، وأنا أعلم أن وزيرًا سابقًا من وزراء التربية والتعليم كان يرى أن يُحال كاتب هذا الحديث إلى محكمة الثورة؛ لأنه أقر مجانية التعليم العام، فأثار مشكلات لا تنقضى، وعرَّض التعليم لخطر عظيم.."[٣٩].

لقد كان "طه حسين" مؤمنًا بالكثير من إنجازات ثورة يوليو، وعندما كان عليه أن يكتب عن جهودها بمناسبة عشر سنوات على قيامها، وباعتباره رئيسًا لتحرير صحيفتها، ولم تكن الأخطاء قد تزايدت والأخطار قد أحدقت، راح "طه حسين" يحدث بصدق واقتناع عن تأثير الثورة فى البلاد العربية وفى أفريقيا، وعن الرقى المادى الذى شهدته مصر، وعن تأميم القناة والخروج من أزمتها ظافرة، ثم يركز على أن من أهم إنجازات الثورة تربية المواطنين سياسيًا؛ حيث أصبح الشعب يستفتى فى أمور حياته العامة، وبخاصة الدستور، وأصبح الأفراد يتناقشون مع رئيس الدولة، كما فى المؤتمر

الوطني، وأتيح للعمال والزراع الحديث في المسائل العامة بحضور الرئيس ونوابه والوزراء، وأن يكون لهم نصف مقاعد المجالس النيابية، ولا يزعم "طه حسين" أن هذه التربية السياسية قد بلغت غايتها، ولكنه يرى أن مصر قطعت في سبيلها شوطاً كبيراً، وأن مصر مدينة بهذه التربية للثورة ولرئيس الجمهورية على وجه الخصوص، يقول "طه حسين" ذلك «في غير غلو ولا إسراف أو محاولة التقرب إلى الرئيس أوابتغاء الوسيلة إليه...»[٤٠]، ونحن نصدق "طه حسين" فيما قاله.

—٤—

لعلنا نلاحظ أن كتابات "طه حسين" السياسية في عهد ثورة يوليو ظهر معظمها خلال الاثنتي عشرة سنة الأولى من تاريخ الثورة، أي خلال الفترة (١٩٥٢ – ١٩٦٤)، وهي الفترة التي حفلت بالإنجازات الوطنية – رغم بعض الأخطاء والسلبيات– فقد كانت هذه الفترة التي واظب فيها العميد على كتابة المقال السياسي، شبه الأسبوعي، في صحيفة الثورة «الجمهورية»، ومن هنا لا نستطيع أن ننكر عليه تأييده لهذه السياسيات والإنجازات ودفاعه عما يعتقد صوابه.

كذلك نلاحظ أن الفترة التالية حتى وفاته (١٩٦٤ – ١٩٧٣)، والتي كان "طه حسين" قد بلغ فيها الخامسة والسبعين من عمره كانت فترة مرض وشيخوخة عاني فيها أشد المعاناة، وخصوصاً إذا علمنا أنه أُصيب عام (١٩٦٤) بانزلاق غضروفي اضطر بسببه إلى إجراء عملية جراحية دقيقة في العنق في هذه السن، نجم عنها ضعف في ساقيه وبطء شديد في حركته وعدم استواء قامته في أثناء السير، فطال جلوسه أو نومه مما زاده ضعفًا على ضعف، كما يذكر محمد الدسوقي الذي لازمه طوال السنوات العشر الأخيرة من حياته وعمل كسكرتير خاص له، والذي أضاف أن هذه الفترة لم تكن فترة نشاط أدبي؛ إذ لم يكتب فيها إلا بعض المقالات والرسائل الصغيرة، حيث كانت صحته

مضطربة، ومع ذلك كان مكبًا على القراءة ما وسعه الجهد، وكان يتمنى أن يكمل كتاب «الأيام» وكتاب "الفتنة الكبرى"[41].

ولا تكشف المصادر عن أن ثمة علاقة وطيدة أو خاصة تربطه بقادة الثورة، باستثناء محاولاته، مع آخرين، للتوفيق بين قيادة الثورة وزعماء الوفد فى بداية الثورة وقبل إلغاء الأحزاب[42]، ولم تكن هناك اتصالات بينه وبين قادة الثورة أكثر مما اقتضته ضرورات التعامل بين السياسة والصحافة، وخصوصًا أن قادة الثورة عاملوه معاملة طيبة تقديرًا لمكانته، وحاولوا الاستفادة من قلمه فى الصحيفة التى أصدروها، فاستجاب لهم عن اقتناع دون إرغام أو إكراه، وإذا تذكرنا موقفه من إسماعيل صدقى عام (١٩٣٢) ورفضه رئاسة صحيفة «الشعب» أو حتى مجرد الكتابة فيها، أدركنا أن "طه حسين" لا يفعل إلا ما يقتنع وما يؤمن به.

ولسنا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن "طه حسين" كان يجاهد بقلمه، قبل الثورة من خلال الأدب، حين كان يصور فساد المجتمع وفقدانه العدل والحرية ويطالب بإصلاحه، وأنه كان يضمِّن نصوصه الأدبية كثيرًا من آرائه السياسية والاجتماعية، مما لم يكن يغيب عن فطنة الضباط الذين قاموا بالثورة، ولذلك يبدو صحيحًا ما ذكره رجاء النقاش من أن "طه حسين" كان مقدمة كبيرة من مقدمات الثورة الشاملة على الأوضاع الرجعية التى انهارت عام (١٩٥٢) بعد كفاح طويل، ولم يكن غريبًا أن يرحب بالثورة فى صراحة ووضوح، وأن لا تحسبه قيادة الثورة على النظام الذى قامت لهدمه واقتلاعه، ولذلك أوسعت له صحافتها، واحتفظت له بمكانته فى الجامعة وفى عالم الفكر والكتابة، وذهب هو من جانبه يؤيد ما يراه صوابًا من إجراءات الثورة وسياستها، وينتقد من بين صفوف الثورة – كما رأينا – ما لا يقتنع بصوابه، ويصمت عما يأباه، أملاً فى الاستفادة من أخطاء التجربة، ولم يكن "طه حسين" فى مكانة أو مرحلة من عمره تقتضى منه أن يخشى أحدًا أو يتملق أحدًا.

وقد كرمته الدولة، فمنح جائزتها التقديرية فى الآداب أول ما أنشئت عام (١٩٥٨)، وكان عضواً مهمًا ومؤثراً منذ عام (١٩٦٤) فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وكان رئيساً للجنتى الأدب والترجمة فيه، كما منحه الرئيس (جمال عبدالناصر) قلادة النيل عام (١٩٦٥) خلال احتفال عيد العلم، فضلاً عن أنه كان عضواً بارزاً فى مجمع اللغة العربية، مما أهله لتولى رئاسته عام (١٩٦٣) بعد وفاة لطفى السيد، بالإضافة إلى رئاسته للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية.

ومن المهم أن نلاحظ أن طه حسين وهو يكتب مقالاته السياسية خلال تلك السنوات من تاريخه وتاريخ الثورة (١٩٥٢ – ١٩٦٥)، لم يكُف عن الكتابة الأدبية ووضع مؤلفاته التاريخية والفكرية، وقد جمعت مقالاته فى الفكر والأدب والنقد خلال هذه المرحلة فى عدة كتب أهمها: «خصام ونقد» الذى ضم مقالاته فى هذا المجال خلال الفترة (١٩٥٢ – ١٩٥٤)، و«نقد وإصلاح» الذى ضم مقالاته لعامى (١٩٥٤ – ١٩٥٥)، ثم كتاب «تقليد وتجديد» الذى جمع أحاديثه الإذاعية (١٩٥٥)، و«من أدبنا المعاصر» الذى ضم مقالاته لعامى (١٩٥٦ – ١٩٥٧)، ثم كتاب «كلمات» الذى ضم مقالاته بين عامى (١٩٦٠ – ١٩٦٣)، وأخيراً كتاب «خواطر» الذى ضم مقالاته بين عامى (١٩٦٢ – ١٩٦٥)، كما ألف خلال المرحلة نفسها كتابيه «فى مرآة الإسلام» (١٩٥٩)، و«الشيخان» (١٩٦٠)، بالإضافة إلى المشاركة فى تأليف بعض الكتب المدرسية فى المطالعة والأدب والتاريخ، وتحقيق بعض الكتب التراثية [٤٣].

وأخيراً، فإنه ليس من الإنصاف أو حسن التقدير أن نقسم حياة "طه حسين" إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل ثورة يوليو، ومرحلة ما بعدها، كما فعلت إحدى الدراسات الحديثة التى وصفت موقفه من الثورة بالتراجع والارتداد من موقف المتمرد الذى كان عليه قبل الثورة إلى موقف المهادنة والتخاذل، كما وصفت موقفه أنه «سقوط»، وأنه أصيب بحالة من فقدان الوعى واضطراب لازمه طيلة حياته.. إلخ. [٤٤]، فـ "طه حسين" هو "طه حسين"، تلك الشخصية التى يصعب الحكم عليها بتلك البساطة، ذلك أننا أمام

شخصية تاريخية مركبة، شخصية نضالية عنيدة ذات رسالة وفكر وسلوك، تمتلك رؤية وتقديراً لحكم التاريخ.. عاش حياة ثرية حافلة ملأت الأسماع والأبصار، وامتد به الأجل لنحو أربعة وثمانين عامًا (١٨٨٩- ١٩٧٣) ليتحدث بيأس ومرارة فى عامه الأخير إلى غالي شكرى[٤٥] ليقول «إن البلد لايزال متخلفًا وفقيراً ومريضًا وجاهلاً، نسبة الأميين كما هى ونسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو للانزعاج يخيل إلىّ أن ما كافحنا من أجله، هو نفسه مازال محتاجًا إلى كفاحكم وكفاح الأجيال المقبلة بعدكم.. أودعكم بكثير من الألم وقليل من الأمل..»، وودعنا "طه حسين" تاركًا لنا تراثًا عظيمًا؛ فهل نتعلم منه ونبنى عليه؟!

هوامش الفصل الثالث ومصادره

(١) رجاء النقاش: "هل يلام طه حسين؟" مقال بالأهرام فى ١٠ أبريل ٢٠٠٥.

(٢) لويس عوض: "الحرية ونقد الحرية"، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣٩.

(٣) رجاء النقاش: المقال السابق.

(٤) لويس عوض، المرجع السابق، ص ٤١.

(٥) رجاء النقاش، دراسة بعنوان "طه حسين والأحزاب السياسية"، نشرت بكتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، دار الهلال بالقاهرة، دون تاريخ، ص ٢١١.

(٦) لويس عوض، المرجع السابق، ص ٢٩ – ٤٣.

(٧) سوزان طه حسين: "معك"، ترجمة بدر الدين عرودكي، ط (٢) دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢، ص ١٩٠.

(٨) توفيق الحكيم، "وثائق من كواليس الأدباء"، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم فبراير ١٩٧٧، نص رسالة طه حسين إليه، فى ٣ أغسطس ١٩٥٢، ص ١٤٤ – ١٤٦.

(٩) الأهرام فى ٢ أغسطس ١٩٥٢.

(١٠) البلاغ فى ٨ أغسطس ١٩٥٢.

(١١) البلاغ فى ٤ سبتمبر ١٩٥٢.

(١٢) الأهرام فى ٦ سبتمبر ١٩٥٢.

(١٣) عبدالرحمن الرافعى: "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩"، ط (١) النهضة المصرية ١٩٥٩، ص ٧٤ – ٧٥.

(١٤) "الأهرام" فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٢.

(١٥) "الأهرام" العدد نفسه السابق.

(١٦) محمد حسن الزيات، "ما بعد الأيام"، دارالهلال بالقاهرة، دون تاريخ، ص ١٦٨.

(١٧) راجع دراستنا عن ثورة يوليو والأحزاب المصرية، فى كتاب « الأحزاب المصرية ١٩٢٢ – ١٩٥٣» تحرير رؤوف عباس ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣٣٩ وما بعدها.

(١٨) "الأهرام" فى ٧ فبراير ١٩٥٢.

(١٩) "الأهرام" فى ١٥ فبراير ١٩٥٢.

(٢٠) "الأهرام" فى١٠ مايو ١٩٥٢.

(٢١) راجع تقديم صلاح عطية لكتاب «طه حسين ومعاركه الأدبية» مقالات لم تنشر فى كتاب من قبل (١)، تراث صحيفة "الجمهورية"، يناير ٢٠٠٦، ص ٧.

(٢٢) "الجمهورية" فى ١٤ يوليو ١٩٥٤ مقال ثورتنا لـ"طه حسين".

(٢٤) "الجمهورية" فى ٣٠ أكتوبر، ١٣ نوفمبر ١٩٥٤.

(٢٥) "الجمهورية" فى ٢٤ أكتوبر، أول سبتمبر ١٩٥٤.

(٢٦) "الجمهورية" فى أول أكتوبر ١٩٥٤.

(٢٧) "الجمهورية" فى ١٣ يوليو ١٩٥٦.

(٢٨) سوزان طه حسين: "معك"، ص ١٨٨ – ١٩١.

(٢٩) "الجمهورية" فى ١١ أغسطس، ١٢ نوفمبر ١٩٥٦.

(٣٠) "الجمهورية" فى ٣٠ مارس ١٩٥٥.

(٣١) "الجمهورية" فى ٦ أكتوبر ١٩٥٥.

(٣٢) "الجمهورية" فى ١٥ يناير ١٩٥٧.

(٣٣) "الجمهورية" فى ٧ أكتوبر ، ١٤ أكتوبر ١٩٦١.

(٣٤) "الجمهورية" فى ١٨ أكتوبر ١٩٦١.

(٣٥) طارق البشرى : "الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو، ١٩٥٢ – ١٩٧٠"، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٧. ص ١٠٢.

(٣٦) طارق البشرى: المرجع السابق، ص ١٠٢ – ١٠٣.

(٣٧) راجع محمد حسنين هيكل: "أزمة المثقفين"، الشركة العربية المتحدة للتوزيع، القاهرة ١٩٦١.

(٣٨) "الجمهورية" فى ٢٦ مايو ١٩٦٢.

(٣٩) "الجمهورية" فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٧.

(٤٠) "الجمهورية" فى ١٩ أغسطس ١٩٦٢.

(٤١) محمد الدسوقى: "أيام مع طه حسين،" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٨، ص ٢٠٠.

(٤٢) إبراهم فرج: "ذكرياتى السياسية"، إعداد: حسنين كروم، ط (١) مكتبة الحياة، القاهرة ١٩٨٣، ص ١١٠.

(٤٣) راجع ، حمدى السكوت ومارسدن جونز: "أعلام الأدب الحديث فى مصر (١)"، مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ط (٢) أكتوبر ١٩٨٢، ص٩٠- ٩٣.

(٤٤) راجع، مصطفى عبدالغنى: "طه حسين وثورة يوليو، صعود المثقف وسقوطه"، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة ١٩٨٩، ص ٣٤ وما بعدها.

(٤٥) غالى شكرى: "ماذا يبقى من طه حسين؟"، دار المتوسط للنشر، بيروت، سبتمبر ١٩٧٤، ص ٧٣.

الفصل الرابع

طه حسين

من التغريب إلى التوفيقية

يتناول هذا الموضـوع اتجاهًا فكريًا محـددًا من أفكار "طه حسين"، انشغل به فكره وقلمه حينًا من الدهر، وظل مـهمومًا ومهتمًا به لأكثر من نصف قرن، كما يتصل بتاريخ الفكر العربى أو بإحدى قضاياه المتـعددة، أكثـر من اتصـاله بالأدب العـربى، نقده وتاريخه، وهو المجال الأول والمحبب لـ "طـه حسين".. ونطاق هـذا الموضوع الزمنى يمتد منذ بدايات القرن العشرين، وبالتحديد منذ عام (١٩١٠) حين هجر "طه حسين" الأزهر والتـحق بالجامـعة الأهلية الوليدة، وحين شرع يجرب قلمـه فى الكتـابة فى الصحف ويتصل بالحياة العامة من قريب، ويتوقف بنا الموضـوع عند أوائل عام (١٩٧٣)، حين أدلى "طه حسين" بآخر حديث له ثم رحل عن عالمنا فى أكتوبر من العام نفسه.

وسـوف نتبع منهجًا تاريخـيًا، يضع القـضـية فى إطارها من تاريخ الفكر عامـة، ويرصد تطورها فى فكر "طـه حسين" على وجه الخصوص، وإن كان هذا يقتضى منا التأكيد على حقائق التاريخ المتصلة بالموضوع.

ولقد أعلم منذ البداية أن هذا النوع من الموضـوعات يثـير الجدل والاختـلاف فى الرأى أكثر مما يُفضى إلى الاتفاق، وربما كان هذا من أسباب اختيار الموضوع لا من أسباب اجـتنابه؛ ذلك أن قضيـة الهُويَّة الثقافيـة لا تزال تُطرح بين الحين والآخر فى الفكر والثقافة العربيين، وكأنها لم تكن أزمة جيل النهضة الأول، حسمـها وانقضت، وإنما مازلنا ننقسم إلى دعاة للأصـالة، ودعاة للتجديد أو المعاصرة، ومـازال فينا دعاة التراث، متعصِّبون له، وأنصـار الحداثة، متحمِّسون لها.. ومازلنا نختلف حول الثابت والمتحول، حول الموروث والمجتلب.

ونقصد بقضية التغريب هنا، تلك المسألة التى واجهت الفكر العربى الحديث منذ بدأ يصطدم بحضارة الغرب، ذلك الصدام الذى جعله يتخذ موقفاً من هذه الحضارة، سواء بالتحدى أو الاستجابة.. وربما كان المعنى الأدق هنا هو: تبنى النموذج الغربى فى تمدين المجتمع العربى الإسلامى وتحديثه، وقد يستخدم بعض الكُتَّاب اصطلاح «أَوْرَبَة» اشتقاقًا من كلمة «أوربا» والمعنى واحد على كل حال، مادام المقصود هنا هو الغرب الأوربى، بل والأمريكى، وقد تكون الكلمة ترجمة للاصطلاح الأوربى Westernizing أو حتى Westernization.

وقد نشأت مسألة التغريب وواجهت المجتمع العربى الإسلامى فى العصر الحديث منذ احتك بأوربا وحضارتها، واصطدم بها حربًا أو سلمًا.. سواء من خلال حملات الغزو الأوربى لبلادنا أو من خلال بعوثنا العلمية للغرب، وسواء من خلال استقدامنا الخبراء والفنيين والمعلمين الأوربيين لبلادنا، أو من خلال ترجمة التراث الأوربى فى مجاله النظرى والتطبيقى، وقد اهتم بهذه المسألة معظم مفكرى النهضة والاستنارة بدءًا بجيل الطهطاوى والتونسى والشدياق ومحمد عبده، وحتى جيل (لطفى السيد) و(كرد على) والدكتور (هيكل) و"طه حسين"، كما تبلورت منذ هذه الفترة اتجاهات رئيسية إزاء مسألة التغريب، منها ما يرفض التجربة الأوربية برمتها ويراها خطرًا على التراث والهُويَّة.. ومنها ما انبهر بتقدم الغرب وحضارته ودعا للارتماء فى أحضانه أملاً فى الفكاك من دائرة التخلف والجمود، ومنها ما يأخذ من الاتجاهين السابقين بنصيب مختلف.

* * *

ومن المعروف أن "طه حسين" دخل الأزهر عام (١٩٠٢)، ومكث فيه حتى عام (١٩١٠) حين هجره والتحق بالجامعة الأهلية، وكانت سنوات الأزهر خصيبة ومؤثرة فى حياته

تأثيراً بالغًا، وقد أغنانا عن معرفة رأيه في الأزهر في تلك الأيام بوصفه المثير له بكتابه «الأيام»، حيث نلاحظ أن هذه السنوات وما لقيه فيها من عنت وبلاء، جعلته يضيق بالأزهر وبنظامه التعليمي.. ولعل ذلك قد أحدث في نفسه أثراً سلبيًا دفعه نحو الجامعة وما فيها من دراسة مدنية أحبها، ووصل بها إلى غايتها القصوى حين استكمل دراسته في فرنسا، وصار أستاذًا جامعيًا وعميداً لكلية الآداب.

ولعل الأثر الإيجابي الذي أفاده "طه حسين" خلال سنوات الأزهر يتمثل في أنه جمع خلالها ذخيرته من الأدب العربي الذي قُيِّض له فيما بعد أن يكون أستاذه الأكبر وعميده، كما ظهرت خلال هذه السنوات بدايات قلقه وتمرده الفكري، الأمر الذي انتهى به إلى الانشقاق عن بيته الكبير(١).

وفي الفترة نفسها اختلف "طه حسين" إلى حلقات الإمام محمد عبده وأعجب بطريقته وأسلوبه، واتصل ببيئة المثقفين ثقافة مدنية وأوربية، فتعرف على لطفي السيد وأعجب به، وتردد على صحيفة حزب الأمة وهي «الجريدة»، واستكتبه فيها لطفي السيد الذي كان من المتحمسين للغرب وحضارته.. وفي البيئة نفسها قرأ "طه حسين" ترجمات فتحي زغلول عن الفرنسية، وترجمات محمد السباعي عن الإنجليزية، وشغف بكتابات قاسم أمين وجورجي زيدان ويعقوب صروف وغيرهم(٢).

كما أنشأ "طه حسين" يجرب قلمه في صحيفة "الجريدة" متناولاً موضوعات أدبية واجتماعية.. ومن الطريف أنه في هذه الفترة المبكرة كتب يهاجم الذين يستبدلون بزيهم الشرقي الزي الغربي، واعتبر من يفعل ذلك نازلاً عن كرامة أمته في عاداتها وآدابها، كما هاجم في مقال آخر عام (١٩١١) مسألة زواج المسلم بالكتابية، ودعا إلى تحريمه أو تضييق دائرته «لفساد الدين في نفوس الإفرنج»(٣)، وسنلاحظ أن "طه حسين" تخلى عن أفكاره هذه بعد سنوات قليلة.

وبانتقال "طه حسين" إلى الجامعة دخل مرحلة مهمّة من مراحل تكوينه العقلي والفكري، واتصل ببيئة المستشرقين، فدرس تاريخ الأدب على (نالينو) والفلسفة

الإسلامية وتاريخ الترجمة على (سنتلانا)، وتاريخ الشرق القديم على الأستاذ (ميلونى)، بالإضافة إلى دراسة اللغات السامية على (ليتمان).. وإلى جانب هؤلاء درس على أساتذة مصريين كان لهم أبعد الأثر فى حياته، فقد أتاحوا -على حد تعبيره- لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وأن تثبت أمام هذا العلم الذى أتى به المستشرقون(٤).

وكان "طه حسين" قد تقدم عام (١٩١٢) لنيل عالمية الأزهر، وذكر أن لجنة الامتحان قد تعمدت إسقاطه، ولكنه بعد أن فرغ من دراسته الجامعية تقدم عام (١٩١٤) برسالة لنيل درجة الدكتوراه عن «ذكرى أبى العلاء المعرى»، وكانت هذه أول رسالة تمنحها الجامعة المصرية، مما أثار اهتماماً كبيراً به، وساعده على السفر إلى فرنسا فى بعَثة الجامعة المصرية إليها.

وحتى عام (١٩١٤) كان طه قد قطع شوطاً فى تعلم الفرنسية، حتى إنه أراد أن يجرب قلمه فيها فاشترك فى ترجمة كتاب «الواجب» لجول سيمون الذى نشر فى العام نفسه، كما سافر إلى فرنسا فى أواخر عام (١٩١٤).. وما كاد يدخل غرفته فى السفينة حتى خلع عمته وجبته وقفطانه ودخل فى الثياب الأوربية(٥)!.

وكانت سلطات الجامعة قد حددت تخصصه فى العلوم التاريخية، وبوصوله إلى (مون بلييه) بدأ مرحلة جديدة أخرى من حياته استمرت حتى عودته إلى مصر حاملاً درجة الدكتوراه من السوربون عام (١٩١٩)، ففى فرنسا استكمل دراسة اللغة الفرنسية، ثم درس علم النفس على (فيكو)، كما درس التاريخ اليونانى على (جلوتز)، والرومانى على (بلوك)، كذلك درس التاريخ الحديث على (سينوبوس)، بالإضافة إلى متابعته محاضرات الكوليج (دى فرانس)، وخصوصاً دروس أستاذه (كازانوفا) فى تفسير القرآن(٦).

وعموماً لم ينفصل تمثل "طه حسين" للثقافة الفرنسية عن تمثله للوسط الفرنسى ذاته، فأصبحت باريس عنده تختصر العالم الإنسانى باختلاف أزمنته وأمكنته، كما أنه التقى فيها بفتاته التى نظمت حياته، وأبرأته من عقدة عجزه، وعلمته المواجهة الاجتماعية، وصارت زوجاً له.

وقد اختار "طه حسين" موضوع دراسته للدكتوراه، بعد أن أتم دراسة التاريخ، عن فلسفة (ابن خلدون) الاجتماعية تحت إشراف الأستاذ (إميل دوركايم)، والمستشرق (كازانوفا)، وحين توفى (دوركايم) خلفه (بوجليه).

وكما هو معروف عُيِّن "طه حسين" فور عودته إلى مصر أستاذاً للتاريخ اليونانى والرومانى بالجامعة، وبقى فى وظيفته حتى عام (١٩٢٥) عندما انتقلت إدارة الجامعة (الأهلية) إلى الحكومة، فأصبح أستاذاً للأدب العربى بكلية الآداب بها. ونلاحظ خلال هذه الفترة أن الثقافة الكلاسيكية قد استأثرت بنشاطه واهتمامه، فصدر له عام (١٩١٩) كتاب بعنوان «آلهة اليونان» يضم ملخصاً لمحاضراته عن الظاهرة الدينية عند الإغريق، كما نشر صحفاً مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان عام (١٩٢٠)، وأعقب ذلك بترجمة كتاب «نظام الأثينيين» لـ (أرسطوطاليس) فى العام التالى، ثم ألَّف كتابه عن «قادة الفكر» عام (١٩٢٥).. ولم تكن دراسة "طه حسين" للغات القديمة هدفاً فى ذاتها، وإنما كانت الحضارات القديمة هى الهدف، فكان يرى أن اليونان هم آباء الحضارة الحديثة وآباء عصر النهضة، وأنه لن يستطيع فهم فلسفة كونت إلا إذا درس (أرسطوطاليس)، وأنه لن يفهم شعر راسين وميلتون وكورنى وجوته إلا إذا قرأ هوميروس وأسيخيلوس وصوفوكليس ويوربيديس(٧)، وكان يؤكد دوماً فكرة أن الحضارة العربية الإسلامية فى أزهى عصورها نقلت عن اليونان، وأن ذلك من أبرز تقاليد الفكر الإسلامى المتحضر.

وخلال فترة دراسته فى فرنسا أصبح الفكر الفرنسى جزءاً من حياته، حتى لتكاد تحسب من خلال ما كتبه عنه أن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسياً، فكراً، وعقلاً وثقافة، وشعوراً(٨)، وبشكلٍ عام يمكننا الاطمئنان إلى أن حياة "طه حسين" قبل عام (١٩١٩) كانت فترة تكوين علمى ونضج عقلى، اشترك فى صياغته دراسته للتراث العربى والإسلامى فى مرحلة الأزهر، ثم دراسته على أيدى المستشرقين فى الجامعة القديمة، ثم انفتاحه على معطيات الثقافة الأوربية بفرنسا، واتصاله ببيئة المستشرقين وغيرهم على نطاق أوسع.. إلى جانب حياته ذاتها فى فرنسا، حين عاش تجربة أوربية كاملة

وناضجة، وعلى الرغم من ذلك كله لم تنقطع صلة "طه حسين" بالحياة الثقافية فى مصر، وإنما ظل يكتب بين الحين والآخر كتابات تتسم بالبساطة فى الصحف المعاصرة، ولكن إسهامه الحقيقى بدأ بعد عام (١٩١٩)، عندما عاد متفرغًا للتدريس والكتابة، أستاذًا وكاتبًا، صاحب فكر ورأى وكلمة.

* * *

وعندما أُنشئ حزب الأحرار الدستوريين عام (١٩٢٢) كانت لـ "طه حسين" صلة وثيقة بمثقفيه وعلى رأسهم أستاذه لطفى السيد، فكتب فى صحيفته اليومية «السياسة» وإن لم يرتبط بالحزب تنظيميًّا، وفى "السياسة" بدأ يتناول الأدبين العربى والغربى فى سلاسل من المقالات شبه المنتظمة، وبدأت تتبلور أفكاره واتجاهاته بشكل أنضج.. وقد تواكب ذلك تقريبًا مع تبلور اتجاه دعاة التغريب فى مصر، نحو حركة رافضة لروح التوفيقية التى أرسى دعائمها محمد عبده، وقد بلغت هذه الحركة درجة من التطور منذ أعقاب الحرب الأولى حين طرحت من جديد قضية تحديث مصر وإصلاح مجتمعها وأصبح السؤال المطروح هو: أيستقى الإصلاح من الينابيع الغربية بضغوطها وتأثيراتها وإغراءاتها دون سواها؟ أم يستقى من الينابيع العربية الإسلامية وحدها؟ وبرزت على الساحة أسماء الدكتور هيكل ومحمود عزمى ومصطفى وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وغيرهم.. وفى الفترة نفسها اكتمل وعى "طه حسين" وبدأ يظهر كشخصية عامة وبارزة من خلال كتاباته المنتظمة فى الصحف.. وخلال هذه الفترة كانت أفكار الغرب تتدفق بشكل لم يسبق له مثيل، دون أن تجد من يمحصها على ضوء ملاءمتها للبيئة الاجتماعية التى وفدت إليها، وصار المثقفون يتداولون مصطلحات عن الليبرالية والاشتراكية والديمقراطية والعقلانية والتجديد والمعاصرة والتحديث ونحو ذلك.

وبدأ دعاة الإصلاح التغريبى يتجاوزون مرحلة الطهطاوى ومحمد عبده، وكانا يقولان بدرجات متفاوتة أن الحضارة الحديثة لاتتناقض مع الإسلام[٩]، أما أنصار

الاتجاه الجديد، وقد تلقى معظمهم تعليمه وثقافته فى أوربا، فقد أعادوا النظر فى تلك الأفكار، وبالذات فى علاقة الدين بالدولة.. وبالعلم وبالمجتمع؛ فبرز على عبدالرازق ينادى بفصل الدين عن الدولة، ويحاول إثبات أن الخلافة ليست نظامًا إسلاميًا، وبرز "طه حسين" يدعو للفصل بين الدين والعلم، ويردد أن العاطفة الدينية والوجدان الروحى ومعتقدات السلف، لاعلاقة لها بالعلم الحديث وقوانينه ونتائجه.

ومن خلال هذا الاتجاه سيتم اللقاء فى الفكر العربى بين الإسلام وأفكار الغرب العلمانية، وستتبلور لدى المؤرخين وأصحاب الدراسات الحديثة اصطلاحات غير مألوفة مثل اصطلاح "العلمانيين المسلمين" أو «العلمانية الإسلامية» ونحو ذلك من المصطلحات التى قد تنطوى على لبس وتناقض.. وسوف يستند أنصار هذا الاتجاه أيضًا إلى ما أصاب فكرة الجامعة الإسلامية والخلافة من تدهور، ثم إلى تجربة تركيا الكمالية، مثلما يستند بمقدار مماثل إلى دراساتهم واستيعابهم لنظم الغرب وأفكاره ومناهجه، وانبهارهم بمؤسساته ونمط حياته وتقدمه.. مما أدى إلى ابتعادهم تدريجيًا عن جذورهم العربية الإسلامية، وخصوصًا إذا تذكرنا أن معظم أنصار هذا الاتجاه الجديد قد خرجوا من صلب الأزهر(١٠).

وعلى الرغم من أن "طه حسين" تخصص فى دراسة التاريخ ثم فلسفة الإجتماع، فإن صلته بالأدب العربى وتراثه لم تنقطع، وكانت ثمرة كتاباته فى هذه المرحلة كتاب «حديث الأربعاء» بجزأيه الأول والثانى، كما يتواكب مع ذلك اهتمامه بالأدب الغربى، وكانت ثمرة كتاباته فى هذا المجال كتابى «لحظات» و«صوت باريس»، كذلك صحب ذلك كله اهتمام بالمقال التنويرى المباشر الذى عالج فيه "طه حسين" موضوعات تتصل بالحضارة الغربية ذاتها وما أثارته فى ذهنه من تساؤلات وقضايا جعلته يعيد النظر فى قناعاته وأفكاره، مما انعكس بشكل واضح على تكوينه آراء وقناعات جديدة تتصل برؤيته لعلاقة العلم بالدين، وبموقفه من الأزهر، وبتطبيقه لمناهج العلم والفلسفة الأوربية، بل وبنظرته على ضوء ذلك كله للتراث العربى، وقد عبر عن ذلك كله فى شكل رسائل جمعها فى كتابه المهم «من بعيد» الذى كتبه بين عامى (١٩٢٣ - ١٩٢٦).

وفى خضم ذلك كله كتب "طه حسين" عام (١٩٢٢) فى معرض حديثه عن الدين والدولة أن الإسلام لا يرى أن لقيصر فى الأرض شيئًا، وأن الحكومات الإسلامية تدبر السياسة باسم الدين، وأن التطور السياسى سيفضى قريبًا أو بعيدًا بأن يذهب المسلمون طوعًا أو كرهًا مذهب الأوربيين، فتصبح الخلافة عندهم سلطة دينية خالصة ليس بينها وبين السياسة المدنية صلة أى تصبح سلطة روحية كما يقول الأوربيون(١١).

وفى حوار معه عام (١٩٢٣) حول موقف الشرق العربى من الحضارة الأوربية ذكر "طه حسين" أننا سنتصل بأوربا اتصالاً متينًا أردنا أم لم نرد، وأننا نفكر ونشعر كما يفكر ويشعر الأوربيون، ونسعى لنظام سياسى كنظامهم، وأكد أنه لا بد وأن يتم ذلك كله وأن تغمر الحضارة الغربية مصر والشام حتى يصبح هذان البلدان جزأين من أجزاء أوربا، ثم أضاف أن الرقى سيكون بطيئًا هادئًا، وأنه سيحتفظ بالشخصية القومية دون أن يهمل المدنية الغربية، وقد ميز "طه حسين" بين ضرورة استيعاب علوم الغرب من ناحية واحتفاظنا بشخصيتنا قوية وواضحة فى مجال الفنون والآداب والحياة الاجتماعية من ناحية ثانية، فلا نقتبس من أدب الغرب وفنه ونظامه الاجتماعى إلا ما يمكننا من النمو والتطور(١٢).

وحينما كتب "طه حسين" مقالات «حديث الأربعاء» أبدى تشككه فى الشعر القديم، وأشار إلى مسألة انتحاله، وكان ذلك مقدمة لكتابه الخطير «فى الشعر الجاهلى» الذى حاول فيه أن يبلور نظرته حول قضية الانتحال.. المهم أن نلاحظ خلال تلك الفترة أنه جعل يثبت من وقت إلى آخر أن الدليل النقلى وحده لا يكفى، وأن عنعنة القدماء لا تكفى، بل ينبغى أن يمتحن كل شىء بالدليل العقلى وبالاستقراء، وقد اعتبر هذا بداية لفتح باب الاجتهاد فى البحث الأدبى، ولعله أيضًا يوضح كيف تأثر طه بمناهج البحث التى تعلمها عن العقلانية الفرنسية عند "ديكارت"، وعن الوضعية عند "كونت".

وفى الفترة نفسها تقريبًا كتب "طه حسين" مختارات من الأدب، لخَّص ودرس فيها الكثير من الأعمال الإبداعية والنقدية الفرنسية، أو المترجمة إلى الفرنسية، بشتى

اتجاهاتها ومدارسها، كما قدم دراسات نقدية لأعمال مسرحية شاهدها أو قرأها، نشرها فى مجلة الألوستراسيون. وكان اهتمامه واضحًا بكتابات فرانسوا دى كوريل، وبول هرفيو، وألفريد كابو، وهنرى باتيل، وأناتول فرانس، وفيكتور هوجو، وألكسندر توماس الابن وغيرهم.

وخلال السنوات الأولى من العشرينات راح "طه حسين" يختبر مناهجه بمعالجة تراث الأدب العربى بروح جديدة، بينما كان يدرس التاريخ والأدب الكلاسيكيين ويكتب فيهما مع متابعة إبداعات الثقافة المعاصرة بدأب واهتمام، كل ذلك كان يسير معه فى خط متوازٍ اقتناعًا بوحدة التراث الإنسانى، المستمد من الأصول اليونانية، والذى ساهم فيه العرب بدورهم، وبلغ أقصى نضجه عند الأوربيين المحدثين.

وقد عبر "طه حسين" عن فترة قلقه واغترابه، بروحه وتطلعاته، عن مجتمعه، حين بدا تأثير الفكر الغربى واضحًا فى كتاباته بشكل مباشر.. وبعد تأمل طويل توصل إلى قناعات جديدة، راح يسوقها لقرائه تتعلق بمشكلة علاقة العلم بالدين على وجه الخصوص، وقد ظلت هذه المسألة تؤرقه زمنًا طويلاً، فأنشأ يتمنى لو أتيح للإنسان أن يكون مؤمنًا وعالمًا دون أن يغلو فى التعصب للدين أو للعلم، ويتساءل: أيستطيع الإنسان أن يجمع فى نفسه هاتين القوتين، وأن يطمئن إلى كلتيهما اطمئنانًا بريئًا من التناقض والاضطراب[١٣]؟ لقد رأى "طه حسين" بذلك أن الدين والعلم قوتان منفصلتان، ومن ثم راح يبحث عن سبيل التقائهما فى هذه المرحلة المبكرة من مراحل فكره.

وفى هذا المجال أخذ يتعجب من محاولات علماء الدين إقحام قضايا العلم فى الإسلام، وذلك من خلال استنباط الأحكام القرآنية المتعلقة بكروية الأرض ودورانها، فرأى أن الناس فى الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولات؛ لأنها تظهرهم فى منزلة الأوربيين من الحضارة، وأبدى اعتقاده بأن ذلك يفسد النصوص الدينية، ويعتبر غلوًا فى التأويل، وأن من الخير فى هذا المجال استخدام أسلوب الترجيح «حتى لا نحمل القرآن أوزار اضطراب العلم وتناقضه»[١٤].

وعندما تحدث "طه حسين" عن ضرورة إصلاح الأزهر، كان النموذج الغربى ممثلاً فى رجل الدين المسيحى، حاضراً فى ذهنه، أنموذجًا لما يجب أن يكون عليه رجل الدين.. فيقارنه بمثيله فى الشرق، ويرى أن الأخير قد قصر واجباته على القاء الدروس وإقامة الصلوات.. ثم أبدى اعجابه بفكرة انفصال الكنيسة عن الدولة في فرنسا، وذكر أن انقطاع معونة الدولة للكنيسة جعلها أقوى وأغنى وأكبر تأثيراً(١٥). لقد كانت كل هذه الأفكار، وغيرها، توضح إلى أى مدى تغلغلت أفكار الغرب فى وعى وفكر "طه حسين" حتى لقد أصبح لا يفكر فى أوضاع بلاده إلاّ من خلال ذلك.

* * *

وعندما بدأ "طه حسين" يدرِّس موضوعات الأدب العربى وتاريخه، بدأ بالشعر الجاهلى الذى كان مثار اهتمامه، ومن ثم أخضعه لتأمل طويل وجعل يلقى نتائج بحثه على طلابه أولاً بأول، ثم نشر منه مقالة بعنوان «مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تُلتمس فى القرآن، لا فى الشعر الجاهلى»، ثم أتبعها بأخرى تحت عنوان «وجوب درس آداب وتاريخ العرب على طريقة ديكارت»، وبدأ تدريجيًا يتوصل إلى فكرة رئيسية مؤداها أن ما أضيف للعرب قبل الإسلام من شعر ليس لهم، وإنما لجماعة من المزيفين قالته ونحلته وردده المسلمون بعدهم.. والموضوع فى حد ذاته ليس جديداً تماماً، فقد سبق وتناوله من المستشرقين نولدكه ومرجيليوث، كما سبق أن تناوله ابن سلام فى كتابه عن طبقات فحول الشعراء، لذلك لم يتنبّه إليه أحد، فالمسألة لا تعدُ أن أستاذًا فى الجامعة يدرِّس لطلابه مقررًا دراسيًا أكاديميًا بمنهج علمى، ولكن لم يكد "طه حسين" ينشر دراسته فى كتاب فى أبريل من العام نفسه (١٩٢٦) تحت عنوان « فى الشعر الجاهلى» حتى قامت الدنيا ولم تقعد، فقام لفيف من العلماء، وعلى رأسهم الإمام الأكبر، بتقديم بلاغ للنائب العام يتهمون فيه المؤلف بأنه كذَّب القرآن صراحة، وطعن على النبى نسبه الشريف، ويطالبون بالتحقيق معه، فسارع "طه حسين" بتقديم كتاب لرئيس الجامعة أعلن فيه

إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن دروسه فى الجامعة خلت تمامًا من التعرض للديانات، كما نشرت الجامعة بيانًا كذبت فيه ما نسب إليه، وذكرت أنه ليس من حق أية هيئة أن تتدخل فى شئون الجامعة، بينما وقفت صحيفة «السياسة» مؤيدة لـ "طه حسين" مدافعة عن حرية الرأى والبحث العلمى حتي ولو كان صاحبه مخطئًا.

وهدأت العاصفة إلى حين.. إلى أن أثارها أحد النواب من جديد وطالب بإعدام الكتاب ومحاكمة المؤلف وإلغاء وظيفته واسترداد المبلغ المدفوع له ثمنًا للكتاب، وانتقلت الأزمة من البرلمان إلى الأزهر من جديد، ثم إلى الصحافة فالأحزاب، حتى أصبحت مثار اهتمام الرأى العام، بل لقد خرجت إحدى المظاهرات هاتفة بسقوط "طه حسين"، وبالفعل جُمع الكتاب ومُنع من التداول، وتوقف الأمر عند هذا الحد، حين اعتبر رئيس الوزارة أن إحالة الأستاذ للنيابة يعتبر اعتراضًا على تصرفات وزارته، وطرحًا للثقة بها وهدد بالاستقالة، وكادت المسألة تتحول إلى أزمة سياسية، لولا أن تداركتها حكمة رئيس الوزارة (عدلى يكن) ورئيس مجلس النواب (سعد زغلول).

ولكن إزاء ضغط النواب وإثارة الموضوع من جديد من جانب الأزهر، اضطر النائب العام إلى التحقيق مع "طه حسين"، وحدد التهم المنسوبة إليه من واقع البلاغات فى أربع تهم هى:

١ – أنه كذّب القرآن الكريم فيما أورده عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

٢ – أنه تعرض للقراءات السبع المجمع عليها، وزعم أنها ليست منزلة.

٣ – أنه طعن على النبى نسبه الشريف.

٤ – أنه أنكر للإسلام أوليته فى بلاد العرب، وأنه دين إبراهيم عليه السلام.

وبعد أخذ ورد بين "طه حسين" والنائب العام فى وثيقة تاريخية مهمّة، نوّه النائب العام (الأستاذ محمد نور) فى النهاية بفضل المؤلف «بسلوكه طريقًا جديدًا حذا فيه حذو العلماء من الغربيين، وإن كان قد تورط فى بحثه فتخيل حقًا ما ليس بحق، وحيث

أن غرضه لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين، وأن العبارات التى أوردها إنما وردت فى سبيل البحث العلمى، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها، وحيث إن القصد الجنائى غير متوفر؛ لذلك تُحفَظ الأوراق إداريًا»[١٦].

وتعنينا هنا بشأن هذه الأزمة مسألتان **أولاهما**: تطبيق "طه حسين" لمنهج (ديكارت) **والثانية**: اتهامه بسرقة أفكار المستشرق البريطانى مرجيليوث؛ أمًّا بالنسبة إلى المسألة الأولى، فقد ذكر "طه حسين" صراحة فى بداية كتابه أنه سوف يصطنع مذهب ديكارت، ومن ثم فلن يقبل شيئًا أتى به القدماء إلا بعد التحرى والبحث، وأنه لن ينحاز إلى أى موقف، ومن ثم سينسى عواطفه القومية والدينية.. وقد أدَّى به ذلك بطبيعة الحال إلى الاعتقاد بغير ما تعارف عليه الناس، كما خرجت منه عبارات اعتُبِرَت مساسًا مباشرًا بما ورد فى القرآن الكريم، ومن هنا اتُّهِمَ بالكفر والإلحاد، بينما رأى نقَّاده أنه لم ينجح فى تطبيق مذهب ديكارت ككل، وإنما أخذ عنه بعض العناصر غير المترابطة فى نسق فلسفى، بمعنى أنه لم يستلهم أسس البناء المنهجى كله، فشك فى المسلمات واعتمد على العقل، كما أن منهج ديكارت فلسفى فى حد ذاته ووسيلة اليقين، فى حين أن شك "طه حسين" شك أدبى ومطلق، ووسيلة للإنكار، وبينما ينصب شك ديكارت على القضايا العقلية، فإن شك "طه حسين" انصرف إلى القضايا النقلية. وفى حين أن ديكارت لم يطبق منهجه على المسائل المتصلة بالعقيدة، نجد أن "طه حسين" قد فعل ذلك.

والواقع أن "طه حسين" لم يتبنَّ فلسفة ديكارت فى التفكير بقدر ما وقف عند حدود الشك المنهجى مطبقًا على الأدب، وربما يعد صحيحًا أن منهجه يعتبر -كما يقول الأستاذ محمود أمين العالم- تواصلاً فى الحقيقة لمنهجه العقلى الصارم الذى أخذ به نفسه، منذ رسالته عن أبى العلاء، ولم يكن الشك الديكارتى سوى جانب واحد من منهجه العقلى العام، ولكنه ليس سمته الأساسية[١٧].

أما بالنسبة إلى المسألة الثانية، وهى مسألة اتهام "طه حسين" أنه أسَّسَ أفكار كتابه على آراء قدَّمها مرجيليوث فى مقالة له نشرت عام (١٩٢٥) بعنوان «أصول الشعر العربى»، وأنه

استقى منه ما يتعلق بشواهد الدين واللغة. والواقع أنه يمكن القول إن "طه حسين" قد أفاد من أفكار (مرجيليوث) على نحو ما يستفيد المشتغلون بقضايا الثقافة والفكر من آراء بعضهم البعض، كما أنه كانت لـ"طه حسين" أفكار أخرى لم يتطرق إليها (مرجيليوث)، إلى كونه أفاد على نطاق أوسع من روايات «ابن سلام الجمحي» في كتابه «طبقات فحول الشعراء»، وربما أراد "طه حسين" أن يثبت أنه كعربي لا يمكن أن يكون دون المستشرق في الاستنباط والاستنتاج والتوسع في فهم دلالات الأخبار، وقد أكدت زوجته هذا المعنى في كتابها عنهما، وعنوانه «معك» نقلاً عن رسالة منه إليها ذكر فيها أن أبحاثه تصل إلى نتائج كبار المستشرقين، وقد حقق (د. يحيى الجبوري) هذه المسألة عندما نشر ترجمة كاملة وأمينة لمقالة (مرجيليوث)، كذلك فقد نشر (د. إبراهيم عبدالرحمن) مؤخراً ترجمة لمقالة أخرى لـ (مرجيليوث) تعتبر وثيقة أدبية تبرئ "طه حسين"، كانت قد نشرت عام (١٩٢٧) يذكر فيها المستشرق أن فكرة "طه حسين" مماثلة للفكرة التي أدار حولها بحثه، وأن كليهما قد توصل، مستقلاً عن الآخر، إلى نتائج متشابهة.. وثمة فارق جوهري بين آراء "طه حسين" وآراء مرجيليوث؛ فبينما ينكر المستشرق أن يكون الجاهليون قد نَظَمُوا شعراً، نرى طه يذهب إلى الثقة في وجود شعر جاهلي، ولكنه يُشَكِّكُ في صحة الكثير من نصوصه بسبب تحريف الرواة، كما أن الشواهد الدينية واللغوية التي قيل إن "طه حسين" قد سطا عليها ليست من ابتداع (مرجيليوث)، وإنما هي من قبيل الأفكار الشائعة في التراث النقدي، وقد اعترف "طه حسين" بأنه لم يطلع على مقالة (مرجيليوث) إلا بعد عام من صدور كتابه[١٨].

وعموماً أعاد "طه حسين" طبع كتابه في العام التالي بعد أن غير عنوانه، وأصبح «في الأدب الجاهلي»، وحذف منه الفصل الذي أثار المعركة، وأضاف فصولاً جديدة؛ فهل تراجع عن أفكاره؟ لا نعتقد ذلك؛ لأن الضجة التي أثارتها العبارات المتعلقة بالدين قد غطَّت على جوهر الكتاب، وهو المنهج الذي أراد ترسيخه، فكان أشبه بمناورة بدا ظاهرها التراجع، في حين أن الفصول الأربعة التي أضافها كانت تدعم المنهج

وتؤصله.. وقد فطن (الأستاذ محمد أحمد الغمراوى) فى كتابه «النقد التحليلى» إلى حقيقة ذلك حين ذكر أن «المنقود قد عاد فانبعث بعد أن غير زيه، وأنه لم يغير من حقيقة الكتاب، فكتاب "فى الأدب الجاهلى" هو كتاب "فى الشعر الجاهلى" بروحه وغايته وطريقته(١٩)..».

وفى تقديرنا أن العبارات التى وردت بكتاب «فى الشعر الجاهلى» التى اعتبرت مساسًا بالدين، والتى حذفها فى الطبعة المعدلة هى التى كانت وراء اتساع دائرة اتهام "طه حسين" بالسطو على أفكار المستشرقين، وربما لو جاءت الطبعة الأولى خلواً من هذه العبارات، وهى ما كانت تؤثر بالضرورة فى بحثه الأدبى، لما كان هناك ثمة داعٍ للاتهام.. وإن كان هذا لا ينفى أن عباراته المتعلقة بالدين جاءت خلواً من وضعه موضع التقديس والإجلال الكاملين، تحت زعم البحث العلمى المتحرر، فى فترة كان فيها منبهراً بنتائج وأبحاث المستشرقين ومندفعًا بحماسة الشباب، التى حالت بينه وبين التأمل الطويل والمراجعة المتأنية.

* * *

وفى عام الأزمة نفسه، نشر "طه حسين" عدة مقالات تحت عنوان «بين العلم والدين» أكد فيها على أن الخصومة بين العلم والدين جوهرية وقديمة، ولا سبيل إلى إزالتها إلا أن ينسى كل منهما صاحبه نسيانًا تامًا.. وقد نسى "طه حسين" – أو تناسى – أنه عندما كان يعرض لقضية الشعر الجاهلى بمنهج علمى حديث لم يستطع نسيان الدين نسيانًا تامًا، وقد أضاف أن السياسة هى التى تتدخل بين العلم والدين فتفسدهما معًا، ثم عاد يؤكد من جديد إيمانه بالتفكير العلمى المجرد، الذى لا يتأثر بالعصبية الجنسية أو الدينية، كذلك دعا إلى استبعاد فكرة الحكومة الدينية، وإقامة الوطنية على أساس المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة. ورأى أن مصر تسرع الخطى لتصبح

جزءاً من أوربا، وأن حكومتها أصبحت تأتى من الأمور ما لم يبحه الإسلام، فهى تتعامل بالمصارف وتنظم الربا وتبيح ألوانًا من المعصية[٢٠]!! .

لقد بدت فى هذه الأفكار تأثيرات العلمانية الغربية التى رددها "طه حسين" وإن لم تتفق وطبيعة مجتمعه العربى الإسلامى؛ لأن نظرته إلى الوجود، فى هذه المرحلة من حياته، لم تكن نظرة دينية؛ لذلك رأى فى العلم ما قد يناقض الدين، ولاسيما فى أساليبه العلمية الخالصة، وكان واضحًا كم تأثر بفلسفة "كونت" الوضعية التى تؤكد انفصال الحقيقة الدينية عن الحقيقة العلمية، وأن النظرة الدينية إلى الوجود إنما تشكل فقط مرحلة من مراحل تطور البشرية.

وذهب "طه حسين" لأبعد من هذا حين تساءل عام (١٩٢٨) فى كتابه «رحلة الصيف» لماذا لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم فى الكتب المقدسة من حيث هى موضوع للبحث العلمى والفنى بقطع النظر عن مكانتها الدينية؟ وذكر أن الغربيين قد كسبوا لأنفسهم هذا الحق، وأنهم يدرسون الكتب الدينية ويعلنون نتائج درسهم فى حرية وصراحة[٢١]، وكان طه متأثراً فى ذلك بأفكار أستاذه "كازانوافا" وبطريقته فى تفسير القرآن بـ (الكوليج دى فرانس)، كما كان متناقضًا مع دعوته لابعاد العلم ومناهجه عن الدين على اعتبار أن الكتب المقدسة هى نصوص دينية بالدرجة الأولى.

ومنذ عام (١٩٣٣) اشترك "طه حسين" فى موجة معالجة الموضوعات الإسلامية والتى كان فرسانها عباس العقاد والدكتور هيكل وأحمد أمين وتوفيق الحكيم[٢٢]، والتى على أثرها نشر فى عام (١٩٣٥) وحده نحو عشرين كتاباً عن الإسلام، عدا المجلات الإسلامية، وكان وراء هذه الظاهرة تدهور المادية الغربية وعجزها، ولجوء كنيستها إلى موجة عارمة من التبشير، بالإضافة إلى الفزع من الشيوعية مما دفع الجميع إلى الاعتصام بالعقائد واللوذ بالإسلام[٢٣].. وكان التحول ظاهرة جماعية اشترك فيها "طه حسين" بكتابه «على هامش السيرة» حين عبَّر فى مقدمته عن تشككه فى قيمة العقل

وحده، وضرورة عدم التسليم به فى شأن المعجزات، وبدا كما لو كان رافضاً للإلحاد الذى تُوصِّل إليه العقلانية العلمية إذا ما بلغت أقصى غاياتها.

وعندما سُئل "طه حسين" عن هذا التحول فى أواخر أيامه أجاب: هل كان واجبنا المقدس أن نترك هذه الموضوعات للمستشرقين؟ إن العلم ليس حكراً عليهم ونحن أولى بتاريخنا منهم، إن الإسلام ثقافة عالمية ومرحلة من مراحل الرقى الإنسانى عظيمة، فهل تصبح دراسته أقل شأناً من دراسة امرئ القيس؟ إننا لم نتخل عن مناهجنا التى درسنا بها الشعر وغير الشعر، وطبقناها على روح العقيدة، لقد كان الإسلام مدخلنا لترسيخ المنهج، وكان المنهج مرشدنا إلى اقتلاع الخزعبلات من جذورها(٢٤)..».

إن "طه حسين" لم يتغير إذن، وإنما ارتاد ميداناً جديداً، يتفق مع اتساع اهتماماته وميادين كتابته، وليس غريباً أن يشعر بضرورة البحث فى الأصول الإسلامية بوعى المنهج الحديث الذى تعلمه من حضارة الغرب.. وعموماً لقد ظل أميناً خلال الثلاثينيات لاهتماماته المزدوجة بالأدبين العربى والغربى، فعاود نشر فصول جديدة من «حديث الأربعاء»، بينما كتب باباً أسبوعياً ثابتاً بصحيفة «الجهاد» تحت عنوان «فى الأدب الغربى».. ومثلما كتب عن فولتير وروسو ورينان وبول فاليرى وأندريه جيد، وترجم أندروماك لـ "راسين"، كتب أيضاً عن المتنبى واستكمل دراسته لـ "حافظ وشوقى"، وكتب عن أبى تمام والبحترى وابن الرومى دراساته التى ضمَّها كتابه «حديث الشعر والنثر»(٢٥).

فمازال إعجاب "طه حسين" بالحضارة الغربية قائماً، ومازال دائب البحث فى التراث العربى بوعى المنهج، ومازالت فى أوربا - كما كتب - قوة خصبة غزيرة تؤهلها للسلطان الواسع، وإنه لمن العجز أن نلهى أنفسنا عن السعى والجد حتى نبلغ ما بلغه الغربيون، فهو مازال على قناعة بأن لنا «مقومات خاصة» مهما أصبحنا نطمئن إلى أن الحضارة الغربية ضرورة من ضرورات حياتنا، وأن هذه المقومات الخاصة ليست حاجتنا إليها بأقل من حاجتنا إلى الحضارة الحديثة. وعاد فى كتابه «من لغو الصيف

إلى جد الشتاء»[٢٦] ليؤكد أهمية «الملاءمة» بين هذه الحضارة التى نُقلَت إلينا بالفعل، وأشياء أخرى لا بد لنا من أن نحتفظ بها لنكون أمة مستقلة.

* * *

وبعد أن وقّعت مصر مع إنجلترا معاهدة التحالف عام (١٩٣٦) ووقعت مع الدول الأوربية معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية عام (١٩٣٧) اعتقد "طه حسين" أن مصر بموجب المعاهدتين أصبحت حليفة لإنجلترا ولأوربا، ونداً لهما، وأنها تستقبل عهداً جديداً ستأخذ فيه من الحضارة الحديثة بنصيب أوفر؛ لذلك طرح أفكاره السابقة وعاد إلى الدعوة إلى تبنى أسباب تقدم الحضارة الأوربية تبنيًا كاملاً، وجاء كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» تقريراً كاملاً ومفصلاً عن مفهومه الجديد والمطور، استجمع فيه كل أفكاره السابقة عن التحديث والتمدين والاستفادة من النموذج الغربى، وبعد أن كان ينادى بنقل التراث والمناهج الغربية إلى مصر، راح – فى اندفاعة واضحة – يلحق مصر ذاتها بأوربا، ويستنبط من التاريخ، مع الغلو فى التفسير، ما يؤيد فكرة أن مصر كانت دومًا جزءًا من أوربا من خلال عالم البحر المتوسط[٢٧]، ومن ثم نادى بإلحاقها بها من جديد، مع ما يعنيه ذلك من أن تشيح بوجهها عن الشرق، ولو كان عربيًا إسلاميًا، لقد لجأ "طه حسين" إلى التدليل على فكرته بكثير من التعميمات القابلة للجدل.. حتى ليعد كتابه هذا – فى تقديرنا – أكثر خطورة وأهمية من كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى دعا فيه لمجرد تطبيق منهج أوربى قاده للتشكيك فى المسلمات، كما أنه عاد ليطالب بفصل الدين عن الدولة بشك قاطع.

لقد حاول "طه حسين" أن يجد ما يحل به الصراع بين حبه لوطنه وألمه لتخلفه من جهة، وإعجابه بالغرب ونقمته عليه؛ لأنه أسهم فى هذا التخلف من جهة أخرى، فأنكر أن تكون مصر بلداً شرقيًا، إلا بالمعنى الجغرافى، وجعلها جزءًا من أوربا فى كل ما

يتصل بالحياة العقلية والثقافية، مستعينًا في ذلك بنظرية بول ڤاليرى عن خصائص العقل الأوربي؛ حيث وجدها تنطبق على العقل المصرى، وأكد "طه حسين" أن الشرق الذى يعنيه الشاعر الإنجليزى "ديارد كبلنج" الذى ذكر أنه لن يلتقى مع الغرب، هذا الشرق لا يصدق على مصر.

وحتى لا يبدو "طه حسين" متنكرًا لهُويّته المصرية المسلمة راح يؤكد بالقرائن التاريخية أن الإسلام ذاته من مقومات الفكر الأوربي؛ لأنه عرَّف أوربا بالتراث القديم، ليصل بذلك إلى نتيجة مؤداها أن حضارة مصر المسلمة تعد أصلاً من أصول الحضارة الأوربية، وأنه لا ينبغى للمصرى أن يشعر بالنقص الذى يعانيه الشرقيون.. لقد حاول "طه حسين" بذلك كله أن «يوفق» بين هُويَّته المصرية المسلمة التى أودعها فيه تراثها، واعتز بها، وهُويَّته الأوربية التى اكتسبها من ثقافته وأعجب بها[٢٨].

كذلك ذهب "طه حسين" إلى التدليل على أن حياتنا المادية أوربية خالصة، وأن المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية هو المثل الأوربى، وأننا نفعل ذلك فى حياتنا العملية عن علم به وتعمد، ولكننا ننكر ذلك فى ألفاظنا وعقائدنا، فنتورط فى نفاق بغيض!. وقد وجد فى تغلغل النظم التعليمية والتشريعية والسياسية الغربية إلى حياتنا شاهداً ودليلاً على صحة أفكاره. ورأى أن السبيل لإزالة الهوة التى بيننا وبين أوربا هى أن نسير سيرتها ونسلك طريقها لنكون لها نداً وشريكًا فى الحضارة، وأنشأ يكرر أنه لا يدعو إلى شىء عملى وإنما يدعو إلى شىء نفسى، فقد دخلت علوم أوربا وفنونها الأزهر ذاته، كذلك هاجم "طه حسين" الفكرة الشائعة عن روحانية الشرق؛ حيث اعتبره مهد العقل الذى يزدهر فى أوربا الآن..

وعلى الرغم من ذلك كله يؤكد طه حسين أنه لا يدعو لأن ننكر أنفسنا، ولا أن نجحد ماضينا ولا أن نَفنَى فى الأوربيين وتساءل مستنكراً: كيف يستقيم ذلك وأنا أدعو إلى أن نثبُت لأوربا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها[٢٩]؟

* * *

ويبدو أن طه حسين وجد نفسه قد ذهب بعيداً فى التعبير عن إعجابه بالغرب وحضارته على نحو أخلّ بالتوازن الذى يريده ويبتغيه؛ لذلك فإنه منذ عام (١٩٣٩) عاد تدريجياً يتذكر الشخصية القومية لمصر، ويتحدث عن روح الأدب المصرى، كما أخذ يخضع قناعاته السابقة لكثير من التأمل والتحليل والمراجعة، ومن هنا عاد إلى نقطة بدايته مع أبى العلاء المعرى، كأنما يعيد النظر فى مسيرته هو، فألّف عنه كتابه «مع أبى العلاء المعرى فى سجنه» عام (١٩٣٩)، وأرجع محنة المعرى – كأنما يتحدث عن نفسه فيما يشبه المناجاة – إلى أنه اتخذ العقل إماماً واعتبره نبيًّا، ثم أكد أن العقل وحده لا يصلح ملكة للمعرفة، وكان "طه حسين" قد توصل إلى إرهاصات هذه الأفكار منذ أن جرفته موجة الموضوعات الإسلامية، وكتب «على هامش السيرة» حين ذكر فيه أن للإنسان ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا عن العقل، كما عاد فى كتابه «مرآة الإسلام» ليفسر الشقاق بين زعماء الفرق الإسلامية بأنهم آمنوا بالعقل وحده، وحكّموه في كل شيء، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة[٣٠].

ومن الطريف أن "طه حسين" قد أباح لنفسه حضور مجلس من مجالس الذكر عام (١٩٤٠) وسخر من سخرية المثقفين منه، وذكر هامساً أنه يحب هذه المجالس ويجد فيها نفسه الضائعة[٣١]!

بل لقد ذهب "طه حسين" لأبعد من هذا وأبعد من مراجعة نفسه بشأن سيادة العقل وحده، وسيادة التراث الغربى، بأفكاره ونظمه وحده أيضاً، فكتب عام (١٩٤٦) فى كتابه «ألوان» يتعجب من أولئك الذين يفكرون فى العدل الاجتماعى وينظرون إلى ما وراء البحر المتوسط ليلتمسوا فى أوربا هذه الأفكار ولا ينظرون إلى فكرة العدل الاجتماعى كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة، وأضاف: لا أريد أن نستعير من أوربا هذا المذهب أو ذاك، وإنما أحب أن ألفت إلى أن لنا فى المطالبة بالعدل الاجتماعى تاريخاً حافلاً يستحق أن نرجع إليه؛ فنحن لسنا عيالاً على المطالبين به من الأوربيين[٣٢]، وهكذا راح "طه حسين" يستوحى من التراث العربى الإسلامى ما يواجه به

فكر الغرب ونظرياته، مندهشًا من كيفية الإعجاب الأعمى بالغرب وأفكاره مع الجهل التام بمضمون التراث الإسلامى وعناصر القوة والحيوية فيه.

وفى كتابه «الفتنة الكبرى» (جـ١) الذى نشره عام (١٩٤٧) كتب أن الإنسانية سلكت فى سبيل الحكم الصالح والعدل الاجتماعى كل الطرق وجربت كل النظم ولم تنته إلى غاية ومازالت تشكو من الظلم وتضيق بالاستذلال والاستغلال وتبحث عن النظام القويم الذى يضمن للناس الحرية والعدل جميعًا، وهذا النظام هو الذى حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبى بكر وعمر أن تنشئه.. وراح فى كتابه هذا يقف أمام هذه التجربة بكثير من التأمل والأناة[٣٣].

وخلال الفترة نفسها كتب «المعذبون فى الأرض» ليلقى نظرة شديدة التشاؤم على مستقبل النظام الليبرالى القائم الموجه صوب البحر المتوسط غربًا، وذلك من زاوية إخفاقه فى تحقيق الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية للجموع الآدامية المريضة الجاهلة، التى أصبح القول إنها تنتمى بجذورها الحضارية لأوربا، وإن عقلها أوربى، ضربًا من الترف الفكرى[٣٤].

وسوف نلاحظ أن "طه حسين" يدعو إلى تقليد أوربا فى الغايات وليس فى الوسائل؛ «لأن مجتمعنا له طبيعة خاصة، كما أن التشبه بأوربا غاية لا تقصد لذاتها، وتقليد أوربا فى دساتيرها ونظمها السياسية والإدارية، ليس ليعرف العالم أننا لسنا أقل من أوربا تقدمًا، سواء عملت هذه الدساتير أو النظم كما تعمل مثيلاتها فى أوربا أم لا، واعتبر ذلك نوعًا من الفشل، ومن ثم دعا لإعادة تقييم هذه التجربة برمَّتها -كما ذكر فى كتابه «بين بين»[٣٥].

وفى محاضرة ألقاها بالفرنسية عام (١٩٥٠) بالمركز الجامعى لدول البحر المتوسط بمدينة «نيس»، استعرض تاريخ العلاقات (المصرية -الفرنسية) منذ بونابرت، وأشار إلى أهمية هذه العلاقات فى بناء مصر الحديثة، وطالما ردد "طه حسين" هذه الأفكار، ولكن الجديد هنا -كما يعلق مترجمها د. حامد طاهر[٣٦]- أن "طه حسين" حاولِ حقًّا أن يثبت

أن لمصر مقومات البلد القادر على منافسة – أو على الأقل مجاراة – الأوربيين، وأنه قد تلاشت من محاضرته نغمة تبعية مصر للغرب.

وفى عام (١٩٥٥) زار "طه حسين" الحجاز واعتمر وخطب فى جدة فى مؤتمر اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية أن الغرب الأوربى والأمريكى على تفوقه مدين بعلمه للأصول العربية الخصبة، وطالب الأوربيين أن يردوا ما عليهم من دَيْنٍ وألا يسرفوا فى العزة والإثم، ودعا إلى التعمق فى العلم والثقافة، فنأخذ ما يلائم طباعنا وأمزجتنا لننتفع به فى ترقية حضارتنا حتى لا نكون عيالاً على الأوربيين والأمريكيين[٣٧].

وقد كتب فى كتابه «نقد وإصلاح» عام (١٩٥٥) يدفع عن نفسه تهمة فنائه فى الحضارة الغربية، وذكر أنه طالما دافع عن الحضارة العربية والإسلامية وعن الإسلام ذاته، وأنه لا يخاصم المسلمين عن الإسلام، وإنما يخاصم عنه غير المسلمين فى غير موطن من أوربا، وأضاف أنه اتهم فى بعض البيئات الأوربية بالتعصب للإسلام[٣٨].

وفى عام (١٩٥٩) كتب فى «مرآة الإسلام» أن المستعمرين الأوربيين فى هذا العصر يوشكون أن يفرضوا علينا ضروبًا من العلم، قد تُخرجنا من الجهل، ولكنها ستقطع الأسباب حتى بيننا وبين تاريخنا وتفنينا فى الأمم المستعمرة إفناءً، وأن سبيلنا إلى يقظة خصبة هو أن نتذكر ما نسينا من تراثنا القديم، وأن نعرفه حق المعرفة، ونستدرك ما فاتنا من العلم الحديث، وأن نبتغى إليه الوسائل، وأن نوطنه فى بلادنا، ونجعله ملكًا لنا، وأن نشارك المستأثرين به مشاركة الأنداد[٣٩].

وفى أوائل الستينيات كتب "طه حسين" عن ضرورة إحياء التراث العربى الإسلامى بل وشارك بنفسه، وأشرف على تحقيق العديد من كتبه، على نحو ما هو معروف وعلل ذلك بمقاومة ما يُكاد لنا من المستعمرين وأعوانهم، وحتى نتلقى أنواع الثقافات منتفعين بها دون أن تفنى فيها شخصيتنا[٤٠]، وأضاف أن رقى أمتنا يكون بحرصها على أن تكون حياتها مزاجًا معتدلاً من المحافظة على تراثنا العربى القديم والأخذ بأسباب العلوم والثقافات التى يعيش فيها العالم الحديث.. وفى حديث له عن الشعر الحر أعلن

أنه ليس من خصومه، وذكر أن الغربيين جددوا فيه وانتصروا رغم أنصار القديم، ثم تساءل باستنكار وهو الخبير بما يقول: ما بالنا نذهب إلى الغرب ونحن نستطيع أن ننظر في تاريخ شعرنا العربي فنراه قد تعرض لألوان مختلفة من التجديد(٤١)؟.

وهكذا عاد "طه حسين" إلى التراث العربي والإسلامي، متخففًا من ثقل وبريق الحضارة الغربية، مفتشًا عن أصول وإمكانات النهضة في هذا التراث بعقلية جديدة ومنطق متوازن.. موفقًا بين الجيد والنافع منه، وبين حاجة التطور وسنته التي تقضي بالافادة من علوم الغرب وفنونه وآدابه، بغير انبهار أو فناء فيه، وبالقدر نفسه بغير تقديس أعمى للتراث بُرمته لمجرد أنه تراثنا.

ولعلنا لاحظنا أنه وهو في قمة دعوته وحماسته لفكر الغرب وثقافته ومناهجه لم يفقد أرضيته التي انطلق منها، وهي أرضية عربية إسلامية.. فلم يترك تراثها أو يجافيه، ولم ينعزل تماماً في الغرب أو يفنى فيه، بل إنه وهو في قمة أزمته عند تطبيق منهج غربي كان يعالج موضوعاً تراثيًا وهو الشعر الجاهلي. كما نلاحظ أنه خلال الأربعينيات وما تبقى من حياته عاد إلى توفيقية أستاذه محمد عبده، وعاد إلى الملاءمة والمواءمة، وعادت الخصوصية محور اهتمامه من جديد، بعد رحلة شاقة ومرهقة أضناها العقل في البحث عن التطور والحداثة، إن لم تكن عن الإيمان.

* * *

هوامش الفصل الرابع ومصادره

(١) انظر لويس عوض: "ثقافتنا في مفترق الطرق"، ص ١٢٠ وما بعدها.

(٢) طه حسين: "الأيام"، جـ٢ ص ٣٢٤-٣٢٥، ص٣٦٨-٣٦٩ (المجلد الأول من المجموعة الكاملة).

(٣) "الجريدة"، في ٣١/١٠/١٩١٠، ٤/١١/١٩١٠ (مقالتا طه حسين). وراجع محمد سيد كيلاني: طه حسين الكاتب والشاعر، ص ٣٩-٤١.

(٤) طه حسين: "الأيام"، جـ٣ (المجموعة الكاملة) ص ٤٤٦.

(٥) المصدر السابق ص ٥٧٩.

(٦) المصدر السابق ص ٥٦١، وانظر كذلك: حمدى السكوت وآخر: "أعلام الأدب الحديث في مصر (١) طه حسين"، ص ١٥، عبدالعزيز شرف: "طه حسين وزوال المجتمع التقليدى"، ص ٢٩-٣١.

(٧) حول طه حسين والدراسات الكلاسيكية راجع: شكرى عياد: "طه حسين والثقافة اليونانية"، عدد فبراير من مجلة "الهلال" ١٩٦٦ ص ١٠٣-١٠٥، لويس عوض: المرجع السابق ص١٢١، غالى شكرى: "ماذا يبقى من طه حسين؟"ص٥٠-٥٢.

Safran, N., Egypt in Search...p. 130.

(٨) الأب كمال قلته: "طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في تكوينه" (عن كتاب محمود الإستانبولي: "طه حسين في ميزان الأدباء والعلماء" ص ٤٠٣-٤٠٦).

(٩) غالى شكرى: "النهضة والسقوط في الفكر المصرى الحديث"، ص ٢٥٣.

(١٠) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأحرار الدستوريين"، ص ٤٧٧-٤٧٩.

(١١) صحيفة "السياسة"، ٥ نوفمبر ١٩٢٢ (مقال مسألة الخلافة لـ "طه حسين").

(١٢) مجلة الهلال، أول يناير ١٩٢٣ (استفتاء دار الهلال حول نهضة الشرق).

(١٣) طه حسين: "من بعيد" ص (١٦-١٧) (مقال: في السفينة، أول أبريل ١٩٢٣).

(١٤) المصدر السابق ص (٤٨-٥١) (مقال: شك ويقين، أبريل ١٩٢٣).

(١٥) المصدر السابق ص (١٦٦ . ١٧٣) (مقال: الخيل الخيل، مايو١٩٢٣).

(١٦) حول قضية الشعر الجاهلي راجع قرار النيابة في كتاب الشعر الجاهلي ص (٣١-٣٢)، وكتاب طه حسين: "في الشعر الجاهلي" ص١-٤٢، أحمد كمال زكي: "في الشعر الجاهلي، نظرة أم نظرية"، هلال فبراير ١٩٦٦ ص ١٦٧، مجلة "الفجر" في (١١-٢٥) أبريل ١٩٢٦ (مقالتا طه حسين)، "السياسة" في ١٣ مايو، ٧ يوليو ١٩٢٦-غالي شكري: النهضة والسقوط ص٢٤٨-٢٥١، (ماذا يبقى من طه حسين؟) ص ٦٨-٦٩، سامح كريم: (ماذا يبقى من طه حسين؟) ص٨٤-٨٥- خيري شلبي: "محاكمة طه حسين" ص١٤، نجاح عمر: "طه حسين أيام ومعارك"، ص ٥٤-٥٦.

(١٧) حول طه حسين ومنهج ديكارت راجع: ترجمة ودراسة يحيى الجبوري لكتاب مرجيليوث: "أصول الشعر الجاهلي" ص٣٢، محمد فريد وجدي: "نقد كتاب في الشعر الجاهلي" ص٢-٩، مصطفى صادق الرافعي: "تحت راية القرآن" ص ١٣٨-١٥٠- طه حسين: "من بعيد" ص٢٩٠-٢٩٦- كامل زهيري: "طه حسين رجل ومنهج"، هلال فبراير ١٩٦٦ ص١١٠-١١١، محمود أمين العالم: "طه حسين مفكراً"، هلال فبراير ١٩٦٦ ص ١١٧-١٢٠.

(١٨) انظر كتاب الجبوري: "ترجمة ودراسة أصول الشعر الجاهلي" لـ "مرجيليوث"، ص٣٦، ص٤٣-٤٤، أحمد كمال زكي: مقاله في "الهلال" ص١٦٧، سوزان طه حسين: "معك" ص٧٦، صحيفة "الأهرام" ١٧،٣ فبراير ١٩٨٦، مقالتا عبدالرشيد الصادق: "عن طه حسين ومرجيليوث" بالأهرام ٣١ أكتوبر، ٧ نوفمبر ١٩٨٦.

(١٩) راجع كتاب محمد أحمد الغمراوي: "النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي"، ص١١-١٤.

(٢٠) طه حسين: "من بعيد" ص٢٠٦-٢١٠، ص٢١٢-٢١٣.

(٢١) طه حسين: رحلة الربيع والصيف، ص ١٠٦-١٠٧ وما بعدهما.

(٢٢) حول موجة التحول للموضوعات الإسلامية انظر:

Smith, Charles, The Crisis of Orientation p.p.382-410.

(٢٣) محمد جابر الأنصاري: "تحولات الفكر والسياسة" ص ١١٥ وما بعدها، نازك سابا يارد: "الرحالون العرب وحضارة الغرب" ص ٤٤٢-٤٤٣.

(٢٤) غالي شكري: "ماذا يبقى من طه حسين؟" ص ٦٠-٦٤، حديث طه حسين المؤلف.

(٢٥) حول إيمان طه حسين بوحدة العقل الإنساني لتفسير انتقالاته راجع الدراسة القيمة والممتعة لـ "جابر عصفور": "المرايا المتجاورة" ص٨-٣، ص٢٣٢-٢٤٤.

(٢٦) طه حسين: "من لغو الصيف إلى جد الشتاء" ص١٥٨-١٦١ وكذلك، أحاديث، ص ١٢٤-١٢٦.

(٢٧) طه حسين: "مستقبل الثقافة في مصر" ص١٤-٢٠.

(٢٨) نازك سابايارد: "الرحالون العرب وحضارة الغرب"، ص٥٣٣-٥٣٦.

(٢٩) طه حسين: "مستقبل الثقافة في مصر"، ص٥٤-٥٧.

(٣٠) طه حسين: "على هامش السيرة"، جـ١، ص٦٧٦، "مرآة الإسلام"، ص ١٦٧ وما بعدها، مجلد إسلاميات طه حسين.

(٣١) طه حسين: من لغو الصيف، ص١٧٥.

(٣٢) طه حسين: ألوان، ص٥٤٨ وما بعدها، المجلد السادس من المجموعة الكاملة لـ "طه حسين".

(٣٣) طه حسين: "الفتنة الكبرى"، عثمان، ص٦٦٤-٦٦٥، مجلد الإسلاميات.

(٣٤) انظر كتاب محمد جابر الأنصاري السابق ذكره ص٩٧.

(٣٥) طه حسين: "بين بين"، مقال الوسائل والغايات، ص١٠٤-١٠٩.

(٣٦) طه حسين: "مصر وفرنسا"، محاضرة ترجمة وتقديم : حامد طاهر، ص٥٣.

(٣٧) سامى الكيالى: "مع طه حسين" ص١١٥ وما بعدها، وقد ذكر أنه حجَّ والمعروف أنه اعتمر فقط.

(٣٨) طه حسين: نقد وإصلاح، ص ٢٦-٢٧٣.

(٣٩) راجع كتاب طه حسين «مرآة الإسلام».

(٤٠) حمدى السكوت وآخر: "أعلام الأدب الحديث فى مصر، (١) طه حسين"، ص١٠٩-١١٠ قائمة بالكتب التى حققها والتى أشرف على تحقيقها.

(٤١) طه حسين: "كلمات"، ص٩١-٩٣

مصادر الفصل الرابع ومراجعه

وثائق : قرار النيابة فى كتاب "فى الشعر الجاهلى" مطبعة الشباب، القاهرة، مارس ١٩٢٧.

دوريات : صحيفة "السياسة": نوفمبر ١٩٢٢، ١٣ مايو ١٩٢٦.

١٦.٧ يوليو، ٢٧ سبتمبر ١٩٢٦.

٢٠. ٣٠ أكتوبر ١٩٢٦، ٥ نوفمبر ١٩٢٦.

مجلة "الهلال": عدد أول يناير ١٩٢٣.

صحيفة "الأهرام": ٣. ١٧ يناير ١٩٨٦، ٧ فبراير ١٩٨٦.

١٤. ١٦. ٢١ أكتوبر ١٩٨٦، ٧ نوفمبر ١٩٨٦.

مذكرات وذكريات :

– طه حسين : "الأيام"، ثلاثة أجزاء، المجلد الأول من المجموعة الكاملة، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٤.

– سوزان طه حسين: "معك"، الطبعة الثانية، ترجمة بدر الدين عردوكي، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢.

من مؤلفات طه حسين:

– "فى الشعر الجاهلى"، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦.

– "رحلة الربيع والصيف"، الطبعة التاسعة، دار العلم بيروت ١٩٨١.

– "من بعيد"، الطبعة التاسعة، دار العلم بيروت ١٩٨٢.

– "بين بين"، الطبعة الأولى، دار العلم بيروت ١٩٨١.

– "خصام ونقد"، الطبعة الثانية عشرة، دار العلم بيروت ١٩٨٥.

– "كلمات"، الطبعة الثانية، دار العلم بيروت ١٩٧٧.

– "من لغو الصيف إلى جد الشتاء"، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦١.

– "أحاديث"، الطبعة السادسة، دار العلم بيروت ١٩٧٧.

– "نقد وإصلاح"، الطبعة التاسعة، دار العلم بيروت ١٩٨٢.

– "من لغو الصيف"، الطبعة الرابعة، دار العلم بيروت ١٩٧٢.

- "مستقبل الثقافة فى مصر"، مطبعة المعارف، القاهرة ١٩٣٨.
- "ألوان"، المجلد السادس من المجموعة الكاملة، بيروت ١٩٧٣.
- "إسلاميات طه حسين"، الطبعة الثالثة، دار العلم، بيروت ١٩٨١.
- محاضرة بالفرنسية «مصر وفرنسا» ١٩٥٠، ترجمة وتقديم: حامد طاهر، مجلة دراسات عربية وإسلامية، القاهرة ١٩٨٥.

دراسات ومؤلفات :

- أحمد كمال زكى: "فى الشعر الجاهلى، نظرة أم نظرية"، مجلة "الهلال" فبراير ١٩٦٦.
- ألبرت حورانى: "الفكر العربى فى عصر النهضة"، ترجمة: كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨.
- جابر عصفور: "المرايا المتجاورة، دراسة فى نقد طه حسين"، القاهرة ١٩٨٣.
- حمدى السكوت ومارسدن جونز: "أعلام الأدب الحديث فى مصر، (١) طه حسين"، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢.
-خيرى شلبى (محققًا): "محاكمة طه حسين"، بيروت ١٩٧٢.
- سامح كريم : "ماذا يبقى من طه حسين؟"، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٥.
- سامى الكيالى: "مع طه حسين"، دار المعارف بمصر، مجموعة اقرأ، نوفمبر ١٩٧٣.
- شكرى عياد: "طه حسين والثقافة اليونانية"، مجلة "الهلال"، فبراير ١٩٦٦.
- غالى شكرى: "النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث"، تونس ١٩٨٣.
- كامل زهيرى: "طه حسين رجل ومنهج"، مجلة "الهلال"، فبراير ١٩٦٦.
- لويس عوض: "ثقافتنا فى مفترق الطرق"، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٤.
- لويس عوض: "الحرية ونقد الحرية"، القاهرة ١٩٧١.
- محمد أحمد الغمراوى: "النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى"، طبعة مصورة فى بيروت ١٩٨١.
- محمد جابر الأنصارى: "تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى"، الكويت ١٩٨٠.
- محمد سيد كيلانى، "طه حسين الشاعر والكاتب"، طبعة أولى، القاهرة١٩٦٣.
- محمد فريد وجدى: "نقد كتاب الشعر الجاهلى"، طبعة أولى، دائرة معارف القرن العشرين، القاهرة ١٩٢٦.
- محمود أمين العالم: "طه حسين مفكرًا"، الهلال، فبراير ١٩٦٦.
- مرجيليوث د.س: "أصول الشعر العربى"، ترجمة وتقديم يحيى الجبورى، بيروت ١٩٨١.
- محمود مهدى الإستانبولى (معدًا): "طه حسين فى ميزان الأدباء والعلماء"، طبعة أولى، بيروت ١٩٨٣.

– مصطفى صادق الرافعي: "تحت راية القرآن"، الطبعة السابعة، بيروت ١٩٧٤.

– نازك سابا يارد: "الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة"، بيروت ١٩٧٩.

– نجاح عمر: "طه حسين: أيام ومعارك"، المكتبة العصرية، صيدا (بدون تاريخ).

– هشام شرابي: "المثقفون العرب وحضارة الغرب" ١٨٧٥–١٨١٤، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨١.

- Safran, N., Egypt in Search of Political Community, Harvard, 1961.

- Smith, Charles, The Crisis of Orientation: The Shift of Egyptain intellectuals to Islamic Subjects. in the 1930's M.E. Studies, 4, 1973.

الفصل الخامس

الهُويَّة، وبيان النهضة
قراءة جديدة لـ "مستقبل الثقافة فى مصر"

-١-

يبدو جليًا أن من سمات العقل والفكر العربيين معاودة طرح مشكلات النهضة والتحديث بين الحين والآخر، حتى ما كان منها قد لقى اهتمامًا واسعًا وعميقًا، وربما حسمًا، من جيل النهضة الأول، وكأنه ليس بمقدورنا أن نكمل من حيث انتهى ذلك الجيل، لنفرغ لمستجدات زماننا. وخير دليل على ما نقول قضية الهُويَّة والانتماء الحضارى، التى على أساسها تكون وجهتنا الحضارية، فقد شغلت هذه القضية المثقفين والمفكرين المصريين، منذ انفتحت أبواب مصر على معطيات الحضارة الحديثة فى بداية القرن التاسع عشر، والتقى «الأنا بالآخر».. وها نحن فى بدايات القرن الحادى والعشرين نعيد طرح القضية، كما أعادها "طه حسين" عام (١٩٣٨)، وإن كنا نعيد طرحها هنا فى إطار تاريخ الفكر المصرى، لنحاول أن نتلمس إلى أى مدى تقدمنا أو توقفنا، حتى وإن بدونا كما لو كنا نناقش المسلمات، مدخلنا إذن لقضية النهضة والتحديث مدخل تاريخى فى مجاله الفكرى.

وقضية النهضة والتحديث، والنموذج الذى نتمثل به ونحتذيه والمثل والقيم التى ننشدها مازالت وستظل تؤرق الفكر طالما أن هناك معركة للنهضة، وطالما أن مشروعها قائم، ومادتنا هنا بحكم اشتغالنا بالتاريخ، هى تراث الفكر فى ماضينا، وخطاب النهضة لايزال يتردد، بشتى تنويعاته ومسمياته: النهضة والتقدم والاستنارة والحداثة..إلخ، وبخاصة عند منعطفات التاريخ وحوادثه الجسام. وعلينا أن نراجع تراثنا الثقافى، مراجعة نقدية متأملة، على ضوء العقل والمنهج العلمى الحديث.

وما هذه الدراسة سوى مراجعة لإسهام «حالة خاصة» فى مشروع النهضة، هى حالة "طه حسين" فى خطابها الفكرى المباشر، والممثل فى كتابه أو تقريره المهم «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى أصدره عام (١٩٣٨)، متوجًا به -آنذاك- مرحلةِ من حياته الفكرية قوامها ربع قرن من الزمان، أى منذ تخرج من الجامعة المصرية بأول دكتوراه تمنحها عام (١٩١٤)، لقد كان "طه حسين" فى تلك الفترة يكتب فى الصحف، ويدرِّس بالجامعة، ويلقى المحاضرات العامة، ويؤلف الكتب، ليبلور تدريجيّا خطوط مشروعه لنهضة الوطن، حتى استكمل عناصره نقطة فنقطة، متواكبًا مع محاولات مصر لاستكمال استقلالها خطوة بخطوة منذ ثورة (١٩١٩) وحتى تحقيقها جزءًا من استقلالها الوطنى بمعاهدة (١٩٣٦)، وما إن وقِّعت هذه المعاهدة حتى كان "طه حسين" قد استكمل عناصر موضوعه – مشروع النهضة – فى مجال خلق له بالدرجة الأولى وهو الثقافة والتعليم.

ولسنا نستطيع أن نفصل الكتاب عن كل ما فكر فيه "طه حسين" أو كتب عنه منذ اشتغل بشئون الفكر والثقافة والتعليم، كما لا يمكن فصل مشروع "طه حسين" ذاته، فى مجاله، عن مشروع مصر لاستقلالها ونهضتها، وقد اعترف "طه حسين" نفسه بهذه الحقيقة وهو يقدم لكتابه «مستقبل الثقافة فى مصر».

* * *

وثمة حقائق تبدو معروفة عن حياة "طه حسين"، لكننا لا نرى بأسًا من الإشارة إليها لتكسب التحليل النهائى دلالاته؛ لأنها ساهمت فى بنائه الفكرى وتكوينه الثقافى، ووعيه بقضية النهضة، من هذه الحقائق تأثير الأزهر والثقافة الإسلامية التى تعلمها فيه خلال العقد الأول من هذا القرن (١٩٠٢–١٩١٠)، سواء كان هذا التأثير بالسلب أو بالإيجاب، فمن المعروف جيداً أن "طه حسين" درس الأدب العربى والبلاغة والنحو وجمع ذخيرته

من ذلك خلال هذه السنوات، ومنها كذلك اتصاله ببيئة المثقفين ثقافة مدنية حديثة (المطربشين)، واختلافه إلى ندواتها وكتابته فى صحفها، ودراسته على أيدى المستشرقين فى الجامعة المصرية، ومنها كذلك إقباله على الثقافة الفرنسية بحماسة شديدة، ودراسته بجامعة السوربون ليعود بالدكتوراه منها عام (١٩١٩)، ويشتغل أستاذاً للتاريخ اليونانى والرومانى بالجامعة المصرية حتى عام (١٩٢٥)، فأستاذاً للأدب العربى بها بعد ذلك، واهتمامه بالثقافة الكلاسيكية وبقيادة الفكر الإنسانى يحمل مضمون توجهه نحو النهضة، التى تقتضى دراسة هذه الأصول جميعًا كما فعل الأوربيون. ولم يكن "طه حسين" وحده فى هذا المجال، فقد برز معه، خلال العشرينات جيل جديد، يتجاوز بأفكاره واسهاماته أفكار جيل الطهطاوى ثم جيل محمد عبده وإن استقى من نبعهما، جيل برزت فيه أسماء: الدكتور محمد حسين هيكل، وسلامة موسى، وعباس العقاد، وعلى عبدالرازق، ومصطفى عبدالرازق، وأحمد أمين، ومنصور فهمى، وإسماعيل مظهر وغيرهم، لقد طرحوا جميعًا قضية تحديث مصر ونهضتها على بساط البحث وكان النموذج الأوربى ماثلاً أمامهم، بدرجات متفاوته، وبرزت اتجاهات جديدة حول الخلافة الإسلامية، وعلاقة الدين بالدولة بشكل عام، وعلاقة الدين بالعلم والمدنية الحديثة، وجاءت الأطروحات الجديدة بمعالجات ومناهج غير مألوفة وبرؤى متقدمة بالنسبة لعصرها.

وكان إسهام "طه حسين" خلال العشرينات كبيراً، وكان تأثير ثقافته الفرنسية قد طغى، إلى حين، على ثقافته العربية الإسلامية، وإن لم يمحها، وبدا فى نظر الكثيرين مستغربًا داعيًا للغرب، وأحيانًا عميلاً، حين دعا إلى فصل الدين عن العلم وقوانينه ونتائجه، وبتطبيقه مناهج أوربية لم تعتدها الثقافة العربية، على الرغم من أنه كان يعالج موضوعات من صميم تراث تلك الثقافة داعيًا إلى الاجتهاد فى بحوث الأدب باخضاعها لمناهج البحث التى تعلمها عن العقلانية الفرنسية، عن ديكارت وكونت ودوركايم وغيرهم...[1].

وقد قاده ذلك إلى الأزمة الشهيرة التى أثارها كتابه «فى الشعر الجاهلى» عام (١٩٢٦)، والتى هى فى صميمها أزمة تطبيق منهج، برغم الملابسات الدينية والسياسية، عندما أراد أن يمتحن كل شىء بالاستقراء وبالبراهين العقلية – لا النقلية – ولسنا هنا بصدد تحليل هذه الأزمة ولكن تكفى الإشارة إلى أنها كانت دفعة قوية نحو استكمال مشروع النهضة عنده، ولم يتراجع "طه حسين" إلا تراجعًا ظاهريًا؛ لأنه حذف الفصول التى اعتُبِرَت مساسً بالدين وأضاف فصولاً تؤصِّل المنهج وتدعمه، بل أكثر من هذا نشر فى العام نفسه مجموعة مقالات بعنوان «بين العلم والدين» نادى فيها بفصلهما تمامًا، وأكد إيمانه بالتفكير العلمى المجرد، ودعا إلى استبعاد فكرة الحكومة الدينية، ورأى أن الوطنية لا تقوم إلا على أساس المنافع السياسية والاقتصادية وحدها، ورأى كذلك أن مصر تسرع الخطى لتصبح جزءًا من أوربا[٢].

وليس معنى ما سبق أن "طه حسين" قد انقطع عن جذوره أو أنه تخلى عن تراثه، وإنما حاول معالجته على ضوء منهج البحث الحديث.. كما كانت مادته واهتماماته مزدوجة؛ فبينما كان يكتب ويترجم ويلخص مقالات لـ (ڤولتير ورينان وبول ڤاليرى وأندريه جيد)، كان فى الوقت نفسه يكتب عن (المتنبى وأبى تمام وابن الرومى) كما يكتب عن "حافظ وشوقى"، وعندما اتجه معاصروه إلى معالجة الموضوعات الإسلامية خلال الثلاثينات، لم يجد "طه حسين" نفسه بعيدًا عنهم فدخلت الموضوعات الدينية الصرفة (الإسلامية) دائرة اهتمامه، وشارك فى الموجة بكتابه «على هامش السيرة»، على الرغم من أنه خضع لنقد شديد فى تناوله لسيرة الرسول[٣]، واتهم أنه لم يكن صادقًا فيما كتب، وأنه لم يبتغ غير خدمة الأدب والفن.

إن "طه حسين" لم يتجه للتاريخ الإسلامى بصفته ماضيًا فقط، وإنما كان منسجمًا فى هذا التوجه مع معادلة النهضة، أى أن الإسلام كان عنصرًا أصيلاً فى رؤية "طه حسين" للتطور، كل ما حدث أن الشعر لم يعد هو مادته وإنما التاريخ الإسلامى، أما المنهج فأمره مختلف، أى أن "طه حسين" وأبناء جيله أرادوا تأصيل فكرة التراث

الوطنى لمصر على اعتبار الإسلام عنصراً حاسماً فى هذا التراث، ولكنهم جميعاً اتخذوا أدوات منهجية فى معالجة المادة التراثية أقرب إلى العقلانية(٤).

* * *

وعندما وقَّعت مصر معاهدة (١٩٣٦) مع بريطانيا، ثم اتفاق "مونترو" عام (١٩٣٧) الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية مع الدول الأوربية، اعتقد الكثيرون، ومنهم "طه حسين"، أن مصر تستقبل عهداً جديداً من حياتها، إن كسبت فيه بعض الحقوق، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة، وقد دفعت هذه التطورات فريقًا من شباب الجامعة إلى أن يسألوا قادة الرأى فى مصر عن واجب مصر بعد المعاهدة، وقد تحدث إليهم "طه حسين" ضمن من تحدثوا(٥)، ولكنه لم يقنع بما قال واستقر فى نفسه أن يكتب بالتفصيل عن واجب مصر فى الثقافة والتعليم؛ حيث إن «واجبنا فى ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً مما تحدثت به»(٦)، وجاء كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" نتيجة لذلك، ولم يكن "طه حسين" وحده فى هذا المجال، وإنما صدرت كتب أخرى معاصرة هى أقرب إلى التقارير أو البرامج التى ترسم خطوط وتوجهات نهضة مصر فى مرحلتها الجديدة، مرحلة ما بعد معاهدة عام (١٩٣٦)، واتفاقية (١٩٣٧)، ومن أشهر هذه الكتب كتاب مريت غالى «سياسة الغد»، وكتاب حافظ عفيفى «على هامش السياسة»، وكتاب محمد عبد الحميد مطر «التعليم والمتعطلون فى مصر»، وكذلك كتاب محمد على علوبة «مبادئ فى السياسة»، وكتاب إبراهيم بيومى مدكور ومريت غالى «الأداة الحكومية»، وكلها صدرت بين عامى (١٩٣٨ - ١٩٤٥).

ويدلنا "طه حسين" على سبب آخر لتأليفه هذا الكتاب يتمثل فى أنه كان قد أوفد من قبل وزارة المعارف لتمثيلها فى مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكرى الذى عقد فى باريس صيف العام السابق، كما انتدب لتمثيل الجامعة فى مؤتمر التعليم العالى الذى

عقد فى باريس أيضًا فى صيف ذلك العام أيضًا، وأنه لذلك أصبح واجبًا عليه أن يقدم تقريرين عن المؤتمرين إلى الوزارة والجامعة، ولكنه لم يفعل، وأسرّ فى نفسه أن ينجز ذلك خلال تأليف كتابه، ليحقق به هذين الهدفين معًا، فيتوجه بكتابه إلى الشباب، وإلى المسئولين كذلك، متضمنًا آراءه وأفكاره حول مستقبل الثقافة والتعليم فى مصر، والأهم من ذلك أن "طه حسين" رآها فرصة ليستكمل خطوط رؤيته لمشروع نهضة مصر، ويستكمل بها رسالته التى أخذها على عاتقه؛ ولذلك فالكتاب ليس كتابًا علميًّا أو تاريخيًّا بالمعنى المألوف، وإنما هو بيان مطول، وبرنامج مسهب يشخص الداء ويقترح الدواء، ويرسم مستقبل الثقافة والتعليم لمصر المعاصرة، كأساس لنهضتها وتحديثها، فى لغة خطاب فكرى مباشر، واضح وجلى.

لقد بات واضحًا أن على مصر، أن تهتم بنوعية حياتها الوطنية، وقد بسط "طه حسين" هذه النوعية على ضوء مبادئ استمدها، إلى حد ما، من ابن خلدون، الذى درس فلسفته الاجتماعية، كما استمدها من مفكرين فرنسيين، أخصهم (كونت ورينان ودوركايم وأناتول فرانس)، وهى أن الحضارة غاية البشرية، وأن أوربا الحديثة قد سجلت لنفسها أعلى مرحلة بلغها التطور الحضارى، حيث يتحقق التوازن المثالى، الذى يترك للعقل حريته فى حكم العالم الاجتماعى وإخضاع الطبيعة بتطبيق العلم، وسن الشرائع التى تستهدف السعادة البشرية، وإقامة حكومات تحترم القانون وتوفق بين المصالح.. وكانت أوربا تعنى عنده ثلاثة أشياء: الحضارة الإنسانية، والفضائل المدنية، والديمقراطية.. ورغم تجاهله للأفكار السياسية المخالفة التى كانت ألمانيا وإيطاليا تبشران بها فى ذلك الحين (قبل عام ١٩٣٨ عام إصدار الكتاب) إلا أن أوربا كانت تمثل فى نظره العالم الحديث(٧). ومن هنا كانت نقطة البداية فى كتابه هذا: "أين نحن من الحضارة الحديثة" أو "أين نحن من أوربا؟" .

ومن الملاحظ أنه خلال استفتاء قامت به مجلة "الهلال" عام (١٩٣١)، كان محوره «حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟» كان رد "طه حسين" أنه إذا كان لا بد أن

يدلى برأى حول الخيارات المطروحة «فالمثل الأعلى، فيما أعتقد، هو أن نحتفظ من الحضارة المصرية القديمة بما يلائمنا وهو الفن، ومن الحضارة العربية بالدين واللغة، وأن نأخذ من الحضارة الأوربية كلّ ما نحتاج إليه. وليس فى هذا شر ما دمنا نحتفظ بشخصيتنا المصرية، فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوربية حياتنا، على أننا أمة لها مقوماتها الخاصة» وأضاف أن حياتنا الحديثة رهن الحضارة الأوربية وعليها تعويلنا فى ما يمس الحياة المادية، سواء ما يتعلق بالنظم المتبعة فى ميادين التجارة والصناعة والاقتصاد، أو ما يتعلق بالحياة اليومية. ونحن مرتهنون بهذه الحضارة نفسها فى ما يخص حياتنا العقلية «فأنت مكره الآن على أن تفكر كما يفكر الأوربيون، لا كما كان يفكر المصريون القدماء ولا كما كان يفكر العرب»(٨).

إن "طه حسين" إذن لم يبدأ تنظيم أفكاره فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» من فراغ، وإنما باستجماع أفكاره السابقة، والتى عبر عنها بشكل أو بآخر فى مؤلفاته المهمة خلال العشرينات والثلاثينات، وبدأ فى تطويرها فى كتابه الجديد، لتخرج فى نسيج فكرى متكامل، يحدد المنطلقات ويقدم رؤيته للنهضة للتحديث. ونود أن نشير إلى أن الكتاب يحتوى على قسمين أساسيين من ناحية موضوعاته: أولهما، يتناول قضية الهُويَّة والانتماء والتوجه الحضارى، وثانيهما، يتناول قضايا التعليم والثقافة فى مصر.

—٢—

(أ) قضية الانتماء والتوجه الحضارى:

بدأ "طه حسين" كتابه بعبارة على قدر كبير من الأهمية ربما لم يعبأ بها نقاده، يذكر فيها «أريد لكل مصرى مثقف محب لوطنه، حريص على كرامته ألا نَلقَ الأوربى فنشعر أن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا، وما يضطرنا إلى أن نزدرى أنفسنا، ونعترف أنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة

والاستعلاء[٩]، وواضح من العبارة أنه يريد لمصر والمصريين أن يكونوا أنداداً للأوربيين شركاء لهم فى الحضارة الإنسانية، وقد قاده ذلك بطبيعة الحال إلى مناقشة قضية هُويَّة مصر الثقافية، وانتمائها وتوجهها الحضارى، كضرورة أولية، قبل طرح أفكاره الأساسية.

ومن هنا طرح "طه حسين" سؤاله: أمصر من الشرق أم من الغرب؟ وأوضح أنه لا يقصد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى، وإنما يقصد الشرق الثقافى والغرب الثقافى، ثم يوضح تساؤله على نحو آخر فيتساءل: هل العقل المصرى شرقى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء، أم هو غربى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء؟ ومن الجلى أنه كان يقصد بالشرق هنا، ليس الشرق العربى القريب (أو الأوسط) وإنما يقصد الشرق البعيد (الأقصى)؛ لأنه تساءل: أيهما أيسر على العقل المصرى: أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى، أو أن يفهم الفرنسى أو الانجليزى؟ تلك هى القضية الأولى التى أراد أن يحسمها قبل أن يوضح الأسس التى ينبغى لمصر أن تقيم عليها ثقافتها وتعليمها[١٠].

وحتى يجيب على هذه التساؤلات راح يستقرئ التاريخ، تاريخ العقل المصرى، ليحاول إثبات عدة حقائق:

أولاها: أننا لا نعرف أن هناك صلات بيننا وبين الشرق البعيد، مستمرة ومنتظمة تؤثر فى تفكيرنا أو نظمنا.

والثانية: أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية لم تجاوز الشرق القريب (الشام والعراق) أى الشرق الواقع فى حوض البحر المتوسط..

والثالثة: أن علاقات مصر كانت حقيقية مع حضارة اليونان فى عصور إزدهارها منذ القرن السادس قبل المسيح إلى أيام الإسكندر[١١].

وقد رتب "طه حسين" على ذلك حقيقتين أولاها: أن العقل المصرى اتصل بالشرق القريب اتصالاً مؤثراً ومتأثراً، كما اتصل بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتبادل للمنافع فى الفن والسياسة والاقتصاد، والثانية: أن العقل المصرى منذ عصوره الأولى إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وإن تبادل المنافع فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط، ثم يفصل "طه حسين" الحديث عن علاقة مصر ببلاد اليونان، وما كتبه اليونانيون عن مصر وتأثيرها فى حضارتهم، ليؤكد أنه عندما يجب أن نلتمس المؤثر الأساسي فى تكوين الحضارة المصرية والعقل المصرى، فلا بد أن نفكر فى البحر المتوسط، وفى الظروف التى أحاطت به، والأمم التى عاشت حوله. ثم يضيف: إن المصريين يرون أنفسهم شرقيين وأنهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافى وحده، بل معناه العقلى والثقافى، فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندى والصينى واليابانى منهم إلى اليونانى والإيطالى والفرنسى[١٢].

وكان "طه حسين" يقصد بذلك دعوة جماعة «الرابطة الشرقية» التى كانت تنادى بالتضامن مع أهل الشرق الأقصى فى مواجهة كل ما هو غربى، وكانت هذه الرابطة قد تأسست فى أواخر العشرينات، وقد ترأسها السيد عبدالحميد البكرى، وكانت فى نظر البعض بديلاً عن الجامعة الإسلامية، ولم يقدر لاتجاهها أن يستمر[١٣].

ومن المهم أن نلاحظ أن "طه حسين" قد ميز بشكل واضح بين شرق أقصى بعيد، وشرق أدنى قريب، وهو ما لم يلتفت إليه نقاده حين ذكر أحدهم، وهو الأستاذ "سيد قطب" أن الدكتور قد قسم الدنيا إلى قسمين لا ثالث لهما: قسم تمثله الصين واليابان والهند وإندونيسيا، وقسم تمثله فرنسا وإنجلترا، أو كل دول أوربا وأمريكا[١٤]؛ لأن "طه حسين" قد تحدث عن وجود الشرق الأدنى (يقصد العربى) وإن لم يسمه باسمه فذكر بوضوح «أنا أفهم أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى، لا لاتحاد اللغة والدين فحسب، بل للجوار الجغرافى، وتقارب النشأة، والتطور التاريخى، أما أن نتجاوز هذا الشرق القريب إلى ما وراءه فلا أفهم أن يقوم الأمر فيه على الوحدة العقلية

أو على التقارب التاريخى..»[١٥]؛ فقرابة مصر للشرق الأدنى، أو الشرق القريب مؤكدة عنده لا مراء فيها، لكنه لا ينظر إلى هذا الشرق من زاوية أنه شرق عربى إسلامى، وإنما طبقًا لنظريته، أى باعتباره هذا الشرق القريب الذى يقع فى حوض البحر المتوسط»[١٦]، فيلحق بذلك هذا الشرق العربى هو الآخر بعالم البحر المتوسط!

وينتقل "طه حسين" إلى نقطة أخرى يتحدث فيها عن مكونات الوحدة السياسية أو عناصر القومية، فيستبعد وحدة الدين ووحدة اللغة، كمقومين من مقومات تكوين الدول ويذكر أن المسلمين أنفسهم، منذ عهد بعيد، عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسًا للملك، وقوامًا للدولة، وأن المسلمين أقاموا سياستهم على المنافع وحدها، وأنه لم يأت القرن الرابع للهجرة حتى قام العالم الإسلامى بقيام الدولة الإسلامية، وظهرت القوميات، وانتشرت فى البلاد الإسلامية دول كثيرة، يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية، ويقوم بعضها الآخر على ألوان أخرى من المنافع. ويضيف أن السياسة شىء والدين شىء آخر، وأن هذا هو التصور الذى تقوم عليه الحياة فى أوربا، التى تخففت من أعباء العصور الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمنية، لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس[١٧].

وبذلك يرى "طه حسين" بما لا لبس فيه، أن عوامل الدين واللغة والجنس، والتى سبق أن نظر إليها بعين الاعتبار، وأعدَّها ضمن أسباب القرابة المؤكدة عند حديثه عن الشرق «الأدنى أو القريب» لا تشكل أسسًا لتكوين الدول فى العصر الحديث، وإن استمد فكرته من نظرة خاصة لتاريخ الإسلام، قبل أن يؤكد أن هذا هو ما تقوم عليه الحياة الحديثة فى أوربا، والتى أقامت سياستها على المنافع الزمنية لا على الوحدة الدينية، ولا على تقارب اللغات والأجناس.

ثم يعود "طه حسين" ليؤكد فكرة اتصال مصر بالحضارة اليونانية، حتى أصبحت دولة يونانية، أو كاليونانية، وأنه عندما جاء الإسلام إليها، تلقته لقاء حسنًا واتخذته دينًا، واتخذت لغته العربية لغة لها، ويتساءل: فهل جعلها هذا أمة شرقية؟ كلا... ثم أضاف

قياسًا آخر ليؤكد النفى، وهو أن المسيحية لا تعدُ أن تكون عنصرًا من عناصر العقل الأوربى[١٨]، ومن الواضح أن التساؤل هنا لا ضرورة له فى الأصل؛ لأنه ليس ثمة افتراض بأن الإسلام جعل مصر أمة شرقية، ومن ثم فإن القياس الذى أورده بشأن المسيحية وأوربا لا أهمية له.

ومن الملاحظ كذلك أن "طه حسين" يرى أن قوام الحياة العقلية فى أوربا إنما هو اتصالها بالشرق عن طريق البحر المتوسط «فما بال هذا البحر ينشئ فى الغرب عقلاً ممتازًا متفوقًا، ويترك الشرق بلا عقل أو ينشئ فيه عقلاً منحطًا ضعيفًا؟» وكأن عامل البحر هو الذى «ينشئ» ثم يستنتج فى النهاية أنه ليست بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فروق عقلية وثقافية، وإنما هى ظروف السياسة والاقتصاد، تدور بين هذه الشعوب مواتية هذا الفريق ومعادية ذلك الفريق، فلا ينبغى أن يفهم المصرى أن بينه وبين الأوربى فرقًا عقليًا قويًا أو ضعيفًا[١٩].

ينتقل "طه حسين" بعد المقدمات السابقة إلى نقطة أخرى يثبت من خلالها أن نهضة مصر منذ أوائل القرن الماضى (التاسع عشر) لا خلاف فى أنها تأخذ بأسباب الحياة الحديثة، على نحو ما يأخذ بها الأوربيون فى غير تردد ولا اضطراب ويضيف «إن حياتنا المادية أوربية خالصة والمثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربى.. نفعل ذلك عن علم به وتعمد له.. ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الأنحاء التى يحيا عليها الأوربيون فاصطنعناها لأنفسنا، غير متخيِّرين ولا محتاطين، لا مميِّزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن، وما يلائم منها وما لا يلائم»[٢٠]، ومعنى ذلك أنه يرى واقعنا يسير فى تقليد الأوربيين حتى فيما يلائمنا وما لا يلائمنا مما يوحى أن له موقفًا نقديًا، يرى أن ثمة ما يلائم وما لا يلائم، وأننا فى تقليدنا ينبغى أن نميز ونحتاط ونتخيَّر.

وقد راح "طه حسين" يضرب أمثلة على أخذ مصر بالنظم والتشريعات الأوربية فى نهضتها الحديثة فيذكر أن التشريع بالقوانين المدنية أخذ عن النظم الأوربية، كما أن

النظم المالية والإدارية والاقتصادية نقلت عن الأوربين، وأنه على الرغم من استبقاء بعض النظم القديمة؛ لأنها تتصل بالدين من قريب أو بعيد، فإن كل شيء يدل على أننا نريد أن نتصل بأوربا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى، ثم ينتقل إلى التعليم فيذكر أننا أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه وبرامجه، منذ القرن الماضي على النحو الأوربي الخالص.. كما أننا نكوِّن أبناءنا في مدارسنا تكويناً أوربياً لا تشوبه شائبة..(٢١).

ومن الملاحظ أن "طه حسين" يؤكد على فكرة أن توقيع معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات، يعتبر التزامًا صريحًا بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع معتقداً، بكثير من المبالغة، أن ثمة التزامًا صريحًا قاطعًا «بينما الأمر لا يعدُّ، وبخاصة فيما يتعلق باتفاق "مونترو" عام (١٩٣٧)، أن مصر بما تتخذه من تشريعات وقوانين ستكفل حقوق الأجانب على أراضيها»(٢٢).

وقد علل "طه حسين" الفارق بيننا وبين الأوربيين بأنه فارق الزمن ليس غير، فهم قد بدأوا حياتهم الحديثة في القرن الخامس عشر، وأخَّرنا الترك العثمانيون فبدأنا حياتنا في القرن التاسع عشر، وبذلك يلقى بمسئولية انقطاع اتصالنا بأوربا ونهضتها على فترة الحكم العثماني بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ثم يضيف أن السبيل إلى اجتياز الهوة بيننا وبين الأوربيين هي أن نسير سيرتهم، ونسلك طريقهم، لنكون لهم نداً وشريكاً في الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرها، لقد كان في وعيه إذن مسألة الندية والمشاركة في الحضارة، وهو ما لم يلق اهتماماً من نقاده والمعلقين عليه (الذين نقل بعضهم عن البعض نصوصاً وعبارات منتزعة من سياقها)، بينما أكد "طه حسين" على هذا المعنى في أكثر من موضع خصوصاً عندما يضيف: «نحن نريد أن نضارع الأمم الأوربية في قوتها الحربية لنرد عن أنفسنا المغير، ولنقول لأصدقائنا الإنجليز بعد أعوام: انصرفوا مشكورين فقد أصبحنا قادرين على حماية القناة.. نريد أن نكون شركاءه (الأوربي) في الحياة وأعوانه عليها لا خَدَمه ووسائله إلى هذه الحياة»(٢٣).

ومن الملاحظ كذلك أنه تجاوز فكرة البحر المتوسط وحضارته، وأصبح يستخدم مصطلح حضارة «أوربا وأمريكا» ويقرن بينهما فى النموذج الذى ينبغى أن يحتذى من جانب المصريين، فتخطى العامل الجغرافى العقلى، الذى ركَّز عليه فى البداية، وأخذ يستخدم الغرب على إطلاقه(٢٤).

ولأن "طه حسين" يعلم سلفًا ما ستثيره هذه الأفكار من اعتراضات ومخاوف، فقد أخذ على عاتقه الرد عليها، **وأولى** هذه المخاوف أن الاتصال بالحياة الأوربية على ما فيها من آثام وموبقات، مما لا يبيحه ديننا، خليق بأن يغرى بما فيها من إثم، ويرد على ذلك أن الحياة الأوربية ليست إثمًا كلها، وأن الإثم الخالص لايمكِّن من الرقى، وأن حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيرًا كلها، وأن الخير الخالص لا يدفع إلى الانحطاط.. ثم يضيف «نحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم، ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ «بأسباب الرقى» التى أخذوا بها، لا ندعو إلى أن نكون صورًا طبق الأصل للأوربيين، فذلك شىء لا يدعو إليه عاقل، ليس على حياتنا الدينية بأس من الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية، فقد أخذ المسلمون فى قوة بأسباب حضارة الروم والفرس، أنا لا أدعو إلى شىء عملى؛ وإنما أدعو إلى شىء نفسى، فمن السخف أن ندعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وقد دخل الراديو إلى الأزهر الشريف.

وثانية هذه المخاوف تتعلق بالخشية على شخصيتنا القومية، وعلى ما ورثناه، وأنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا أو نجحد ماضينا، ولا أن نفنىَ فى الأوربيين، كيف يستقيم ذلك، وأنا إنما أدعو إلى أن نُثبت لأوربا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها، إنما تتعرض مصر للفناء إذا عجزت عن أن تقاوم أوربا بسلاحها وتجاهدها بما تعرف من وسائل الجهاد.

وثالثة هذه المخاوف أنه قد يقال إن الحضارة الأوربية مسرفة فى المادية لا تتصل بالروح، وإن أوربا قد زهدت فى حضارتها، وإن جماعة من علمائها وفلاسفتها أخذوا

يرغبون عنها ويلتمسون لعقولهم وقلوبهم غذاء فى روحانية الشرق، ونقول إنه من السخف أن يقال إن الحضارة الأوربية قليلة الحظ من المعانى السامية التى تغذو الأرواح والقلوب، إن هذه الحضارة نتيجة العقل والخيال والروح الخصب المنتج، وما أعرف أن للشرق القريب هذا روحاً يميزه عن أوربا ويتيح له التفوق عليها، إن شرقنا القريب هو مهد العقل الذى يزدهى ويزدهر فى أوربا، وهو مصدر هذه الحضارة الأوربية التى نريد أن نأخذ بأسبابها(٢٥).

* * *

(ب) قضايا التعليم والثقافة :

وسوف نعرض الآن لأهم القضايا التى أثارها فى كتابه، بعد قضية الهُويَّة والانتماء والتوجه الحضارى، فمن الملاحظ أنه عرض خلال الجزء الأكبر من كتابه الكثير من القضايا المتعلقة بالتعليم ونظمه، وسياساته ومؤسساته، والكثير من الموضوعات ذات الطابع الفنى البحت مما تحفل به الهيئات التنفيذية الإنشائية، فأطلق لنفسه العنان، وراح يبدى آراءً إصلاحيةً على درجة كبيرة من الأهمية، وسنركز هنا على الموضوعات المتصلة بسياسة التعليم وفلسفته، وهى الموضوعات التى حملت آراء ووجهات نظر مهمةً لـ "طه حسين" وهى آراء لا تبدو بعيدة عن واقعنا الآن.

١ - مسألة التعليم الأجنبى فى مصر :

وهو التعليم الذى قام مستظلاً بالامتيازات الأجنبية، غير حافلٍ بالدولة ولا خاضعٍ لسلطانها، ولا معنى إلا بنشر ثقافة البلاد التى جاء منها، وتكوين التلاميذ المصريين على نحو أجنبى خالص، فيضرب "طه حسين" أمثلة لأنواع هذا التعليم، الذى لا يحفل بمصر ولا يفكر فيها، ويدفع المصريون أبناءهم إليه عن رضى واختيار، ويطالب أن تشرف الدولة عليه، وأن يعلم التاريخ القومى والجغرافية المصرية، وكذلك الدين

القومى «فنحن من غير شك تعتمد على أن الدين مقوم خطير من مقومات الوطنية المصرية فيجب أن يشترك المصريون جميعًا فى هذا الجزء الأساسى من أجزاء التعليم» وكان "طه حسين" -فى مناسبة أخرى سابقة- قد ذكر أن المسلمين قد عدلوا منذ عهد بعيد عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسًا للملك وقوامًا للدولة» فها هو يراها الآن من مقومات الدولة الوطنية، لقد كانت المناسبة الأولى الحديث عن المنافع فى علاقات الدول وتوجهاتها، بينما هو فى المناسبة الأخيرة يتحدث الخشية على الشخصية الوطنية ومقوماتها، ويعبر عن حرصه على السيادة الوطنية، وباختصار شديد طالب الدولة أن تشرف على هذه المدارس وأن تكفل لأبنائها التعليم الصحيح للغة القومية، والدين القومى «فالدين مقوم من مقومات الشخصية المصرية، وأنا مؤمن فيما بينى وبين نفسى بذلك أشد الإيمان»(٢٦).

٢- ديمقراطية التعليم ومجانيته :

يذكر "طه حسين" أن الدولة الديمقراطية ملزمة بنشر التعليم الأولى، ليكون وسيلة فى يد الأفراد ليستطيعوا أن يعيشوا، ولتكوين الوحدة الوطنية وإشعار الأمة حقها فى الوجود المستقل الحر، وأضاف أن الدستور فرض ذلك على الدولة، وأن تقصيرها فى ذلك إثمٌ فى حق الدستور، والحرية لا تستقيم مع الجهل، كما أنه من المضحك أن يقال إن الشعب مصدر السلطات فى بلد كثرته جاهلة غافلة، ورأى كذلك أن الديمقراطية الصحيحة إذا فرضت المساواة بين أبناء الشعب فى الحقوق والواجبات؛ فهى لا تقبل أن يفرق بينهم فى حرية التعليم.

أما بخصوص المجانية فقد تحدث عن التعليم العام، الذى يلى التعليم الأولى، والذى يفضى إلى التعليم الجامعى أو الفنى العالى، ورأى آنذاك أن هذا التعليم العام يكلف الدولة نفقات لا تستطيع أن تنهض بها وحدها، كما أنه ليس إلزاميًا، وإنما يقتصر على الذين يستطيعون أن يؤدوا أجره من الطبقات الوسطى والطبقات الغنية؛ ولأن من حق الفقراء أن يتعلموا وأن يطمحوا إلى التعليم العام والعالى لتحقيق الديمقراطية،

فلا بد أن تـأخذ الدولة من القـادرين أجر التعليم وأن تحط ثقله عن العاجزين، فـينظِّم قبول أبناء هؤلاء ولا يقبل منهم إلا من يثبت استعدادهم الجيد للانتفاع بهذا التعليم، وذلك بإجراء المسابقات الدقيقة المبرأة من العبث والمحاباة.

لقد كان "طه حسين" يدرك حين كتب ذلك (عام ١٩٣٨) أن الديمقراطية لن تكون منصفة ولا ملائمة بين ما تستطيع وما يجب عليها، فمن حق الفقراء أن يتعلموا، ومن حقهم أن يطمعوا فى أكثر مما يعطيهم التعليم الأولى، وأن يطمحوا إلى التعليم العام وإلى التعليم العالى، وحرمان الفقراء من أن يتعلموا وأن يرقوا، تقرير لنظام الطبقات وإيمان بسلطة المال وعبادة لهذا السلطان، وليس هذا من الديمقراطية الصحيحة فى شيء..» لقد نادى بحل هذه المشكلة حلا يلائم طاقة الدولة ويلائم حق الفقراء فى الرقى، ويرى أن ذلك يتمثل فى الديمقراطية المعتدلة، ولم يكن يتعجل مجانية التعليم العام فى ظل «ديمقراطية ناشئة لم تبلغ بعد من الرقى أن ننتظر منها تقديم هذا التعليم العام بغير أجر..»، لكنه كان يطمع فى أن تكون الدولة سخيَّةً به، جادة فى نشره، حسنة الاستعداد لتمكين الفقراء منه..

ويشيد "طه حسين" – بعد أن كان قد كتب هذا الجزء من حديثه – (فى أحد الهوامش) بموافقة البرلمان على طلب نجيب الهلالى باشا وزير المعارف بجعل التعليم الابتدائى كله (وكان جزءاً من التعليم العام آنذاك) مجاناً، ويعلق بأن ذلك يدل على الرقى، وأنه سوف يشمل التعليم الثانوى ليصبح التعليم العام كله بالمجان[٢٧].

٣ – تعليم اللغات الأجنبية :

لقد اقترح "طه حسين" إرجاء تعليم اللغات الأجنبية إلى مرحلة ما بعد المدرسة الابتدائية، ورأى أن التعليم الابتدائى يجب أن يخلص للثقافة الوطنية وحدها «فنحن نشكو من أن تلاميذنا لايحسنون لغتهم العربية، وسبب العلة أن التلميذ لا يكاد يدخل المدرسة حتى تتلقفه اللغة الأجنبية، فتستغرق من وقته وجهده ونشاطه ما هو خليق أن ينفق فى تعليم اللغة العربية.. فلا نشغله بلغة أجنبية لا يحتاج إليها الآن، ويستطيع أن

يتعلمها ويتعمقها حين ينمو عقله وجسمه وملكاته.. ورأى كذلك أن حاجتنا إلى اللغات الأجنبية لاينبغى أن تكون مقصورة على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وألاَّ نستمد الثقافة إلا منهما، وطالب وزارة المعارف أن تلغى هذا الاحتكار «فإننا إذا فرضنا على أجيالنا الناشئة ثقافة بعينها، صُغناهم على مثال أصحاب هذه الثقافة، فجعلناهم معرضين للفناء فيهم والانقياد لهم»، ويقترح "طه حسين" تخيير الطالب بين هاتين اللغتين، بالإضافة إلى اللغات الايطالية والألمانية والروسية.

وإتساقًا مع أفكاره حول دراسة أصول النهضة، أبدى اهتمامًا كبيرًا بتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، لا فى الجامعة وحدها، بل فى التعليم العام قبل كل شىء، معللاً ذلك بأن مصر خضعت للسلطان اليوناني والرومانى وما نشأ عنهما من النظم عشرة قرون لا نستطيع أن نلغيها من تاريخنا الوطنى «ومعارضة تعليم هاتين اللغتين معناه القضاء على المصريين بأن يجهلوا تاريخهم وألا يعرفوه إلا عن طريق الأجانب»[٢٨].

٤ – تعليم اللغة العربية :

لقد ذكر "طه حسين" أن هذه اللغة قد أصبحت – إن لم تكن أجنبية – قريبة من الأجنبية، وأن الأزهر أقل المعاهد والبيئات اصطناعًا لها وسيطرة عليها، وطالب بالتشديد على المعلمين فى أن يصطنعوا اللغة الفصحى فيما يلقون على تلاميذهم، ثم أوضح ضرورة أن يكون الغرض من الكتابة الإبانة والتجلية، لا الإلغاز والتعمية، فلا بد أن تكون الكتابة تصويرًا صادقًا للنطق، لا أن تصور بعضه وتلغى بعضه، ولما كانت هناك دعوة لكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية فقد أضاف "طه حسين" «أحبُّ أن يعلم المحافظون أنى قاومت، وسأقاوم أشد المقاومة، دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية لأسباب لا أطيل بتفصيلها الآن، ولكن هذه المقاومة لن تغنى شيئًا إذا لم نسرع إلى إصلاح الكتابة لنبطل هذه الدعوة من أساسها»[٢٩].

٥ – تطوير التعليم بالأزهر :

شغلت هذه القضية حيِّزًا كبيرًا في تفكير "طه حسين"، وقد ذكر في البداية أن من الخير للأزهر أن لا يكون حربًا على الحياة الحديثة، وإنما الواجب أن يكون ملطفًا لها، مخففًا لأثقالها، ملائمًا بينها وبين ما يأمر به الله من الخير والمعروف، مباعدًا بينها وبين ما ينهى عنه من الشر والمنكر، وذلك لا يكون إلا إذا عَرَفَ رجال الدين حياة الناس كما يحيونها، وأتقنوا العلوم بأسرارها ومشكلاتها «وسبيل ذلك أن يتثقف الأزهر بالحياة الحديثة، كما يتثقف بها غيره من المعاهد، وأن يمتاز بما لا تمتاز به من الثقافة الدينية الخالصة، إن طبيعة الحياة ستصوغ الأجيال الناشئة والمقبلة صبغة حديثة أوربية، فلابد أن يجارى الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة والمقبلة أجدى وأقوى، فالإسلام دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها، ولا ينبغي أن تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث».

ثم يهاجم "طه حسين" فكرة إنشاء الأزهر لدرجات جامعية على غرار ما تنشئ الدولة، «فينتج عن ذلك نظام ثنائي غريب في التعليم وفي إجازاته»، ويرى أن يمتاز الأزهر بالتعليم الديني علميًّا وعمليًّا للنهوض بالأعباء الدينية التي تحتاج إليها الحياة العامة من جهة، وللتفرغ للبحث العلمي الخالص في شئون الدين من جهة أخرى؛ «فأمَّا إذا أراد الأزهر أن يشارك شبابه في غير هذه المناصب الدينية فحقه لا جدال فيه، ولكن ينبغي أن يسلكوا إلى هذه الأعباء طرقها الطبيعية، وأن يتعلموا في معاهد الدولة المدنية ويظفروا بإجازاتها، ذلك أحرى أن يلغي هذا النظام الثنائي الغريب، وأن يحقق الوحدة العقلية في مصر» وقد طالب "طه حسين" بأن تفتح أبواب الجامعة والمعاهد العالية للأزهريين كما تفتح أبواب الأزهر للجامعيين، فيومئذ تمتزج الثقافة الدينية بالثقافة المدنية امتزاجًا حسنًا مفيدًا، ويومئذ تفتح أبواب الأزهر ونوافذه للهواء الطلق والنور المشرق، ويلتقي العلم والدين لقاءً حسنًا لا يتيح لمصر والمسلمين إلا خيرًا(٣٠).

٦ – الترجمة والنقل عن اللغات الأوربية :

وقد أقر "طه حسين" فى البداية أننا أقل الأمم حظًّا من الترجمة، ومصدر ذلك أننا نجهل كثيراً من اللغات الأوربية، وأن الذين يعرفون قليلاً من هذه اللغات لا يكادون يعرفونها معرفة حسنة، وأن الذين يحسنون هذه اللغات لا يكادون يقرأون ما يذاع فيها من علم وأدب، أما الكثرة فهى تجهل اللغات الأوربية جهلاً تاماً، ولا تجد من التراجم ما يضع عنها إصر هذا الجهل، فتزدرى أوربا وحضارتها، ومن يعجبون بحضارتها. ويربط "طه حسين" بين التأليف والترجمة، فيذكر أننا لن نؤلف التأليف الذى يرضى حاجاتنا إلى العلم والأدب إلا إذا ترجمنا وأكثرنا من الترجمة، فذلك أحرى أن يمنحنا ما نقرأ أولاً وأن يدفع كثيراً من الشباب إلى التقليد والمحاكاة، وقد فرغ الناس من إثبات أن التقليد عنصر من أرقى عناصر الحياة العقلية وأقواها. واقترح بأن تنشئ الدولة إدارة للترجمة لتنهض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة التى أصبحت تراثًا للإنسانية كلها، والتى لا يجوز للغة حية أن تخلو منها، وذلك لإغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة، ولإرضاء الكرامة القومية(٢١).

٧ – خصائص الثقافة المصرية :

ويحاول "طه حسين" تشخيص مميزات هذه الثقافة بعد أن يتساءل: هل هناك ثقافة مصرية؟ فيجيب بأنها موجودة بخصالها وأوصافها التى تنفرد بها عن غيرها من الثقافات، وأول هذه الصفات أنها تقوم على وحدتنا الوطنية، وتتصل اتصالاً قوياً عميقًا بنفوسنا المصرية الحديثة، كما تتصل اتصالاً قوياً عميقًا بنفوسنا المصرية القديمة أيضًا، تتصل بوجودنا المصرى فى حاضره وماضيه، فليست الثقافة وطنية خالصة ولا إنسانية خالصة، ولكنها وطنية وإنسانية معًا.

ثم يحلل "طه حسين" عناصر الثقافة المصرية فيذكر أنها التراث المصرى القديم، وهى التراث العربى الإسلامى، وهى ما كسبته وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت

الحياة الأوربية الحديثة.. هى هذه العناصر المختلفة، المتناقضة فيما بينها، تلتقى فى مصر فيصفى بعضها بعضًا ويهذب بعضها بعضًا؛ وينفى بعضها عن بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التى لا تلائم النفس المصرية، ثم يتكون منها هذا المزاج النقى الرائق، الذى يورثه الآباء للأبناء، وينقله المعلمون إلى المتعلمين، فالعلم لا وطن له، ولكنه إذا استقر فى وطن من الأوطان، تأثر بإقليمه وبيئته ليستطيع أن يتصل بنفوس ساكنيه[٣٢].

-٣-

لقد أثار هذا الكتاب خلافًا حول تفسير الآراء التى تضمنها، فكانت ردود فعله متباينة، فاحتفى به دعاة الفكر التحررى (الليبرالى)، والمؤمنون بضرورة اقتباس نظم وأفكار الغرب وحضارته، ورأوا فيه حججًا تؤكد صدق دعواهم، خصوصًا وقد استطاع "طه حسين" أن يستقرئ التاريخ، بمعنى من المعانى، ليثبت أن نهضة مصر وتقدمها أمر مرهون بتوجهها -كما كان فى الماضى- نحو أوربا وعالم البحر المتوسط، حيث الحضارة بلغت أرقى صورها، وأصبحت هى النموذج والمثال.

كما رأى فيه بعضهم تطورًا نحو العلمانية فى فهم القومية من جانب "طه حسين"، وأنه حتى لايتهم بتنكره لهويته المصرية المسلمة، ذهب إلى أن الإسلام من مقومات الفكر الأوربى، وأن مصر المسلمة تعد أصلاً من أصول الحضارة الأوربية، وأن باستطاعتها أن تقتبس أسس المدنية الأوربية بغير حاجة لاقتباس دينها[٣٣]. كما رأى البعض الآخر فى هذا الكتاب آخر صوت فى الثقافة العربية يطرح الثقة بالحضارة الأوربية، ويدعو إلى قبولها بجرأة وانفتاح قبل أن تقضى «الردة» العربية الإسلامية ضد أوربا على اتجاه التغريب العلمانى الصريح[٣٤].

هذا بينما لقى الكتاب معارضة شديدة من جانب المحافظين ودعاة السلفية، وقد رد عليه الشيخ حسن البنا متسائلاً: إذا كنت تريد تقليد الأوربيين فى الدعوة إلى العلم والخلق وإلى النظام، أفترى أن الإسلام لم يأمر بذلك؟ ولماذا تدعونا إلى ذلك باسم أوربا الناشئة المتخبطة ولا تدعونا إليه باسم الإسلام؟[٣٥]، وهكذا رأى البنا فى الإسلام وتراثه الخصائص والأسس نفسها التى اعتمدت عليها أوربا فى نهضتها، كما رأى سيد قطب أن "طه حسين" تجاهل الشرق العربى، وتجاهل الوحدة العقلية بين مصر وذلك الشرق العربى الإسلامى، وأنه كان بوسعه أن يقرر أن الحضارة الأوربية ضرورة زمنية لا بد منها؛ لأن أوربا سبقتنا فى مدارج الرقى وأن مدنية العالم دواليك، وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها[٣٦]، لقد اعتبر خصوم الكتاب كذلك أن "طه حسين" تجاهل العرب كأمّة؛ لأنه نظر إلى المنافع المادية وحدها، واعتبرها قوام الدول، وأنه لذلك زعم أن سبيل نهضة العرب هو أن يذوبوا فى الغرب ليصبحوا جزءاً منه[٣٧].

والذى لم يحفل به نقاد "طه حسين"، سواء من أيدوه أو عارضوه، أنه وهو يستكمل عناصر موضوعه فى جرأة بالغة، وحماسة فياضة، كان يردد فكرة الندية لأوربا، والمشاركة فى الحضارة الإنسانية، خيرها وشرها، حتى وإن كانت هذه الحضارة الإنسانية العامة، ترتدى الآن رداءً أوربيًا وتنطق بحروف لاتينية. كما أكد كذلك على مفهوم الأخذ بأسباب القوة، وبالأسس التى قامت عليها الحضارة، والحفاظ على الذات من الفناء وإلى فكرة الخصوصية الثقافية، وإن كانت جزءاً من العمومية الإنسانية. فضلاً عن تشديده على فكرة مقاومة أوربا والثبات لها.

وهذه الأفكار فى تقديرنا، وإن لم تكن فى مجملها جديدة على الفكر العربى، إلا أن "طه حسين" نجح فى استجماعها فى نسيج فكرى متكامل، كمشروع للنهضة، على نحو ما صاغه، وإن لم تتوازن وتتعادل فيه علاقات المشروع ببعضها البعض: الإسلام وعلاقته بالمدنية الحديثة -كما كان يسميه محمد عبده- أو الإسلام والغرب الحضارى،

فبدا "طه حسين" كمن يحاول نزع مصر من أمتها العربية الإسلامية، لتوجيه انتمائها وتقدمها وجهه «بحر متوسطية» تلحقها بأوربا وحضارتها، بل لقد أشار إشارة عابرة إلى أن الشرق العربي ذاته له الانتماء ذاته ويتجه الاتجاه ذاته.

وعلى الرغم من إشارته إلى الهوية والخصوصية الثقافية والشخصية القومية، وضرورة الحفاظ عليها، فإن ذلك لم يلق التأكيد ذاته والاهتمام بعناصرها وأصولها، على نحو ما فعل بالنسبة لحضارة الغرب، فانشغل بتوجيه الانتماء أكثر من تأكيده على تلك الخصوصية في مواجهة أوربا، وظهر تركيزه على فكرة صلات مصر وارتباطها القديم ببلاد اليونان، وتأثيرها فيها، وتأثرها بها!، ليثبت – تاريخيًا – أن هذه الصلات والمؤثرات أثبت وأبقى من صلتها بالعروبة والإسلام، وليبرر دعوته بضرورة استئناف هذه الصلات القديمة، في شكلها الأوربي الجديد، من خلال عامل جغرافي هو البحر المتوسط.

لقد رأى نقاد "طه حسين" أنه قفز فوق عشرة قرون من العروبة والإسلام ليثبت مقولته الجديدة، معطيًا العشرة قرون السابقة عليها (عصور اليونان والرومان) اهتمامًا كبيرًا، يفسره دعوته لتعليم اليونانية واللاتينية، متجاهلاً أن يكون للشرق العربي الإسلامي وجود خارج نطاق البحر المتوسط، كما قفز بالمثل على أكثر من قرن ونصف من الزمن الأوربي، كانت نهبًا استعماريًا واستغلالاً وفرضًا للتبعية على الشرق القريب والبعيد على السواء، فبدا "طه حسين" مأخوذًا بالجوانب الإبداعية والعلمية المنتجة من الحضارة الأوربية، دون تأكيد بالمقدار نفسه، على الجوانب الأخرى، العدوانية بشكل خاص، من تلك الحضارة. لكنهم –هؤلاء النقاد– لم يتنبهوا إلى أنه كتب في الكتاب نفسه إننا كنا موضوع الطمع الأوربي، والمنافسة الأوربية والظلم الأوربي، وأخرنا هذا كله عما كان ينبغي أن نبلغ من الرقي، ولكن هذا كله لا يعفينا من اللوم؛ لأننا لم نحسن مقاومة أوربا..(٣٨).

وربما كان من المفيد حقًّا أن نفهم من استدلالات "طه حسين" وأسانيده التاريخية حقيقة مهمة مفادها أن الأوربيين ليسوا أرقى وأفضل منا، وإننا لسنا أقل منهم، ومن ثم فإننا ننهض ونتطور بانتهاج أسباب الحضارة التى انتهجوها، وهى أسباب إنسانية عامة، وتلك هى سنة التطور.. فهل كان تقرير هذه الحقيقة يقتضى منه المغالاة بالدعوة لأن نسير سيرة الأوربيين، وأن نعيش عيشتهم؟

وما أشبه الليلة بالبارحة! حين أراد "طه حسين" عام (١٩٢٦) أن يثبت أن الشعر الجاهلى فى معظمه مزيف ومنتحل، وقبل أن يشرع فى دراسة هذه القضية القديمة بمنهج جديد قدَّم فروضًا ومقدمات نظرية، صاغها فى عبارات لم تضع الدين موضعه من التقديس والإجلال، ما كان أغناه عنها، فما كانت تؤثِّر بالضرورة فى بحثه لو جاء خلوًا منها، فلقى ما لقيه من عنت وبلاء واتهام بالكفر والضلال على نحو ما هو معروف فى قضية كتابه «فى الشعر الجاهلى»؛ فهل كان "طه حسين" عام (١٩٣٨) بحاجة إلى الدعوة إلى ابتكار فكرة حضارة البحر المتوسط لينادى بإلحاق مصر بها، وأن يدعو المصريين إلى أن يعيشوا كما يعيش الأوربيون، وأن يسيروا سيرتهم، وهو الذى يعرف الخصوصية ويؤيد الاستقلال والثبات لأوربا؟ وإلا فكيف تستقيم فكرة الحفاظ على الذات والاستقلال، وأن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم فى غير تردد ولا اضطراب؟

وإذا كان "طه حسين" قد أراد طمأنة الأوربيين على مصالحهم فى مصر بعد توقيع اتفاقية إلغاء الامتيازات عام (١٩٣٧)، عندما رفع صوته داعيًا لربط مصر بحضارة أوربا من خلال عالم البحر المتوسط، وهذا ما جعله فى أكثر من موضع يؤكد بأننا «التزمنا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر أننا سنسير سيرة الأوربيين»؛ فهل يمكننا أن نفسر هذه الأفكار بأنها صياغة سياسية فرضتها ظروف مصر بعد توقيع الاتفاقية، على اعتبار أنه لم يهمل حقائق أكثر أهمية فى سياق تقريره – تتعلق بالندية والخصوصية الثقافية والمشاركة والأخذ بأسباب الحضارة والتوسل بوسائلها؟

إذا كان الأمر كذلك، فإن "طه حسين" الذى انبهر كثيراً بالغرب ومناهجه، وبدا فى نظر الكثيرين «مستغرباً» لم يخرج كثيراً عن التوفيقية التى أرساها محمد عبده، والتى حاولت إزالة التناقض، إن لم تقم الجسور بين الإسلام والمدنية الحديثة.

وأخيراً فإن القضايا الأخرى، التى أثارها "طه حسين" والمتعلقة بالتعليم والثقافة، من الملاحظ أنه نجح فى تشخصيها، وفى تصوير اضطراب أساليبها فى مصر، الأمر الذى يؤثر فى عقول الناشئة والشباب، فطالب فى غير تردد أن تتوحد الأساليب، وأن تتجدد لتنمية الشعور الوطنى، وأهاب بالدولة أن تتحمل مسئولياتها كاملة بالإشراف على جميع مراحل التعليم العام. وإذا كان قد دعا إلى إلزاميَّة التعليم ومجانيته فى بعض مراحله الأولى، فإنه عندما تولى وزارة المعارف عام (١٩٥٠) تجاوز دعوته تلك عملياً بجعل التعليم العام مجانياً، وعلى الرغم من ذلك، فإن ثمة قضايا طرحها "طه حسين" لم يتجاوزها الزمن، وكأن كلماته وآراءه بشأنها عام (١٩٣٨)، مازالت تصلح لزماننا.

فمازالت قضية مجانية التعليم بكل مراحله مطروحة، وكذلك قضية المدارس الخاصة والأجنبية التى تحتاج إلى اشراف الدولة وتوجيهها، ومازالت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية تحتاج إلى مؤسسة كبيرة ومستقلة تحقق ما نطمح إليه، لمواكبة متطلبات العصر ونهضته. وما بقاء هذه المشكلات إلا دليل على اضطرابنا وضعفنا، الأمر الذى يدفعنا من جديد إلى تلمس مستقبل جديد للثقافة.

* * *

هوامش الفصل الخامس ومصادره

(١) انظر كتاب أحمد علبى: "طه حسين رجل وفكر وعصر"، دار الآداب بيروت ١٩٨٥، ص٤٢٥.

(٢) طه حسين : من بعيد، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨٢، ص٢٠٦، ٢١٠، ص ٢١٢-٢١٣، ثم كتابه: "رحلة الربيع والصيف"، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨١، ص١٠٦-١٠٧.

(٣) محمد محمد حسين: "أزمة العصر"، ط(٢) بيروت ١٩٧٩، ص١٢١-١٢٥ ويتهم طه حسين بمنافقة موجة الكتابات الإسلامية بكتابه على هامش السيرة.

(٤) غالى شكرى: "طه حسين وإشكالية النهضة"، دراسة بندوة جامعة القاهرة عن طه حسين (نوفمبر ١٩٨٩)، ص ٥-٦ (غير منشورة).

(٥) اتحاد الجامعة المصرية واتحاد كلية الحقوق: واجبنا بعد المعاهدة، محاضرة طه حسين بعنوان «واجبنا الأدبى بعد المعاهدة» فى ١٩/١٢/١٩٣٦، القاهرة فى ١٩٣٧.

(٦) طه حسين : "مستقبل الثقاف فى مصر"، مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٨.

(٧) انظر كتاب ألبرت حورانى: "الفكر العربى فى عصر النهضة"، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨، ص ٣٩١-٣٩٣.

(٨) مجلة "الهلال" أبريل ١٩٣١ ص ٨٢١ وما بعدها، استفتاء حول «حضارتنا القادمة» وراجع كذلك أحمد علبى، المرجع" السابق ص ٤٤٦.

(٩) طه حسين : "مستقبل الثقافة فى مصر" ص ١١.

(١٠) المصدر السابق ص ١٣.

(١١) المصدر السابق ص ١٤-١٥.

(١٢) المصدر السابق ص ١٦-١٩.

(١٣) أحمد زكريا الشلق: "حزب الأحرار الدستوريين"، دار المعارف بمصر ١٩٨٢ ص ٥٠٦-٥٠٧.

(١٤) سيد قطب: "نقد كتاب مستقبل الثقافة فى مصر"، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط(١) ١٩٦٩. ص١٢.

(١٥) طه حسين: "مستقبل الثقافة فى مصر"، ص١٩.

(١٦) المصدر السابق، ص١٤.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٩-٢١.

(١٨) المصدر السابق، ص٢٢-٢٤.

(١٩) المصدر السابق، ص٢٩-٣٠.

(٢٠) المصدر السابق، ص٣١.

(٢١) المصدر السابق، ص ٣٤-٣٦.

(٢٢) راجع كتاب الحكومة المصرية: "الاتفاق الخاص بإلغاء الامتيازات فى مصر"، الوثائق الموقعة بـ "مونترو" فى ٨ مايو ١٩٣٧، القاهرة ١٩٣٧.

(٢٣) طه حسين: "مستقبل الثقافة فى مصر"، ص٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٤.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٤٤ وقد كرر طه حسين كلمة «أوربا وأمريكا» فى الصفحة نفسها ثلاث مرات.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٤٦-٦٠.

(٢٦) المصدر السابق ص ٦٢-٧٧، وقبل ذلك ص ١٩-٢٠ للمقارنة.

(٢٧) المصدر السابق، ص٧٩-٨٠ والهامش الذى أضافه وعلّق عليه ص١١١.

(٢٨) المصدر السابق، ص ١٩٤-٢٠٢، ٢٢٣.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٣٧-٢٤٦.

(٣٠) المصدر السابق، ٣٥٣-٣٥٦.

(٣١) المصدر السابق، ص٣٦٩-٣٧١.

(٣٢) المصدر السابق، ص ٣٩١-٣٩٤.

(٣٣) راجع كتاب نازك سابا يارد: "الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة"، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٣٨ وما بعدها، ثم كتاب ألبرت حوراني: "الفكر العربى فى عصر النهضة"، ص٢٩٣ وما بعدها.

(٣٤) محمد جابر الأنصارى: "تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى"، الكويت١٩٨٠، ص٩٤.

(٣٥) عن كتاب أنور الجندى: "طه حسين فى ميزان الإسلام" ط(١)، القاهرة ١٩٧٦، ص٨٥-٨٧.

(٣٦) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٠-١٢، ص ٢٧-٢٨.

(٣٧) محمد محمد حسين: "حصوننا مهددة من داخلنا"، ط(٦) بيروت ١٩٨١، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣٨) طه حسين: "مستقبل الثقافة فى مصر"، ص ٣٧٣.

الفصل السادس

أوراق "طه حسين" ومراسلاته
شهادات وثائقية للتاريخ الثقافى والأدبى

أصدرت دار الكتب المصرية كتابًا وثائقيًا من جزأين تحت عنوان (أوراق ""طه حسين"" ومراسلاته) عامى (٢٠٠٥ و٢٠٠٧) يضم الأوراق الخاصة بالعميد، وكذلك المراسلات التى تبادلها مع أصدقائه وتلاميذه خلال الفترة (١٩٢٥ - ١٩٧٢) وقد شارك كاتب هذه الفصول الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب الأستاذ بجامعة الأزهر ورئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية فى الإشراف على تحقيق هذه الأوراق وتقديمها. وكانت أسرة العميد، وعلى رأسها زوج كريمة الدكتور محمد حسن الزيات، السياسى المعروف، تدرك أهميتها، وأهمية مغزى احتفاظ "طه حسين" بها حتى نهاية حياته؛ لذلك قدمتها هدية للوطن فى تقليد نبيل وكريم يليق بالعميد وأسرته، التى أودعتها دار الوثائق القومية، لتكون متاحة للدارسين والباحثين والمثقفين جميعًا، ولتنشرها الدار على نحو ما أشرنا.

وبهذه المناسبة نتمنى أن يستمر هذا التقليد وأن تهتم به أسر السياسيين والعسكريين وقادة الفكر وكبار الكتاب، فتُودِع ما لديها من "أوراقٍ خاصةٍ" بدار الوثائق القومية، لتكون ملكًا للوطن، ليستفيد منها الباحثون والدارسون، أوليتم تحقيقها ونشرها نشرًا علميًا، إحياء لذكراهم، وحفاظًا على ذاكرة الوطن، وخوفًا من أن يدركها التلف أو يطويها النسيان مع توالى السنوات وجريان الزمن.. ودور الوثائق والأرشيفات العامة ومراكز البحث العلمى فى الدول المتحضرة مليئة بهذا النوع من الوثائق التى غالبًا ما تودع تحت اسم "الأوراق الخاصة لـ.. .. Private Papers" ومن يزور مكتبات جامعات هارفارد ودرام، ومركز بحوث الشرق الأوسط فى سان أنتونى كولدج بأكسفورد - على سبيل المثال - سيجد الكثير من مجموعات الأوراق الخاصة

للسياسيين والعسكريين البريطانيين الذين خدموا بلادهم فى الشرق الأوسط، وفى مصر على وجه الخصوص.

ومن الجدير بالذكر أننا فى مصر عرفنا هذا التقليد عندما أودعت فى دار الوثائق القومية مذكرات وأوراق كل من سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبدالرحمن فهمى ومحمد على علوبة وإبراهيم الهلباوى وغيرهم... وقد نشر بعضها نشراً علمياً كاملاً، كما نشرت مجموعات محققة من البعض الآخر، غير أن هذا التقليد المتحضر توقف فترة من الزمن، ولم تعد دار الوثائق تتلقى ما هو متوقع ومنتظر، حتى أهديت أوراق "طه حسين" ومراسلاته إلى الدار عام (١٩٩٨) لتدفع بهذا التقليد خطوة مهمة إلى الأمام، نرجو أن تستتبعها خطوات وخطوات ممن لديهم أوراق خاصة ومراسلات، تركتهاالشخصيات العامة التى صارت، بتاريخها، وبما تركته، ملكًا لمصر، بعد أن وهبتها حياتها.. أأعز من هذا شىء يوهب؟

ولعلنا نلاحظ أن "طه حسين" لم يحتفظ بهذه الأوراق والمراسلات إلا منذ عام (١٩٢٥)، بعد أن شارف على الأربعين من عمره (ولد عام ١٨٨٩) أى بعد أن صار كاتبًا مرموقًا لديه قاعدة واسعة من القراء، صنعتها كتاباته فى صحف "الجريدة والسفور والأهرام والهلال والسياسة"، فضلاً عن كتبه ومؤلفاته، كما أنه فى هذا العام (١٩٢٥) عُيِّن أستاذًا بالجامعة المصرية، وشرع يستعد لخوض معاركه الفكرية الكبيرة والتى بدأت فى العام التالى (١٩٢٦) بمعركة كتابه الشهير "فى الشعر الجاهلى". لقد أصبح "طه حسين" شخصية عامة تمتلك رؤية ومشروعًا فكريًا وثقافيًا يناضل من أجله، ومن ثم باتت أوراقه، بل ومسودات مقالاته ومراسلاته، على جانب كبير من الأهمية، ومن هنا تكمن أهمية الاُحتفاظ بها.

ومن الواجب الإشارة إلى جهود سابقة قام بها بعض الكتاب والصحافيين لنشر بعض مراسلات "طه حسين"، ممن حصلوا على صور لمجموعات منها، ونشروا أجزاءً منها فى أعمال قائمة بذاتها، فى جهد مقدر ومحمود.. وقد نشر الأستاذ نبيل فرج فى

هذا الشأن كتابًا تحت عنوان ""طه حسين" ومعاصروه" صدر عن سلسلة كتاب "الهلال" (في مايو ١٩٩٤)، وكما هو واضح من عنوانه انتقى الكاتب عدداً من رسائل العميد إلى بعض معاصريه، فضلاً عن بعض رسائله إلى المسئولين، بالإضافة إلى مجموعة من رسائل أصدقاء العميد إليه، وقد نشر هذه المجموعة بطريقة انتقائية، اختار فيها الشخصيات الأكثر شهرة، وقدَّم لكل فصل بدراسة ممهدة له، ثم أعقب هذا العمل بكتاب آخر عنوانه "طه حسين"، وثائق أدبية" صدر عن السلسلة نفسها (في فبراير ٢٠٠٤) جمع فيه عدداً آخر من الرسائل بعد أن قدَّم لكل منها بمقدمة صغيرة، كما ضم إليها بعض أحاديث العميد عن الأدب العربي القديم.. ونلاحظ أنه اعتمد على الانتقاء من المراسلات أيضًا، دون قاعدة واضحة، سواء من حيث الترتيب الزمني أو من حيث الموضوعات والقضايا.

وفي هذا المجال أيضًا انفرد الأستاذ إبراهيم عبدالعزيز بنشر سلسلة أحاديث رمضان التي كان العميد قد نشرها مسلسلة في صحيفة "الجهاد" عام (١٩٣٥)، فجمعها ونشرها في كتاب تحت عنوان "أوراق مجهولة لـ "طه حسين" صدر عن سلسلة "اقرأ" بدار المعارف (١٩٩٧)، كذلك نشر الكاتب عملاً آخر استخرجه من مراسلات "طه حسين"، صدر عن دار ميريت ثم مكتبة الأسرة عام (٢٠٠٠) تحت عنوان "رسائل "طه حسين"" تضمَّن عدداً من الرسائل التي تلقاها العميد، نشر بعضها كاملاً، والبعض الآخر أجزاء من هذه الرسائل، ويلاحظ أنه اختارها - أيضًا - لأكثر الشخصيات شهرة ممن عاصروا العميد، بعد أن قدَّم لها بمقدمات جيدة توضح خلفية علاقة "طه حسين" بهذه الشخصية أو تلك.. كذلك نشر الكاتب عملاً آخر عنوانه "أيام العمر، رسائل خاصة بين "طه حسين وتوفيق الحكيم" صدر عن مكتبة الأسرة عام (٢٠٠٣)، ضمنه عدداً من رسائل العميد إلى توفيق الحكيم.

وفي عام (٢٠٠٦) أصدر الأستاذ الدكتور عبدالحميد إبراهيم أستاذ الأدب العربي المعروف مجلداً يقع في نيف وألف صفحة تحت عنوان ""طه حسين"، الوثائق السرية"

حقق فيه وقدَّم الكثير من الرسائل والقصائد التى أرسلت إلى العميد من كبار الأدباء والشعراء والمفكرين والمثقفين، صدر عن دار الشروق عام (٢٠٠٦)، وقد ضم هذا المجلد ثلاثة أجزاء قدَّم الأستاذ لكل منها بمقدمة ضافية، تناولت مشروع "طه حسين" التنويرى، وتطور علاقته هو بـ "طه حسين"، ثم النزعة التوفيقية وغياب الوسطية، وتحت عناوين هذه الأجزاء نشر عدداً كبيراً من الرسائل التى تلقاها العميد، بالإضافة إلى القصائد التى أهديت إليه من شعراء من مصر ومن أنحاء الوطن العربى. ويلاحظ أن الدكتور عبدالحميد صنف مجموعة كل كاتب أو أديب على حدة، وكتب مقدمات لمعظم المجموعات، وبعد أن كتبت كل رسالة بشكل الطباعة الحديثة، ألحق بكل منها النص الكامل لمخطوطة هذه الرسالة، دون الاكتفاء بنماذج منها، مما ضاعف من حجم الكتاب.

ومن الواضح أن هذه الأعمال السابقة اعتمدت على انتقاء رسائل الشخصيات الأكثر شهرة فى عالم الأدب والسياسة والفن والقانون، ممن تراسلوا مع "طه حسين"، كما أن هذه الأعمال، فى معظمها، تضمنت رسائل مرسلة إلى "طه حسين" ، دون مسودات كثير من الرسائل التى أرسلها "طه حسين" نفسه إلى هذه الشخصيات وغيرها، والتى تضمنتها الأوراق الخاصة للعميد، كما أنها لم تنشر شيئاً من خطاباته وتقاريره إلى المسئولين، أو مسودات بعض المقالات أو نصوص محاضراته العامة، أو خطبه أو أحاديثه الإذاعية التى تضمنتها هذه الأوراق، ولم يسبق نشرها، فضلاً عن عشرات الرسائل لشخصيات عادية وشخصيات غير مصرية، لكنها رسائل على جانب كبير من الأهمية سواء بموضوعاتها، أو بمن أرسلت إليه.

ومن هنا، فإن هذا العمل الجديد الذى نشرته دار الكتب المصرية تحت عنوان (أوراق "طه حسين" ومراسلاته) يمثل عملاً شاملاً ومتكاملاً لنشر هذه الأوراق جميعاً، نقلاً عن أصولها المودعة بدار الوثائق، فى عمل تأسيسى، تبنى بالدرجة الأولى نشر "الأصول" فى سياقها التاريخى وتتابعها الزمنى لتشكل مصدراً للباحثين والدارسين، بعد أن زودت بتراجم مختصرة، للشخصيات التى تراسلت مع "طه حسين"، كما زودت

بإيضاحات لبعض الوقائع والمناسبات والأسماء الواردة فى سياق المراسلات، ألحقت جميعًا بالهوامش حفاظًا على النص الأصلى، ليكون متاحًا لكل باحث ومثقف حيث يجد فيه بغيته من الفائدة والمتعة.

والواقع أن هذه الأوراق والمراسلات تستمد قيمتها، ليست فقط من كونها وثائق أدبية بالغة القيمة والأهمية، وإنما لمصداقيتها باعتبارها كتبت بتلقائية تجعلها بريئة من كل قصد يستهدفه النشر، كتب معظمها شباب ورجال لم يكن معظمهم قد بلغ مرحلة الشهرة بعد، ولم يقدر أصحابها يومًا أنها ستنشر، فكتبوها لـ "طه حسين" معبرين عن آرائهم ومواقفهم بحرية، ومن هنا كانت أكثر صدقًا ... ولذلك تشكل مصدرًا مهمًا ليس فقط لدراسة "طه حسين" وآثاره وتراثه، وإنما لدراسة التاريخ الثقافى والأدبى لمصر المعاصرة، كما تمثل كنزًا لنقاد الأدب ومؤرخيه، فضلاً عن أنها، فى حد ذاتها، تقدم رؤى فكرية ومشاعر إنسانية فياضة، وأدبًا رفيعًا. ومن هنا سيجد فيها القراء والمثقفون، إلى جانب كونها شهادات على عصر، متعة دونها أى متعة، فى "حضرة" "طه حسين" وأصدقائه وتلاميذه، وفيما يبوح به هؤلاء جميعًا فى تلقائية وفى غير احتراز، فضلاً عما تحتويه من آراء وخواطر فى اللغة والأدب والترجمة والنقد، وقضايا الثقافة بشكل عام.

إن هذه المراسلات، كما قال (نجيب محفوظ) بحق[١]، تجعلنا نعيش مع رجل ملأ عصره، ولا يزال يثير الجدل بعد رحيله، فنراه فى حالات القوة وحالات الضعف، ونشاهده فى حالات التوافق وحالات التناقض، وكل ذلك وغيره مما تكشفه رسائله ورسائل الآخرين إليه، مما يجعلنا نحبه أحيانًا، ونغضب منه أحيانًا أخرى، نقترب منه بعض الوقت، ونبتعد عنه بعض الوقت، ولكننا فى كل الأحوال نعجب بـ "طه حسين" ونعجب له، ونحبه ونقدره باعتباره رمزًا من أبرز رموز النهضة الأدبية والفكرية فى القرن العشرين.

وإذا كان العميد قد سجل مراحل من سيرته الذاتية فى كتابه الفذ "الأيام" الذى توفى قبل أن يتم بقية أجزائه، فتوقف به عند عام (١٩٢٢)، وهو العام الذى أخذت فى مصر قدراً من الإستقلال الذاتى بموجب تصريح (٢٨ فبراير عام ١٩٢٢)، الذى ألغى الحماية البريطانية على مصر، التى شرعت تستقبل عهداً جديداً بإعداد دستور لها حمل اسم العام الذى صدر فيه (دستور ١٩٢٣)، وقد حاول الدكتور محمد حسن الزيات أن يكمل هذه السيرة، على نحو ما، عندما وضع كتابه "ما بعد الأيام" الذى حمل ذكرياته عن الأحداث الكبرى التى مر بها العميد وسمع منه آراءه بشأنها، فقدَّم بذلك عملاً ممتعاً ومهماً.

غير أن هذه الأوراق الخاصة والمراسلات فى سياقها الزمنى تقدِّم، فى تقديرنا، "سيرة ذاتية موازية" إن صح هذا الوصف، بما تضمنته مادة خصبة عن الكثير من المواقف والآراء ووجهات النظر التى تبادلها العميد سواء مع من تراسلوا معه أو من تحدث إليهم أو خطب فيهم.. لقد كان "طه حسين" حريصاً على الاحتفاظ بمعظم الرسائل التى تلقاها، فضلاً عما توفر لديه من مسودات رسائله هو، والكثير من التقارير والأوراق التى رأى ضرورة الاحتفاظ بها طوال هذه السنوات.

* * *

إن قراءتنا لأوراق "طه حسين" ومراسلاته تكشف عن جوانب خصبة من حياة العميد، ذات بعد إنسانى يوضح ليس فقط ذلك النبل والرقى الذى يتضح منها، وإنما يكشف عن ارتباط ذلك بالعمل والتكوين العلمى والثقافى له ولتلاميذه، ويصب على المدى البعيد فى مشروعه لنهضة الوطن ورقيه، وربما تكون قراءتنا ذات نظرة ذاتية، ذلك أن هناك أبعاداً أخرى كثيرة سيجدها الدارسون والمثقفون من غير شك، كل فى مجال تخصصه ودائرة اهتمامه، لكننا سوف نعرض هنا لبعض هذه القضايا التى برزت لنا خلال قراءتنا لها بهدف المشاركة فى إعدادها للنشر.

من الملاحظ والمثير للانتباه والاهتمام فى مراسلات تلاميذه إليه أن "طه حسين" كان يمتلك قدرة عالية ومثابرة على متابعة طلابه فى مختلف مراحل تكوينهم العلمى، حتى لقد كانوا يستشيرونه فيما يقرءون، ويكتبون خلال أجازات الصيف، وكان يثابر على متابعتهم وإرشادهم، ويقترح عليهم الموضوعات فى حنو وحزم فى آن واحد. كما كان يبث فى نفوسهم الحماسة لمتابعة دراساتهم العليا فى أوربا، ويساعدهم على حل مشكلات الابتعاث، من خلال علاقاته ومكانته، ليعودوا إلى مصر ويحلون محل الأساتذة الأجانب، وحتى "تتمصر الجامعة المصرية"، بعد أن يصبحوا أنداداً لهؤلاء الأساتذة، وقد كان هو نفسه قدوة لهم. عندما أصبح أول عميد مصرى لكلية الآداب، بل كان يطالب أصدقاءه وتلاميذه بمتابعة المكتبات التى تباع فى أوربا والسعى لشرائها وضمها لمكتبة الجامعة المصرية لإثراء هذه المكتبة والارتقاء بمحتوياتها وتحديثها.

وفى هذا المجال كان طلابه يعرضون عليه مشكلاتهم العلمية فى تخصصاتهم المختلفة ويسألونه النصيحة التى كان يقدمها لهم فى أستاذية فياضة وأبوة كريمة، بل أكثر من هذا كان يبثونه أشجانهم ومتاعبهم أحياناً، كما كانوا يقدمون له تقارير شبه دورية يحدثونه فيها عن نشاطاتهم العلمية، وقراءاتهم ودرجة تقدمهم فى دراساتهم، ويقيِّمون أنفسهم وما يفعلون، بكل أمانة وصدق.. ومن المؤكد أن هذه الرسائل سوف تضىء صفحات من تاريخ البعثات العلمية المصرية إلى أوربا فى أبعادها الرسمية والعلمية والإنسانية على نحو لا تحفل به الوثائق الرسمية(٢).

ومن الموضوعات المهمة التى تبرز لنا خلال المراسلات أنها تضم ملفًا كبيراً عن قضية الحرية الفكرية وحرية البحث العلمى فى مصر واصطدامها بالسياسة، منذ أثيرت أزمة كتاب "فى الشعر الجاهلى" عام (١٩٢٦)، ففى هذه المجموعة احتفظ "طه حسين" بوثائق إثارة الأزمة من جديد عام (١٩٣٢) فى عهد إسماعيل صدقى (١٩٣٠ – ١٩٣٣)، وما أثارته الحكومة ونوابها "بأثر رجعى" تمهيداً للإطاحة بـ "طه حسين" من منصبه، فتضمن الملف وثائق تُنشر لأول مرة لم تظهر عام (١٩٢٦)، كما تكشف عن

ظروف إبعاده عن الجامعة ثم عزله من وظيفته خلال الفترة (١٩٣٢ - ١٩٣٤)، وكذلك توضح الرسائل تدهور أوضاع الجامعة المصرية بعد إبعاد "طه حسين" عنها، وتدخل الوزارة فى شئونها وانتهاك استقلاليتها مما أدى إلى استقالة مديرها أحمد لطفى السيد فى (٩ مارس ١٩٣٢)، فى يوم مشهود من أيام تاريخ مصر، كما يتضح منها أيضًا كيف أن الرجل تحمل تبعة قراره بعدم الرضوخ لمطالب وزارة صدقى، وصار يعانى فى حياته الخاصة أشد المعاناة بعد ضياع مصدر رزقه، واضطراره إلى الاقتراض ليتمكن من أن يعيش. ولعلنا سنلاحظ أن الرسائل التى وصلت إلى "طه حسين" خلال هذه الفترة، التى فصل فيها من الجامعة، كانت قليلة للغاية (نحو عشر رسائل) بالقياس إلى ما سبقها، مما أشعره بالمرارة والحزن والوحدة نتيجة انصراف الأصدقاء، وهو ما عبر عنه فى نغمة مؤثرة فى إحدى رسائله إلى صديقه أحمد نجيب الهلالى(٣).

وتوضح لنا هذه المراسلات جوانب مهمة فى مرحلة من مراحل التكوين العلمى والعقلى للناقد الكبير الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦١)، حيث تشكل خطابات مندور إلى "طه حسين" ما يمكن اعتباره ملفًا خاصًا بالناقد الكبير الذى كان امتدادًا لمدرسة من الأدباء والنقاد تعيد تقييم التراث الثقافى استنادًا إلى مقاييس نقدية مقتبسة من الثقافة الغربية الحديثة، وهى مدرسة تتسابق إلى إضفاء الطابع التاريخى على مجتمع عربى متدثر برداءات التقديس، فكانت السنوات التسع التى أمضاها مندور فى باريس (١٩٣٠ - ١٩٣٩) سنوات لتقليب جذوره الفكرية للاستقرار داخل ثقافة موسوعية واضحة، فإلى جانب حصوله على إجازة الأدب واللغتين اللاتينية واليونانية، حصل على شهادة فى العلوم القانونية والاقتصادية، فى الوقت الذى كان يحضِّر فيه لأطروحة الدكتوراة عن النقد الأدبى القديم، إنها سنوات تكوين مندور عقليًا وعاطفيًا وإنسانيًا(٤)، وتكشف رسائله لأستاذه الكثير من تفاصيل هذه المرحلة المهمة من حياته، وتوضح كيف كان ينظر إلى أساتذته الفرنسيين وما يكتبون ويقولون، بوعى

نقدي مبكر، كما تفسر لماذا طالت فترة دراسة مندور بباريس، وكيف تفرعت به الدراسة، مما جعل أستاذه "طه حسين" يتشدد معه ويحاسبه ويذكره دائمًا بحاجة الوطن إليه، وما ينتظر من أمثاله من الشباب، ويطالبه بألاً يبقى فى أوربا للهو ورغد العيش، وألاً تطول به أيام الدراسة، وأن يعطي وطنه وأهله حقهم(٥).

وتمدنا هذه المراسلات كذلك بمعلومات مهمة عن فترة مبكرة من نشاط الفقيه الدستوري الكبير الدكتور عبدالرازق السنهوري (١٨٨٥ - ١٩٧١)، وهى الفترة التى كان يعمل فيها مدرساً للقانون بكلية الحقوق فى بغداد منذ عام (١٩٣٤)، قبل أن يعود منها وينتخب عميداً لكلية الحقوق بالجامعة المصرية عام (١٩٣٧)، ففى فترة غيابه عن مصر كان على تواصل مستمر مع صديقه "طه حسين"، وها هو يطلب مشورته وعونه فى وضع مشروع لإنشاء جامعة عراقية تضم كليتى الحقوق والطب، وتضم إليها أيضًا كليتا الآداب والعلوم، ويشرح السنهوري فى رسائله خطوات ذلك وجهوده فى هذا الشأن، ويطلب من "طه حسين" أن يقترح عليه أسماء من يستعان بهم من الأساتذة المصريين فى هذا الصدد، كما تتضح من الرسائل كيف أن الحكومة العراقية عهدت إلى السنهوري بمهمة وضع مشروع قانون مدني للعراق، وكيف أنه بدأ فى إنجاز المهمة، كما يطلب من "طه حسين" المعاونة فى تنسيق تبادل وفود للزيارات من الأساتذة والطلاب لكل من مصر والعراق، توثيقًا لعرى الصلات بين البلدين... وفى إحدى الرسائل يتحدث السنهوري إلى "طه حسين" عن نجاحه فى إقناع الحكومة العراقية بإنشاء الجامعة، ويقترح عليه أن يأتى إلى بغداد للمساهمة فى وضع أسس تنظيم هذه الجامعة(٦)، مما يكشف عن دور مصر العلمي والثقافي ونشاطها فى هذا المجال فى تلك الفترة.

ومن الموضوعات التى توضحها المراسلات ما كان يعقده المستشرقون الأوربيون من المؤتمرات التى كان يحضرها بعض الطلاب المبعوثين ويسجلون ما دار فيها، ويبعثون به لأستاذهم، ومن أبرزها المؤتمر الذى عقده المستشرقون الألمان فى (سبتمبر

١٩٣٦)، والذى حضره فؤاد حسنين على، وسجل ملخصاً وافياً لكل ما دار فيه، مركزًا على أفكار هؤلاء المستشرقين وأطروحاتهم، وحيث علَّق على المؤتمر موضحاً كيف تفانى الألمان فى دراسة الشرق العربى، وتساءل: لماذا لا يهتم الشرق بعلومه ولغته كما يهتم بها الأوربيون(٧)؟ ومن الواضح أن هذا الاهتمام من جانب شباب المبعوثين كان صدى لتوجيهات "طه حسين" الذى كان حريصًا كل الحرص على متابعة هذه المؤتمرات وما يدور فيها، سواء بحضوره بنفسه أو بتكليف طلابه وتوجيههم إلى ذلك.

والواقع أن هذه الرسائل، وخصوصاً رسائل "طه حسين" التى أرسلها إلى المسئولين، تكشف عن مصدر من مصادر قوته، تمثل فى أنه كان دائمًا يضع استقالته على كفه، غير حريص على منصبه إذا رأى أن الوزارة تضحى بمصلحة كليته التى وقف نفسه دفاعًا عنها، وعن مصالحها، واستقلالها، وميزانيتها، وتطويرها. فقد تصدى لمسلك وزارة صدقى عام (١٩٣٢) كما هو معروف، وها هو فى رسالة كتبها إلى مدير الجامعة فى أول ديسمبر (١٩٣٦) يقدم استقالته من منصبه كعميد لكلية الآداب؛ لأن وزارة المالية رفضت الاستجابة لطلب الكلية تخصيص جزء من الميزانية الإضافية لإنشاء ثلاثة كراسٍ للأستاذية، حين رأى العميد أن ذلك يضيِّع مصالح الكلية والتعليم، وأنه لا يستطيع أن يتحمل تبعة ذلك ولا تبعة هذا المنصب ما دام تصرف الوزارة قائمًا! ويبدو أن الحكومة استجابت لطلبه، حيث إن استقالته لم تقبل. وها هو العميد يرسل خطاب استقالة جديد إلى مدير الجامعة فى (١٦ مايو ١٩٣٨) إن لم يردّ إلى الكلية كرسى الجغرافية الذى تقرر لها واعتُمِدَ له جزء من الميزانية، لكنه لم ينفذ، واللافت للنظر أن "طه حسين" عميد كلية الآداب الذى يهدد بالاستقالة من منصبه ويبدى استعداده للتضحية به من حين لآخر، حتى لا يضحى بمصالح كليته، كان يعانى من ضائقة مالية، كشفت عنها رسالته إلى مدير بنك مصر، التى يطلب فيها منحه سلفة شخصية مقدارها خمسون جنيهًا تخصم أقساطها من مرتبه، والبنك يرفض!!(٨).

وتمدنا المراسلات كذلك بمعلومات عن جهود "طه حسين" لإنشاء قسم اللغات السامية بكلية الآداب، كما كان يوجه تلاميذه للتخصص فيها، ولم تكن معروفة

بالجامعة المصرية آنذاك، كما كان يحثهم على الترجمة منها إلى اللغة العربية؛ ففى رسالة من تلميذه فؤاد حسنين على فى (١٨ أغسطس ١٩٣٩) يطمئن فيها "طه حسين" بشأن بدء نشر أول كتاب وضعه مصرى فى اللغة العبرية، وهو كتاب "التوطئة فى اللغة العبرية"(٩)، ويضيف أنه لم يكن لمصرى علم بهذه اللغة "لولا جهادكم المتواصل"، ويرجو أستاذه أن يكتب مقدمة لهذا الكتاب.

وكما يدعو "طه حسين" إلى إنشاء الأقسام الجديدة بكلية الآداب، وتمصير هيئة التدريس، كان يدعو إلى تمصير الكتابة التاريخية إلى جانب ترجمة ما كتبه الأجانب عن تاريخ مصر، ففى رسالة منه إلى وزير المعارف العمومية - آنذاك - محمود فهمى النقراشى فى وزارة على ماهر (أغسطس ١٩٣٩ - يونيو ١٩٤٠) يتحدث عن كتابة الأجانب لتاريخ مصر وضرورة ترجمة ما يكتبونه وتصحيحه ومراجعته، ويرى أن ذلك لا يكفى، وأنه قد آن الأوان لأن يعنى المصريون بتاريخهم، وأن يضعوا فيه الكتب المطولة والمختصرة، ويثنى على الوزير لاستجابته لموضوع "وضع مشروع لإنشاء جمعية تاريخية تنهض بهذا الغرض"(١٠)، ويضيف أن هذا لا يعنى أن يمتنع المصريون عن قراءة ما يكتبه الأجانب عن تاريخهم، ذلك أن الأمم الأوربية الراقية تكتب تاريخها بنفسها، ولكنها تترجم ما يكتب عنها فى البلاد الأخرى إلى لغتها القومية.

* * *

وسيرى القارئ فى هذه الأوراق عناية كبيرة من "طه حسين" بقضايا التعليم والثقافة.. وسيعلم مدى حرصه فى كل خطبة أو محاضرة له على التأكيد على تيسير التعليم ومجانيته، ونشره فى الريف والمدينة، مما يعد جزءًا أساسيًا من مشروعه لنهضة الوطن، ذلك المشروع الذى رسم خطوطه فى بيانه الشهير الذى حمل اسم "مستقبل الثقافة فى مصر" وسنلاحظ أن التعليم ارتبط بالثقافة، والثقافة ارتبطت

بالتعليم عند "طه حسين"، ونحن نعلم أنه شغل إدارة للثقافة ضمن إدارات وزارة المعارف، كما أنه في كتابه مستقبل الثقافة تناول جميع قضايا التعليم... وقد اعتاد "طه حسين" أن يشارك في برنامج المحاضرات الذي ينظمه سنويًا قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية، ففي (٣ فبراير ١٩٤١) ألقى محاضرة مهمة عنوانها "كيف ننهض بالريف المصري ثقافيًا؟" ركَّز فيها على ضرورة نشر التعليم لذاته، باعتباره ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية في هذه العصور التي تعيش فيها الأمم عيشة حضارة ورقي، وتحدث باستفاضة عن مسئولية الدولة في تعليم الناس والعناية بأجسامهم وصحتهم وأخلاقهم وعقولهم، وطالبها بترقية أوضاع المعلمين أدبيًا وماديًا حتى يستطيعوا أن يؤدوا مهمتهم على أكمل وجه.

وعندما دعته كلية العلوم ليحاضر فيها في (٢٣ ديسمبر ١٩٤١) ألقى "طه حسين" محاضرة مهمة عن التعليم الجامعي، أوضح فيها الفرق بينه وبين التعليم المدرسي، وركَّز على قضية الحرية في برامج التعليم الجامعي، حيث يتاح للأستاذ أن يستمتع بحرية التفكير، ويتاح للطالب أن يستمتع بحرية التفكير، وكان "طه حسين" يرى أن الجامعة يجب أن تكون في حالة تجديد مستمر، وأن الذين يلتمسون المحافظة والإبقاء على القديم يمكنهم أن يطلبوه في غير الجامعة، فالعلم حر بطبيعته، ولا يُطلب بحكم القانون.. وأضاف أن النظم الجامعية التي تبنى على الحرية يجب أن تقوم على فكرة تمكين الأستاذ من أن يعيش للتفكير العلمي، فلا يضطر إلى التفكير في نفقاته وما تتطلبه حياته، وتمكين الطالب من أن يسمع وينتفع دون أن ينظر أو يفكر في المصاريف أو فيما ينفقه على نفسه ليعيش.. هكذا كانت الجامعة عند "طه حسين"، مدرسة للتجديد والنهضة العلمية ومعهدًا لحرية الفكر والإبداع للأساتذة والطلاب على حدٍّ سواء.

لقد كان ينتصر للطلاب وينحاز للفقراء وللطبقة التي خرج منها، ويرى ألا يُحرم طالبٌ من العلم؛ لأنه غير قادر عليه، ففي خطبة ألقاها بمناسبة تكريم المعلين لصديقه وزير المعارف نجيب الهلالي باشا في (٢٤ يونيو ١٩٤٣)، أشاد بالوزارة؛ لأنها قررت

ألا ترد طالبًا عن الامتحان؛ لأنه عجز عن دفع المصروفات أو قصر فى دفعها؛ ولأنها أكرهت المدارس والمعاهد وقوانين الدولة والنظم المالية والميزانية على أن يؤدى الطلاب امتحاناتهم مهما تكن الظروف، ورأى "طه حسين" أن ذلك سببه أن الحكومة تؤمن بالنظام الديموقراطى، الذى قوامه أن النظم والقوانين والتقاليد إنما أنشئت كلها لخدمة الشعب.

وعندما أصبح "طه حسين" وزيراً للمعارف عام (١٩٥٠)، رفض بإصرار أن تدخل قوات الشرطة الحرم الجامعى لتمنع الطلاب من دخول الإمتحان لعدم سدادهم الرسوم، ورأى الاكتفاء بحجب نتائجهم حتى يؤدوا ما يستطيعون من هذه الرسوم، وكتب إلى وزير المالية مقترحًا إعفاء طلاب السنين الأخيرة من رسوم القيد، وإمهال الطلاب الآخرين إلى بداية الفصل الجديد، حتى لا تضيع عليهم فرص النجاح.. وفى (مايو ١٩٥١) قبل استقالة مدير الجامعة آنذاك، وهو الدكتور محمد كامل مرسى باشا، لموافقته على تدخل الشرطة فى الجامعة، ولعدم موافقة المدير على آراء وزير المعارف.

لقد كان "طه حسين" يؤمن إيمانًا عميقًا بديمقراطية التعليم، يؤكد ذلك فى كل خطبة ومحاضرة، سواء داخل الجامعة أو خارجها، ففى خطبة ألقاها بالجامعة الأمريكية فى (٨ يونيو ١٩٤٤) عن التعليم والديمقراطية، أكد أن رقى التعليم فى مصر واتساعه ونموه وتعمقه يؤدى إلى استقرار الديمقراطية فى مصر وتغلغلها فى نفوس الشعب، وأشاد بإقدام الحكومة على تيسير التعليم الابتدائى وجعله بالمجان، وكان يرى أن طبيعة الديمقراطية وطبائع الأشياء ستدفعنا إلى أن يكون التعليم الثانوى بالمجان، وأن يكون التعليم الجامعى بالمجان أيضًا، ولم يتعلل "طه حسين" بأن السياسة تحول دون تنفيذ مشروعه، وإنما رآها تعين على تنفيذه، واتخذها وسيلة لذلك، ويشهد بذلك نشاطه وهو على رأس وزارة المعارف آنذاك.

وفى عهد ثورة يوليو، التى حققت مشروع "طه حسين"، فى شأن التعليم ومجانيته الكاملة وفى جميع مراحله، أولى "طه حسين" الثقافة اهتمامًا خاصًا، وتوضح هذه

الوثائق مدى حرصه على أن يكون لمصر مجلسًا للثقافة منذ عام (٩٥٥)، ولقد ضمت هذه الأوراق وثائق على درجة كبيرة من الأهمية تفيد فى دراسة المؤسسات الثقافية وتاريخها، فهى تحتوى أول مشروع لإنشاء "مجلس للإنتاج الفنى والأدبى" أو مجلس أعلى للفنون والآداب. وكان "طه حسين" قد رأى أن قيادة الثورة أنشأت مجلسين أحدهما للإنتاج القومى والآخر للخدمات العامة، وأنها بسبيلها لإنشاء مجالس قومية أخرى، وأنه حان الوقت لإنشاء مجلس للإنتاج الفكرى، ومن هنا كان المشروع، الذى يعد وثيقة بالغة الأهمية، والذى تحدث عن أهمية الفنون فى التطور الحضارى، واستعرض تاريخها، وأوضح ضرورة اهتمام الثورة بشئون الفكر والفن، وأن تضم شمل أهلها فى بيت واحد.

وتفيد القراءة الواعية للمشروع أنه من وضع "طه حسين"، الذى كان مراقبًا عامًا لإدارة الثقافة بوزارة المعارف منذ عام (١٩٣٩)، والتى حاول أن يجعلها وكالة للوزارة لشئون الفنون والآداب آنذاك، لكن تجربته الحكومية، وتكالب الإدارات على الاحتفاظ بمكانتها وسلطاتها وتشاحن الوزراء حال دون ذلك.. المهم سنلاحظ أن هذا المشروع صيغ فى شكل قانون ليصدر عام (١٩٥٥) بإنشاء "المجلس الدائم للفنون والآداب" باعتباره هيئة مستقلة تلحق بمجلس الوزراء، وحدد أهدافها ونشاطها وهيكلها وإداراتها وميزانيتها، وقد تطورت فيما بعد إلى "المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية" ثم أصبح "المجلس الأعلى للثقافة".

وتضم هذه الأوراق نص محاضرة ألقاها "طه حسين" عام (١٩٤٣) عندما دعته الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية لاحتفال أقيم بمدرستها، وكانت هذه الطائفة تتألف فى معظمها من اليهود المصريين، الذين لم تتضح لهم صلة بالمشروع الصهيونى آنذاك، وقد رأى "طه حسين" من خلال نزعته الإنسانية أن يستجيب لدعوتهم وأن يلقى محاضرة عن علاقة اليهود بالأدب العربى منذ العصر الجاهلى وخلال العصور

الوسطى، وفى تقديرنا أن "طه حسين" أطلق العنان لنفسه الحديث عن انطباعات تنطوى على قدر كبير من المجاملة، خصوصًا وأنه نبَّه فى نهاية محاضرته إلى أنه لا يجب أن يكون حديثه هذا تاريخًا، فالتاريخ علم موثق، له أصوله ومنهجه.

ومن الجدير بالذكر أن "طه حسين" لم يكن ميالاً للاستعانة بالأجانب فى شئون الإدارات الثقافية إذا لم يكن ثمة ضرورة لهم، ففى رسالة منه إلى وزير المعارف الدكتور محمد حسين هيكل فى (٤ نوفمبر ١٩٤١) طلب إليه استبعاد أحد المديرين الأجانب وهو (المسيو انجلباك) كبير أمناء المتحف المصرى لإهماله فى شئون وظيفته إهمالاً أدى إلى حدوث سرقات.

وسوف يلاحظ القراء أن هذه المراسلات تضم رسائل من عدد من القراء العاديين أرسلوها إلى "طه حسين"، وقد آثرنا نشرها؛ لأنه احتفظ بها ضمن أوراقه ولم يتخلص منها؛ ولأنها، فى تقديرنا، تحتوى على أصداء طبيعية وتلقائية لما كان يكتبه وينشره، فضلاً عن تعبيرها عن مشاعر إنسانية، فياضة، ناهيك عن أن بعضها يطلب منه المساعدة والدعم، كما سيجد القراء رسائل كثيرة من الكتاب والأدباء من مختلف أنحاء الوطن العربى، مشرقه ومغربه، بعضهم يستطلع رأيه فيما يكتبونه، وبعضهم يطلب مساعدته لنشر أعمالهم فى مصر، والبعض الآخر يعلق ناقداً على بعض كتابات العميد، وكل هذه الرسائل تؤكد التواصل الحميم الذى حرص "طه حسين" عليه مع الأدباء والمثقفين العرب، إعلاء لقيمة الثقافة والأدب ودورهما فى دعم العروبة، كما تكشف هذه الرسائل عن جوانب من العلاقات الثقافية بين مصر وشقيقاتها العربيات.

لقد كان "طه حسين"، كما تكشف الرسائل والأوراق، مدافعًا عنيداً شديد المراس عن العدالة الاجتماعية، وعن الحرية فى كل صورها، حرية العلم، والفكر والثقافة والنشر، يمارسها ويحض تلاميذه وأصدقاءه على ممارستها، وأثبت أنه كان شجاعًا

بعيد النظر قوى الإرادة، يضحى بمصالحه الخاصة فى سبيل المصلحة العامة، وأنه كان مستقلاً فى فكره، حتى وهو يعمل من خلال وظائفه الحكومية، التى كان غالبًا ما كان يستغلها لتحقيق سياسته وأهدافه، ولم يكن أسيراً أو خاضعًا لها.

وأخيراً، تحية إلى ذكرى "طه حسين" المتجددة، وإلى ذكرى كل الراحلين الذين تراسلوا معه، وكل العرفان والتقدير لأسرة العميد التى تركت للوطن هذه الثروة العلمية والثقافية، شهادة على عطاء عصر جميل، وأمانة للأجيال القادمة، والتحية واجبة إلى دار الكتب والوثائق القومية، التى أصدرت هذا العمل الوثائقى الكبير.

* * *

هوامش الفصل السادس ومصادره

(١) تقديم (نجيب محفوظ) لكتاب إبراهيم عبدالعزيز "رسائل "طه حسين"" مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٥.

(٢) راجع مثلاً رسالة من عبده عزام بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٢٧، ورسالة عوض محمد عوض بتاريخ ١٠ يناير ١٩٣٠، ورسالة فؤاد حسنين علي بتاريخ ٧ أغسطس ١٩٣٠، ورسالة زكي حسن بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٣٠.

(٣) راجع خطاب "طه حسين" بتاريخ ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٤.

(٤) محمد برادة: "محمد مندور وتنظير النقد الأدبي"، سلسلة كتاب فكر، دار فكر القاهرة ١٩٨٦، ط ٢، ص ٢٥ - ٢٩

(٥) راجع على سبيل المثال رسالة مندور إلى "طه حسين" في ٤ نوفمبر ١٩٣٥، ورسالته في ١١أغسطس ١٩٣٦.

(٦) عن حياة السنهوري ومؤلفاته راجع كتابه: "عبدالرازق السنهوري، فقه الخلافة وتطورها"، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٥٦، ترجمة لحياته ومؤلفاته ص ٢٨٥ - ٣٩١، وراجع رسالة السنهوري إلى "طه حسين" في ٦ فبراير ١٩٣٦، رسالة بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٣٦.

(٧) رسالة فؤاد حسنين بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٣٦.

(٨) رسالة "طه حسين" إلى مدير بنك مصر بتاريخ ١٤ يونيو ١٩٣٨.

(٩) رسالة فؤاد حسنين على في ١٨ أغسطس ١٩٣٩، ورسالة بتاريخ ٧ أغسطس ١٩٣٠.

(١٠) رسالة "طه حسين" للنقراشي باشا في ٢٠ أبريل ١٩٤٠.

من قصيدة الشاعر الكبير نزار قباني
في رثاء "طه حسين" (فبراير ١٩٧٥)

ضوء عينيك.. أم هما نجمتان
كلهم لايرى.. وأنت تراني
لست أدرى من أين أبدأ بوحي
شجر الدمع شاخ في أجفاني

...

صدق الموعد الجميل.. أخيراً
ياحبيبي، وياحبيب البيان
ما علينا إذا جلسنا بركن
وفتحنا حقائب الأحزان
وقرأنا أبا العلاء قليلا
وقرأنا (رسالة الغفران)
أنا في حضرة العصور جميعًا
فزمان الأديب كل الزمان
ضوء عينيك.. أم حوار المرايا
أم هما طائران يحترقان
هل عيون الأديب نهر لهيب
أم عيون الأديب نهر أغاني
آه ياسيدي الذي جعل الليل
نهاراً.. والأرض كالمهرجان
ارم نظارتيك.. كي أتملى
كيف تبكي شواطئ المرجان
ارم نظارتيك.. ما أنت أعمى
إنما نحن جوقة العميان .

...

إنك النهـر.. كم سقـانا كـؤوسـاً وهو يجـرى كـالشهـد تحت لسـانى
وحدك المبصر الذى كشف النفس وأســرى فى عــتــمــة الـوجــدان
أيهــا الأزهرى.. يـاســارق النار ويا كــاســرا حــدود الشــوانى
عـد إلينا.. فـإن عـصـرك عـصـر ذهبى.. ونحن عــصـــر ثانى
عـد إلينا.. فـإن مـايـكتـب اليـوم صـغـيـر الرؤى.. صـغـيـر المعـانى

نبذة عن المؤلف

* أحمد زكريا الشّلق:

- من مواليد طنطا عام ١٩٤٨.
- حصل على الدكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس عام ١٩٨١
- يعمل حاليًا وكيلاً لكلية الآداب جامعة عين شمس، وأستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصر.
- حصل على جائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٦
- رئيس تحرير سلسلة «مصر النهضة» التى تصدر عن مركز تاريخ مصر بدار الكتب والوثائق القومية.
- من مستشارى تحرير سلسلة «التاريخ - الجانب الآخر» التى تصدرها دار الشروق.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، واللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر.

من أهم مؤلفاته:

- حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية، دار المعارف ١٩٧٩
- حزب الأحرار الدستوريين، دار المعارف ١٩٨٢
- رؤية فى تحديث الفكر المصرى، جزءان، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٤ و ١٩٨٧
- الحزب الديمقراطى المصرى ١٩١٨-١٩٢٣، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٧

- فصول من تاريخ قطر السياسى، المركز الأكاديمى بالدوحة ١٩٩٩
- العرب والدولة العثمانية، ١٥١٦-١٩١٦، مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٢
- تطور مصر الحديثة، مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٣
- الحداثة والإمبريالية، الغزو الفرنسى وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق ٢٠٠٦
- أحمد فتحى زغلول والآثار الفتحية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦
- الشيخ مصطفى عبدالرازق ومذكراته، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦
- تطور مصر المعاصرة، فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، القاهرة ٢٠٠٧
- بالإضافة إلى عشرات البحوث والدراسات فى المؤلفات المشتركة والدوريات العلمية.

المراجعة اللغوية : اكرم إبراهيم حمودة .

الإشراف الفنى : أنچى چورج وديد .

«طه حسين» هو «طه حسين» ، تلك الشخصية التى يصعب الحكم عليها بتلك البساطة ، ذلك أننا أمام شخصية تاريخية مركبة ، شخصية نضالية عنيدة ذات رسالة وفكر وسلوك ، تمتلك رؤية وتقديرًا لحكم التاريخ .. عاش حياة ثرية حافلة ملأت الأسماع والأبصار ، وامتد به الأجل لنحو أربعة وثمانين عامًا (١٨٨٩ - ١٩٧٣) ، ليتحدث بيأس ومرارة فى عامه الأخير إلى غالى شكرى قائلاً «إن البلد لا يزال متخلفًا وفقيرًا ومريضًا وجاهلاً ، نسبة الأميين كما هى ونسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو إلى الانزعاج ، يخيل إلىّ أن ما كافحنا من أجله ، هو نفسه ما زال محتاجًا إلى كفاحهم وكفاح الأجيال المقبلة بعدكم .. أودعكم بكثير وقليل من الأمل» .



